سميح فتحي

ريسال

رواية

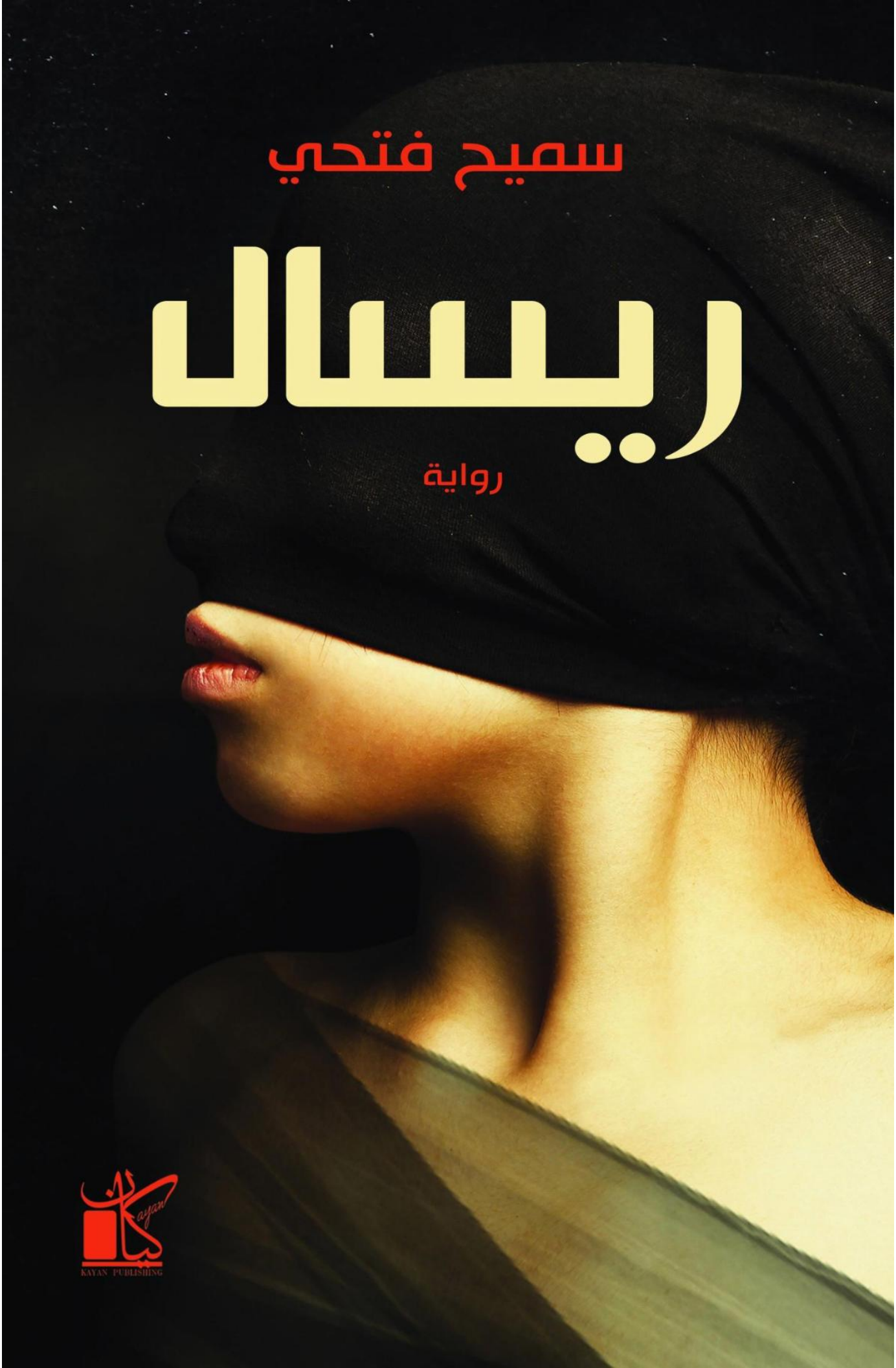

كيان
KAYAN PUBLISHING

ريسال

سميح فتحي

رواية

ريسال

رواية

تأليف :

سميح فتحي

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

تحرير أدبي:

سندس الحسيني

مراجعة لغوية:

سيد عثمان

رقم الإيداع: 2017/22461

الترقيم الدولي: 978-977-820-047-8

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم

هاتف أرضي: -0235688678 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: kayanpub*gmail.com - info*kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من النـاشـر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

-1-

مِن شِدَّةِ شغفِه في متابعةِ الوصولِ إلى المجهولِ لم يكن يعلم أن الرُّعبَ يتسلَّل تدريجيًّا بهذا الحجمِ من الفزعِ مع كل خطوةٍ يخطوها في الطريق الذي وصل فيه إلى المنتصف تقريبًا، كيف لم يدرك أنَّ هذا الطريق مصيدةٌ؟ وأنه لم يصادف أحدًا من الجنِّ؟ ولم تفترسه الوحوش رغم أنه قطع النهار ماشيًا فيه وقد قاربت شمس الحياةِ على المغيب إلى الأبد، أوقفه عن التقدُّمِ أنه استنفد كل ما في جسده من الماء عَرَقًا ودخل مرحلة التفحُّمِ تحت صدمة فجيعةِ أنه لا توجد على طول امتداد الطريق قطرة ماءٍ، وقد أمسى التفكير في العودةِ مستحيلًا جديدًا يُضاف إلى مستحيلات هذا العالم، وأن أقصى ما يستطيع أن يفعله مع وحشيَّةِ هذه الصَّحاري هو أن يصمدَ كي يموت واقفًا، وكأن الموتَ كان قد قطع على نفسِه عهدًا ألا يتركَ أحدًا مِن الإنسِ والجنِّ إلا أخذه مِن الدُّنيا عبرَ الطريقِ السريعِ للرَّحيل مِن أوسعِ أبوابِ الآخرة.

صمد بما تبقى لديه من وعيٍ يفكِّرُ فيما يجب عليه أن يفعل في ظلِّ عجزه عن حفرِ قبرٍ يليق بمثواه الأخير، لكنَه فوجئ بوصولِ عطرٍ فارهِ الأنوثةِ إلى أنفِه، فبدأ يستنشق جرعةً تلوَ أخرى ساحبًا الشهيقَ إلى رئتيه؛ وكأن الروحَ قد أُعيدت إلى ذلك الجسد الذي كان قد شارف على الموتِ.. فأخذ يفكِّر:

- ما بالُ هذه الأرضِ وكأنَّ عليها امرأةً من سكَّانِ الجنةِ؟!

.. وفجأةً كانزلاقِ قدمين لحظةَ شرودٍ في بئرٍ سحيقٍ وجدَ نفسَه ضحيَّةً على مسرحِ جريمةٍ من أشدِّ أنواعِ جرائم الاختطافِ خطورةً، إنه ذلك المجهولُ الذي يسرقُ منك نفسَك بينما أنتَ ما تزال في مكانِك لا تجدُك هنا ولا تجدُك أيضًا هناك..

كان مِن المنطقيِّ أن تنخفضَ درجةَ حرارةِ التَّنهيدِ، ولا سيَّما بعدَ نزولِ قميصِ المساء الأحمرِ على براحِ المدَى ساترًا عُرْيَ ذلك النهارِ البشعةِ أحداثُه، إلَّا أنَّ الأمرَ كان أشبَهَ بسقوطِ

جبلٍ على صدرِ نملةٍ دفعةً واحدةً أو كانفجارِ صراخٍ عارمٍ أثناء مرورِ زلزالٍ عنيفٍ على مدينةٍ كانت هادئةً، ذلك أنَّ الحبَّ لا يسقطُ فوقَك إذْ يقعُ أوَّلَ مرةٍ، وإنما ينادي قبلَ وقوعِ الغرامِ منادٍ من السماءِ أنَّ اللهَ يحبُّك؛ فتُبدَّلُ الأرضُ غير الأرضِ، ذلك أنَّ الرحمنَ يمهِّدُ للأحداثِ العظيمةِ قبلَ أن تقعَ في هذا العالمِ؛ إنها أن وقعَت فجأةً قتلَتْ أصحابَها ارتطامًا بالفرح.

مضى متعجبًا كيف لعطرِ أنثى مجهولٍ أن يتلفَ دماغَ رجلٍ حدَّ السُّكْرِ، فبدأ جسده بالهذيان حين تخيَّل فراولة شفتيها وكأنهما تتحركان:

- يدهشُني أن تقف عند شفتي قبلاتُك كلها، وقد منحتُكَ فمي على العمق المسمَّى بيننا.

.. فانزلق مُجْبَرًا يوسوس لشياطين نفسِه:

- تعالى نرتكب كبيرةً فإنني قد سئمتُ تلك الذنوبَ التي تكتفي بالقُبل.

..وتصوَّرَ كأنَّ شفتيها قد بَدَأَتا في التحرّكِ:

- لي شرطٌ كي أدعوك عشيًّا، أن تأتِيني بجموحِ حصانٍ دون لجامٍ وادهسْني دهسًا وحشيًّا، بل قَبِّلْني بمعاركَ عنفٍ لا تتركْني حتى تراني في غيبوبةِ سُكْرٍ كبرى ساقطةً جِدًّا مغشيًّا.

..فلمَّا بدا في خياله عودُها أمام عينيه ملفوفًا عاد دماغه يهلوِسُ:

- لا أريد منك إلا المنطقة الواقعة بين أظافر قدميك وأطراف شعركِ فقط لا غير.

.. وبدأ ذلك الغريب يفكِّر في صمتٍ:

- هل العطر الذي أشمه حقيقيًّا وأن امرأة هنا في مكان غير بعيد؟! لماذا يبدو لي أنني أرى جسم امرأةٍ؟ هل لبسني الجنون وهذه هلاوس من أعراض الإصابة به؟! لماذا لم أعد أفكِّر في العطش؟!

.. وبحسبِ الشائعاتِ المتداولةِ كان أحدَ المجرمين قد ردمَ آبارَ هذا الطريق وحفرَ قبورًا مجهولةَ الهويَّةِ لكلِّ العابرين خلالَه.

وبينما كان الغريبُ يحدقُ في الأفقِ وسطَ مطاردةِ وَهْمِ العطرِ له وهو يمضي يائسًا مِن بلوغِ قطرةِ حياةٍ على طولِ امتدادِ الموتِ المسيطرِ على المدى لمحَ بالفعلِ فتاةً فارهةَ الجاذبيةِ تحاولُ الانتحارَ؛ فانتبه أن ما يحدث له لم يكن خيالًا؛ فانطلقَ تجاهِها ناطقًا بِأعلى ما في حِبالِ حنجرةِ أعماقِه إلى الحَدِّ الذي جعلَ عروقَ رقبتِه تنتفخُ؛ إذْ لمحَها تمشي بخطًى مُطْمَئنَّةٍ نحوَ السقوطِ في البئرِ السحيقِ، وكأنَّه قد أُصدِرَتْ إلى ملكِ الموتِ الأوامرُ بإعلانِ غروبِ القمرِ وهو يحاول أن ينطق مِن خلفِها:

- ها هاااا

كان مِن المستحيلِ على أُذُنيها أن تسمعَا مَن لا ينطق الكلمات؛ الأمرُ الذي جعلَه يُضْطَرُّ إلى الدورانِ وهو يجري نحو وجْهِها غيرَ بعيدٍ ليلوِّحَ مباشرةً أمامَ عينيها لعلَّ هذه الملائكيةَ تتراجعُ عن مشروعِ الموتِ على إثر رؤيتِها له.

ارتسمت على وجهِهِ أمارات ألمٍ تشبه وجعَ اختطافِ ثدْيِ أُمٍّ إلى الأبد مِن فمِ رضيعها الجائعِ حدَّ الهلاك، وبات لديه يقينٌ أنَّ هذه المُخْتَلَّةُ ستسقطُ في البئرِ لا محالةَ بعدَ أن تجاهلَتْ تحذيراتِ تلويحِه ورغمَ شدَّةِ اقترابِه وكأنها قد اتَّخَذَتْ قرارًا لا رجعةَ فيه بالموتِ فماتت بالفعل قبلَ الموتِ؛ فأسرعَ ينهبُ الأرضَ في ذهولٍ، وتراه تحسبُه أصبح بجناحين بينما هو ما يزالُ يناديها وكأنَّه قد أُصيبَ بالصَّرعِ بعدَ أن تشنَّجَتْ الروحُ حتى أنه لم يعد يقوى على مجرد الصراخِ من فرطِ هلع الانطلاق للقيام بذلك الإنقاذ المستحيل:

ها هاااا!!

بلغَ قلبُه حنجرتَه وكادت أن تخرج حبَّتا عينيه من عينيه على إثر تقدُّمِها نحو أنفاقِ المهالكِ فسقطَ ونهضَ زاحفًا، وعلى بُعْدِ دقَّتي قلبٍ مِن موتِها وفي المسافةِ الفاصلةِ بين قدمَيها

والسقوطِ عاشَ الدنيا كاملةً فيها، وعانقَ الذي لا يعرفُها التي لا تعرفُه، وكأنَّ الأحلامَ قد أُختُصِرَتْ في أن يجدَ بعدَ سقوطِها شيئًا مِن أشلاءِ ملامحِها لعلَّه يلقي عليه في أسفلِ البئرِ نظرةَ الوادعِ الأخيرِ.

وقع الحُبُّ كخطفِ البرقِ وضربِ الرعدِ وانهيار جسرٍ بالذين كانوا عليه فجأة، إنه صورةٌ من الموتِ طبق الأصل لا إنذارات ولا سابق مواعيد، ووقعَ ذلك الغريبُ في عشق المجهولةِ بعدَ ثلاثين سنةً مِن البحثِ في هذا العالمِ عن الجنَّةِ قبلَ أن تقعَ في الموتِ بثلاثِ شهقاتِ أنفاس، فصُدِمَ حين وقعَتْ عيناه على وجهها وجهًا لوجْهٍ:

- ملكاتُ حسنٍ للجمال أمامَ كُحْلٍ في رموشك لا تساوي في عيوني بقايا ظُفْر، وجميع آلهةِ الجمالِ على سبيلِ الكبرياءِ إذا تُقارنُ بالنبيذِ على الشفاهِ أشدُّ كُفْر.

هكذا تمتم الغريبُ في نفسِه:

- ما بالُ الصدفةِ وكأنَّها كانت موعدًا؟!

كيف يمكنُ أن تختَصرُ العينُ أماكنَ هذا العالمِ في ملامحِ امرأةٍ ويضبطُ القلب مجموع دقَّاته في الدنيا على زمانِ امرأة ولا تموت النساءُ حين تموتُ امراةٌ وإنما تموتُ معها الدُّنيا.

كانت حادثةُ العشقِ أشبَه بسائقٍ غاضبٍ يقودُ مركبته بسرعةٍ جنونيَّةٍ ثمَّ انقلبَتْ به وبينما كان في الشَّهقاتِ الصعبةِ الأخيرةِ من الحياةِ الدنيا اكتشف قيمةَ الأكسجين وحقيقةَ وقوع الموتِ فجأةً، ذلك الموت هو الحبُّ وهذا الأكسجين هو امرأةٌ واحدةٌ من بين نساء العالمين.

تقدَّمَتْ ووضعَتْ قدَمَها اليسرى على الأرضِ بثباتٍ وكأنها ليست ذاهبةً إلى الدارِ الآخرةِ، ثمَّ وضعَتْ بالتوقيتِ الزمنيِّ للثقةِ قدمَها الأخرى على فراغِ حفرةِ البئرِ؛ فارتعش قلبُه لحظةَ سقطَ جسدُها وحدقتا عينيه المذهولتان تراقبان موكبَ جنازةِ سقوطِها في هلعٍ ورعبٍ شديدين؛ فانتفضَ وكأنه يطيرُ بقدميه على الأرضِ حتى إذا وصلَ البئرَ قفزَ خلفَها لا يعلمُ

إلى أين، لكنَ المشهدَ كان أشبَه بتشييعِ عاشقين إلى قبرٍ سحيقٍ في حفلِ زفافٍ كبيرٍ لم يسبق أن حدث مثل هذا ولو في أساطيرِ الأولين.

وبعد سقوطٍ بعيدٍ بمذاقِ الارتفاعِ الشاهقِ وانتحارٍ بمعنى الولادةِ في مسافةٍ على الطريقِ إلى الموتِ اللذيذِ ارتشقَتْ قدماه بجانبِها وهي ملقاةٌ على وجهِها الذي لا يظهرُ منه إلا شَعرُها من الخلفِ.

انتفضت روحه حين جذبها من طين القاعِ في الظلامِ إلَّا قليلًا مِن ضبابِ الصورةِ، وقَلَّبَها ذات اليمين وذات الشمالِ وكأنَّها الموتُ الطازجُ بينما هو ما يزالُ يبحثُ عن نبضٍ قديمٍ؛ فوضعَ رأسَها على كفِّ يدِه وكأنها وسادة وهو يرتجفُ ثم ضغطَ على صدرِها عَلَّها تلتقطُ أنفاسًا لو كانت ما تزالُ على قيدِ الدنيا ودموعُه تجري ما بين نهدَيها، وأخذ عبثًا يسحبُ مِن رئتيها الهواءَ عبر قبضِ شفتيه على شفتيها في محاولةٍ لا شأنَ لها بقانونِ الدنيا التي لا يعود إليها هؤلاء الذين ذهبوا.

ففوجئ بأنها تحاولُ التقاط الأنفاس كما فوجئَ بانتفاضِ جسدِها، شهَقَت وأخذتْ تسعل الطينَ بينما هو في قمَّةِ احتفالِه بالجنونِ كلقاءِ طفلٍ يتيمٍ بأمِّه ذات حلمٍ وهو يضحك نائمًا؛ إذ وجدَها ما تزالُ تتنفَّسُ، وكأنَّ الملائكةَ تدغدغ ذاك الشَّابَّ الغريبَ، فلا تسألوا العشَّاقَ إذا ضحكوا لماذا تضحكون فقد تكونُ الإجابةُ لا علاقةَ لها بالسببِ، وهل يُسألُ عن سرِّ الضحكِ السَّكارى؟!

ولمّا سكنَ صوتُ ارتجاعِها للطينِ المعجونِ بالماءِ الراكدِ مِن قعرِ أسفلِ البئرِ ألقَى الإغماءُ برأسِها بين ذراعيه قليلًا نحو يسار صدرِه؛ فنامت طويلًا، ومدَّ يدَه اليمنى في الأسفلِ ليلتقَطَ بعضَ قطراتِ الماءِ فوجده معجونًا بالطينِ ثم أُعيدت عيناه إلى التحديقِ الاضطراريِّ فيها وهو يحدِّثُ نفسَه:

- ما عادَ بوسعي أمامَ الفتحِ الرَّبَّانيِّ للجاذبيةِ في عينيكِ إلَّا الوضوءُ خشيةَ أن ألمسَكِ دونَ طهارةٍ وأكونَ بذلك قد صرت عاصيًا. مطمئنةٌ رغم الرُّعب ملامحُ وجهك يا فتاة وكأن البرقَ

قد شقَّ ظلمات العالم فاطَّلَعَتْ عيناكِ على صحف العالمين إلى يومِ القيامةِ!

ثم نظرَ نظرةَ سارقٍ إلى شفتيها المكتنزتين وخالَها تهمسُ له:

- تعلَّمْ فنَّ الإطاحةِ بدماغِ الوعي لتفقدَني الشعورَ بالخوفِ مِن رؤيةِ الناسِ لنا إذا تعثَّرْتُ ذات لهفةٍ على شفتيك بِقُبْلَةٍ في ميدانٍ عامٍ.

وبينما يعيش المزيدَ من التهيُّؤاتِ على أثر انجرافِه مع شلَّالات الجاذبيةِ استمرَّتْ الدقائقُ في المرورِ حتى هدأَ حفلُ الفرحِ الذي كان في عينيه حينما نُصِبَ أيضًا سرادقُ عزاءٍ في صدرِه وهو ما يزالُ يحتضرُ خوفًا على امرأةٍ يحسبُ أنها طلبَتْ اللجوءَ إليه، ونظرَ لأعلى فتحة البئرِ فلمحَ نورَ السماءِ بعيدًا وأنه في أنفاقِ الأرضِ في صحراءَ، والصحراءُ ليس فيها إلا غُرْبةٌ لِقبضِ أرواحِ التائهين فيها، مَن الذي سيمرُّ بِدَلْوٍ لينقذَه في جُبٍّ لا يأتي فيه إلَّا الموتُ، ولو حدَثَتْ المعجزةُ ومرَّ أحدُ التائهين ونجا مِن دروبِ الموتِ عطشًا إلى هنا كيف سيسمعُ النداءَ إذا كان مِن رجلٍ أبكم أقصى ما يستطيعُ النطقَ به هو أصوات على غرار؛ ها هاااا.

مرَّت الدقَّاتِ بسرعةِ البرقِ، وفي النبضةِ التي لاحظَتْ فيها عيناه مِن الأسفلِ أنَّ النورَ الذي في السمواتِ قد قاربَ على الذهابِ، وبدأَ الخوفُ يرعدُ في روحِه على تلك الأنثى التي آوتْ إلى كهفِ ذراعيه ربَّما هاربةً من آلامِ الدنيا.

كان قد نظَّفَ وجهَها وجسدَها وبعضَ ما استطاع مِن ملابسِها ووضعَها على ساقيه المتربَّعتين في الطينِ ليحميَها مِن الغوصِ في حزنِ القاعِ ويضمن لها موتًا راقيًا يليق بأناقة هذه النورانيَّةِ.

استسلمَ للرحيلِ عن هذا العالمِ وبدا له أنها بالفعلِ قد رحلت، ونظرَ إلى وجهِها وهو ما يزال يدمعُ ولا يصدِّقُ أن محكمةَ الدنيا قد أصدرَتْ الحكمَ على القمرِ بالغروبِ، وقبلَ الوداعِ بخمسَ عشرةَ دقَّة قلب أفاقتْ؛ فبدا حزينًا خائفًا وكأنه لم يكنْ يريد لها أن تستيقظَ؛ لترقد

بسلامٍ إلى الأبدِ ولا تلقَى ما سيلاقيه مع ملائكةِ العذابِ من الاحتضارِ البطيء في الخوفِ والجوعِ بعدَ أن بات لديه يقينٌ أنَّ نوافذَ السمواتِ لن تطلَّ منها الرحمةُ في هذا المكانِ البعيدِ.

نزلَتْ من رقادِها على ساقيه، استغرقَتْ بضعَ أنفاسٍ وهي تحاولَ أن تستوعبَ بيديها ما هي فيه ثم رفعَتْ وجهَها القمريَّ الكاملَ في اتجاهِ أنفاسِ ذلك القدرِ الغريبِ، ثم تبسّمَتْ وهو ينظرُ في حبتيِّ عينيها العسليّتَين وكأنه يرى امرأةً شاردةَ الروحِ تتناقلُ في الذاكرةِ عدَّةَ صورٍ وهي تشهقُ شهقًا وتحدِّثُ شهيَّتَها خُفيةً:

- مَن قال لحضْنِك حين أُقاومُ أني قد أحتاجُ لعطف، يا سيِّدَ روحي لا للرحمةِ حين يحينُ أوانُ القطف، الدنيا تهربُ منَّا والأيَّام حبيبي تمرُّ وتخطفُ منَّا الفرحةَ خطفًا.

فبدا كأنه يعاني صدمةً أشدَّ من صدماتِ سقوطِه وهو يقولُ لها:

- هاهاااااه هاهاه

.. ضحكت ضحكًا تدرَّجَ لأعلى نحو الهيستيرية كارتفاعِ معدَّلاتِ جنونِ روحٍ حتى صنعَ الحزن ضبابًا في سماءِعينيها بينما هو بين الفرحةِ بها والحزنِ عليها كطفلٍ ملهوفٍ على طعامٍ ساخنٍ جدًّا كلما حاول أن يأكلَ احترق فمُه فلا استطاع أن يأكله ولا استطاع أن يتوقَّف عن اللهفةِ وسط فرحتِه بأن الطعام بين يديه وبكائه من شدِّة الجوع.

حاولَ أن يشيرَ إليها بقربِ ذهابِ النورِ والوحلِ في الظلامِ الدامسِ على متنِ هذا الطينِ في هذا الجُبِّ السحيقِ، وأنَّ آخرَ علاقةٍ لهذا القاعِ بالنورِ تمتدُّ بعيدًا إلى مسافةٍ مِن المضحِكِ التفكيرُ في تسلُّقِها، لكنَه حاولَ أن ينهضَ فشعر ألمًا عارمًا على خلفيةِ كسرٍ في إحدى الساقين ربَّما، ولولا أفراحُ الروحِ في بهاء هاتين العينين المقدَّستين لكان للألمِ يومئذٍ شأنٌ كبيرٌ وسطَ ذهولِه الذي ملأَ ملامحَه مِن رؤيتِها وهي ما تزالُ تنتشرُ في ملامحِها الأفراحُ

في هذا السُّرادقِ الذي كان يجبُ أن تُشَقُّ فيه الجيوبُ وعلى الوجنات كان يجبُ أن يقامَ عرضُ اللطمِ الكبيرِ.

جلسَ متعجبًا جدًّا ومتسائلًا في نفسِه وهو يحاولُ أن يحافظَ على قدسيةِ الموت والقبرِ الذي هما فيه:

- في كل الفاجعاتِ التي تشبه هذه الفاجعةَ يفيقُ المُغْمَى عليهم ليتساءلوا: «أين أنا وما هذا المكانُ ومَن أنتَ وما الذي أتى بي إلى هنا» بينما هذه المجنونةُ أفاقت تضحكُ!

بدا التوترُ يظهرُ على وجهِ الفارسِ الغريبِ ويداه ترتعدان خوفًا عليها وبدأ يفكرُ:

- لولا أنِّي أعلمُ أنَّ الجنَّةَ ليست ظلامًا وليست بئرًا لقلتُ إنني في الجنة وهذه هي حوريَّتي.

هدأ ضحكُها رويدًا رويدًا وبدأتْ تمسحُ بأناملِها سُحبَ الدموعِ التي انهمرت على خدِّ الورد الطازجِ؛ بدا وجهُها مخطَّطًا بالطينِ بعدَ أن كان قد مسحَه ونظَّفَه بالنصفِ الذي لم يتلوَّث بالطينِ مِن قميصِه، فأشارَ الفارسُ الأبكم بأصابعِه نحو الأعلى لينبِّهها بِمَدَى الخطرِ اللذَين سقطَا فيه فما انتبهَتْ، فبدا عليه التوترُ وربَّما بعضُ الغضبِ لكنَ المؤكَّدَ أنَّ الخوفَ بدأ يتَّخذُ في صدرِه مساحاتٍ ليست بالصغيرة بعدَ أن بدَتْ له وكأنها مِن فقْدِ الخوفِ مِن المشهدِ ممسوسةٌ أو جِنيةٌ؛ وتقهقرَ للخلفِ في فوضى رُعبِه وهو يحدِّقُ في مستقبلِ مصيرِ الدقائقِ المجهولةِ القادمةِ.

ولما وصلها إحساسُه بالهلعِ عادت للابتسامةِ لكنها هذه المرة ابتسامةَ اطمئنانٍ وضعَتْ بعدَها كفيها على كتفيه بعد محاولتِها تحديدِ موقعِه بدقةٍ وقالت وهي تشيرُ إلى شفتيها ليفهَم حديثَها على خلفيةِ تفهُّمِها أنه الأصم الأبكم الذي لا يسمع ولا يستطيع الكلام:

- اطمئنْ.

فأشار لها وهو يضربُ بِأناملِه على كتفِها كدليلِ اعتراضٍ وكأنه يريدُ أن يستفهم:

- مِن أين يأتي الاطمئنانُ؟؟!

فحاولَت بتحريكِ شفتيها وإشارات يديها أن تقولَ له:

- في كفرٍ باتَ الظمأُ فيه يُفْزِعُ الأنهارَ ما تزال الصحاري بالإيمانِ مطمئنةً بوعودِ الغيومِ ونزولِ المطرِ، يكفي من القلبِ أن تضحكَ لتكونَ على قيدِ الحياةِ.

فهمَ السياقَ العامَ لما تقصد وعاد يلوحُ لها:

- لن ينفعَنا ما تتفلسفين به الآنَ!

ظنتْ أن الخوفَ أسكَتَه فاستأنفَتْ تشيرُ باتجاه أنفاسِه المرتعبةِ:

- ما الدنيا إلا بحرٌ غريقٌ وكلُّ الذين لا يجيدون السباحةَ نحو السمواتِ غرقى.

باءت محاولاتُ الأبكم بالفشلِ وما نجحَ في أن يحدثَها بالتلويحِ ولا بِما يملكُ من بعضِ لغةِ الإشارةِ، وهي لا تتفاعلُ معه حتى بدأَ الاندهاش يتخذ موقعًا لا بأسَ به على وجهه مِن صمتِ تفاعلِها الغريبِ وهو يحاورُ اطمئنانَها بقلقٍ شديدٍ:

- لابد من وسيلة للخروجِ من هذا الموتِ!!

انتابَتْه الدهشةُ أكثر حين لم تتفاعلْ على الإطلاق وبدا خائفًا جِدًّا وأشارت له:

- عندما تمتنع الأسبابُ يكون الله هو السببُ، وكلُّ أسبابِ الموتِ لا تمنعُ الحياةَ والموت لا تمنعه كل أسباب الحياة.

هدأ الفارسُ قليلًا وكان ما يزالُ يرغمُ عينيه على غضِّ البصرِ قدر المستطاع عنها في هذا المكانِ المقدَّسِ الذي لا يحتملُ البوح بأي مشاعر.

ولأول مرةٍ في حياتِه يحزن بهذا القدر على عدم قدرته على تكوين جملةٍ أو سماع شهقِ أنفاس امرأةٍ، وأشارَ مفتعلًا الجَدَّ بأناملهِ العشرةِ تجاهَ رأسِه في تعبيرٍ يبيِّنُ لها أنه يريدُ تفسيرًا لصمْتِها وإلا فدماغُه ستنفجر، فما استجابَتْ ولا تفاعلَتْ معه فازدادَ الرُّعبُ ولا سيما مع اقترابِها الشديدِ، ففهمَتْ مِن رعشَتِه أنه لم يفهمْ أنها لا تراه ولا ترى شيئًا وأنها تخيلَتْ ما هي فيه بهدوءٍ على عكسِ ردودِ أفعالِ البشرِ، فدمعَتْ العينان العسليتان دمعتين ساخنتين ثم أشارت بكفيها إلى عينيها الحزينتين المتجهتين نحوَ هبوبِ أنفاسِه أنها لا ترى شيئًا!

زلزلتْه دموعُها وما حاول أن يقتسمَ معها الحزنَ وإنما استدعى أحزان الدنيا حتى لا يُبقي لها وجعًا يُذكرُ، وتجعدَتْ ملامحُ الطفلِ وشابت الضلوعُ حين كتم عن آذانِها صراخَ الألمِ، وبدا له في أولِ الأمرِ أن العمى مؤقتٌ وقد نتجَ عن حادثة السقوطِ الكبيرِ وربما عما قريبٍ سيزولُ لكنها حاولَت أن تشرحَ بـ «لغةِ الإشارةِ» أنها كفيفة، ربما فهمَ مِن جديدٍ ولكنه لا يريدُ أن يصدِّقَ ذلكَ الخبرَ القديمَ، ربما كان يريد تمرير سيناريو انتحارِها بعد حصوله على موافقة القدر بالإجماع ذلك أنه أحبَّ أن تراه بطلًا ينقذ من الموتِ القمرَ حين تعود للحياةِ.

أرغَمَتْ قلقَها على العودَةِ إلى مستوى اطمئنانِ الروحِ وسطَ محاولاتٍ لإجبارِ الابتسامةِ أيضًا على أن ترسمَ نفسَها على الشَّفَتين وأمسكَتْ بكفيه المرتعشين في قوةٍ وهي تحاولُ أنِ توضحَ له أنه لا بد أن يقتنعَ أنها كفيفة، وأنها علمَتْ أنه أصَم لا يسمعُ ولا ينطقُ وأنهما لا بد أن يجدا لغةً للتفاهم حتى يبحثا عن حلٍّ لما هُم فيه.

- هذا البئر هنا منذ عشرين سنة ولم أسقط به ولم تخطئ قدماي تفادي موقعه إلا حين أتيتَ!

تلك الفوضى الكبيرة هي ذلك النظام المعجز في علم الغيبِ، حكمتُه لا يطمئن لها إلا هؤلاء الذين يظنون بالله خيرًا.

شردَتْ قليلًا وعادت بذاكرتِها إلى حيث لا يعلمُ الأبكم وقالت لنفسِها:

- الله لا يملأ الكفين اللتين تركتا العملَ ولو ارتفعتا بإلحاحٍ للدعاء ألف عامٍ، فقد ضرب موسى بعصاه البحرَ وهزت جذعَ النخلةِ مريمُ.

ثم خطرَ على قلبِها شيءٌ جعلها تمسكُ بحفنةٍ مِن الطين أسفلَها ثم عصَرَتْها وأشارت أمام أنفاسِه إلى الماءِ السائلِ مِن كفّيها كدليلٍ على وجودِ ماءٍ في الأعماقِ، ثم قامت تحفرُ مِن تحتِها وأمسكَتْ بيديه ليحفرَ فحفرَ ثلاثًا ثم عادَ ليمسكَ يدَها ليستفهمَ لماذا الحفرُ؟ فعادت كالقطةِ الغاضبةِ تعصرَ حفنةً مِن الطينِ وتشيرُ إلى الماءِ ليفهمَ أنها تبحثُ عن ماءٍ يخرجُ مِن الجوفِ وأنْ يكفَّ عن الحمقِ؛ لأنَّ هذه هي محاولةُ الإنقاذِ الوحيدةِ.

لا يدرك هؤلاء الذين على الشاطي يلعبون قيمة القَشةَ إلا إذا أدركهم الغرقُ، ذلك أن الذين يلهون يعتقدون أنه لا حاجة لهم بالتفاصيل الصغيرةِ في إسعاف الروحِ.

عادَ إلى الحفرِ لكنه لم يقتنعْ؛ فشعرَتْ أنه مُكْرَهٌ على الحفرِ خوفًا مِن غضبِها فتوقفَتْ وعادت تطمئنُه بابتسامةِ روحِها وهي تشيرُ إلى السماءِ التي ترسلُ آخرَ بقايا غروبِ النهارِ ليدرَكَ مِن إشارتِها أن الله في كل مكانٍ حتى في البئرِ، فاستغل هدوءَ ثورتِها عليه ووضعَ كفيها على الماءِ ثم على أنفِه ففهمتْ منه أنهما حتى لو وجدا الماءَ وأخرجاه مِن الجوفِ فسيغرقان في البئرِ السحيق مع زيادةِ ارتفاعِ الماءِ فوق الأنفِ، ضحَكَتْ ورفعَتْ ذراعيها بجانبِها وقلدَتْ الطيورَ في حركةِ الطيرانِ ليشعرَ أنه إذا ارتفعَ الماءُ سيطفو عليه، وكلما ارتفعَ الماءُ عليه أن يطفو أيضًا عليه؛ لينتهي الأمرُ بهما خارجَ البئرِ مع ارتفاعِ منسوبِ الماءِ التدريجي في النهايةِ.

بدا في أول الأمرِ أنه وجدَ قشةً وتعلقَ بها وأخذ يحفرُ لكنه قام فَزِعًا عندما خرجَ الماءُ ونجح البحثُ؛ إذ أنه تذكرَ العطشَ الذي نسيه، فأخذ يغرف بكفيه وشرب حتى ارتوى ثم شرد قليلًا:

- لولا أن الناس سيقولون لقد حرف في القرآن لقلْتُ أن الله جعل من النساءِ كلَّ شيءٍ حيٍّ.

وفي صاعقةٍ جديدةٍ أصابته بالهلع فجأةً تذكر أنه لا يجيدُ السباحة بل لا يعرفها من الأساس؛ وأنه إذا امتلأ البئر لا محالةَ سيغرق؛ فتوقفَ ليشرحَ مصيبَتَه فضحكَتْ وقالت وهي تشيرُ بيديها مع حركةِ شفتيها ليفهم:

- تموتُ غرقًا أم تموتُ عطشًا؟

فأشارَ في خوفٍ بأناملِها بعلامةِ اثنين، أي الاختيار الثاني وهو العطشُ، فازداد ضحكُها وهي تشيرُ إلى خروجِ الماءِ أنه لم يعد الاختيارُ سؤالًا، وإنما صار الامتحانُ إجبارًا وأنَّ عليه أن يكتبَ ما يُملى عليه.

ارتفعَ منسوبُ الماءِ وهو يرتعشُ حتى وصل منسوبُه إلى صدرِه فازدادَ الغريبُ رعبًا وبدأ يفقد السيطرة على آخر ما تبقى من تماسكٍ، ولما وصلَ إلى ذقنِه الماءُ حدث ما يشبه انطفاء الجحيم فجأةً وهدأَ هدوءَ الموتى وكأنه الاستسلامُ العظيمُ.

لكنَ الأمرَ لم يكنْ كذلك، ورفعَها مِن خصرِها بيديه إلى أعلى ثم رفعَها لأعلى أكثرَ حتى تضعَ قدمَيها على كتفيه فتلتقط بضعةَ أنفاسٍ في الدنيا أو ربما يظهرُ لها أملٌ جديدٌ في علمِ الغيبِ؛ فقفزَتْ بفرحٍ وبحثَتْ عن أنفاسِه لتوجِّه له حديثَ النورِ بعدَ أن شَفَتِ الروحُ وأشارت وهي تسبح مقابل أنفاسِه:

- سيرسلُ اللهُ لك ما تظنُّ أنَّ اللهَ سيرسلُه لينقذَك؛ فلا تظنَّ أنَّ اللهَ سيرسلُ لك قشَّةً فإنَّ القشَّةَ لا تنقذُ يائسًا وإنما عليك أن تظنَّ أن الله سيرسل لك جناحين.

التقطَتْ مِن الماءِ يديه وطلبَتْ منه أن يقومَ بدورِ ميِّتٍ تطفو جثَّتُه على الماءِ تارةً وأن يعودَ للتنفُّسِ كلما تعبَ ويتمسكَ بجدرانِ البئرِ تارةً أخرى، وارتفعَ منسوبُ الماءِ فارتفعا بارتفاعِه حتى فاض الماءُ خارجَ البئرِ وارتفعا معه وفاضَ فأمسى المكانُ بحيرةً.

نجا العاشقان مِن الموتِ خارجَين من البئر في فرحةٍ قد تبدو للعابرين فرحةَ العودةِ إلى الدنيا بعد فرارٍ من الموتِ، ولكنها هي فرحةُ المجيءِ إلى الحياةِ أوَّلَ مرةٍ، هو لم يستطعْ أن

يبعدَ عينيه عن نورِ عينيها العسليَّتين وهي لم تستطعْ أن تبعدَ أنفَها الذي أدمنَ جموحَ أنفاسِه على صدرِه العريضِ. اقتربت من عينيه:

- سأعقد بيننا صفقة تعطيني قُبْلَة وأسلِّمك شفتيَّ؟

..فأشار إليها بعين الدهشة:

- وهل القبلة غير الشفتين؟!

فاقتربت بينما عيونها تكاد تفترسه:

مَن يعطيك عُملةً من الخزانة ومَن يسلِّمك مفتاحَها لا يستويان!

لم تناولْه شفتيها لكنها كانت محاولة ناجحة منها لتدويخه وحقنِه بكمياتٍ هائلةٍ من خمر الهوى لتخدير وعيه كي لا يشعر بما هو فيه من الخطر، ابتلع لعابه مِن فرطِ العطشِ على خلفيةِ تجسيم ابتلالِ ملابسِها الملتصقةِ بجموحِ الفاكهةِ الطازجةِ من تحتها، بينما كانت تسير ثملة الروحِ تسيلُ الموسيقى على مختلفِ مناطقِ العودِ الفارِهةِ إثارتُه، فابتسم الغريبُ وهو يضربُ كفًّا على كفٍّ بعدَ أن أتلفَ الجمالُ خلايا الدماغِ وحدَّثَ نفسَه:

- لماذا الحمقى يرسلون إلى المناطقِ المنكوبةِ رجالًا ينتشلون الجثثَ ولا يرسلون في كلِّ فاجعةٍ امرأةً بهذين الحاجبين يرفعان الركامَ لتعيدَ بهما إلى الموتى الحياةَ؟!

ولما قام جمالُها بتشريدِه راح يهذي في صمتٍ كالسكارى:

- بعد الصلاة خرجت أبحث عن ملامحك الجميلة في الشوارع والوجوه، فقلت أبحث في السماء، فرأيتُ وجهَكِ وابتسمْتُ وفاض عطرُكِ بالندى، قد كنتُ أحسبُ قبلَ حبِّكِ أنَّ هذا القَطْرَ ماء.

يا ليت مَن يضعُ المناهجَ في العلومِ يصححُ الخطأَ الغبيَّ ويحكي عن تلك الحقيقةِ للتلميذ، عن أن عطرَكِ حينما تتنفسين يكوِّنُ السُّحُبَ الرقيقةَ، والنسيمُ يعيدُها كي تملأَ الأقداحَ فجرًا بالنبيذ.

ثم نظرَ نظرةً حولَ هذا المكانِ الغريبِ في هذه الصحاري فحاولت أن تشير له في هدوءٍ:

- إن كنتَ تظنُّ أنَّ اللهَ لن ينزِّلَ الحياةَ على القومِ الذين ردمَ الموتُ آبارَهم في الصَّحاري فسوف تموتُ مِن العطشِ وأنتَ تسبحُ في النهرِ.

أمسكَ قبضةَ يدها ووضعَها في رملِ الصحاري وكأنه يريدُ أن يقولَ إن الحياةَ هنا مستحيلةٌ فأشارت له:

- الله لا ينسى أحدًا مِن خلقِه، ولا تحسبنَّ شِباكَ المؤمنِ إن عادَ بلا أسماكٍ فارغةً؛ فإنه يقولُ الحمدُ لله الذي سيشبعُني اليومَ وسيُشبع معي أولادي بدونِ أن أحملَ على ظهري السَّمكَ.

لا علاقة للسعي بانفجار عيون الأرض في عطش الصحاري غير أن الرحمن يريد سببًا من عباده.

لاحظَتْ صمتَه المتكررَ فظنت أنه ما يزالُ بعيدًا عن الإيمانِ بما تحاول إقناعه به، فأشارت إليه:

- اللهُ إن شاءَ يجعلُ النهرَ يشعرُ بالظمأِ ويمطرُ الذين في الصَّحاري بالإيمانِ.

ثم أشارت تعزيه على عجزِه عن البوحِ:

- لا شيء يسمى عَجْزَ الجسد، لا يوجدُ في الأجسامِ قصور، النملةُ رغمَ ضمورِ الحجم، تشتدُّ وتجري وتبني الدُّور، يا عارًا يخجلُ منه العار، العجزُ مجردُ وَهْمِ شعور.

- أراد الرحمن لك ألا تسمع أو تحكي أكثر مما يريد؛ لحكمةٍ لن تعلمها إلا حين يشاء، أما أنا فما أراد لي إلا أن أرى نورًا وحسب، وأنا على يقين أنني إذا رأيت؛ فلن أرى إلا الظلام وسأعيش مرتعبةً في هذا الليل مثلك!

ربما فهمَ من السياقِ ما تريدُ قولَه، واصطحبَتْه إلى كوخها بعدما قامَا بصناعةِ سَدٍّ يحولُ دونَ جريانِ الماءِ إلى الداخلِ، وقبلَ دخولِها بثلاثِ دقاتِ قلب وقَفَتْ وأشارت له بالوقوفِ فدخلَتْ، وأحضرت له ملابسَ ليبدِّلَ ملابسَه المُبْتَلَّةَ، فانطلقَ في نفسِه طوفانُ علاماتِ استفهامٍ حولَ صاحبِ هذه الملابسِ، لكنه بدأ بتبديل الملابسِ على أي حال، فأشارت إليه أن يستر نفسَه خلفَ الكوخ؛ فازداد طوفانُ علاماتِ الاستفهامِ بسيلٍ من علاماتِ التعجبِ، لماذا أن كانت كفيفة تأمرُه بالاختفاءِ عنها في هذه الصحراءِ الغريبةِ، وما الذي أرغمَ امرأةً كفيفة على العيشِ في هذا المكانِ الموحشِ مع دخولِ الليلِ وبدء حلولِ تجوُّلِ الجنِّ في عتمة السكون المرعبِ؟!

ورغمَ كلِّ هذا الرعبِ وهذه الأفكار، لا ريبَ أنه ثمَّةَ سعادة خفية، إنه ذلك العشقُ، ذلك الوهجُ الربانيُّ الذي لا يُسألُ كيف تربعَ الأمانُ في قلوبِ الخائفين إلى الحدِّ الذي يجعلك لا تشعرُ بتهديداتِ الظلامِ ولا هجوم الوحوش.

التقى الذي يسمع ولا يتكلم بالتي لا ترى في صحراءَ مخيفةٍ، لم يسمعْها ولم ترَه وهجمَ الليلُ يطوِّقُ الحياةَ، وفي قلوب العاشقين لا ينطفئُ النورُ.

أدخلته إلى الكوخ تحت نورِ القمرِ ولألآت النجوم فوجدَ ثلاثَ غرفٍ، أشارت إلى التي على اليمينِ ليدخلَ فيها للنومِ وأغلقَتْ عليه البابَ لكنها كانت قد فتحت عليه بواباتُ الذهولِ مما حدثَ فجأةً له في الدقائقِ الغريبةِ الماضية.

استلمَتْ الوسادةُ رأسَ الغريبِ وكأنَها كانت تنتظرُه وارتاحَ على ظهرِه الفراشُ بعد أن شد الغطاء على جسده الفارع الطويل والملابسُ بمقاساتِه وكأنه منحوتٌ لها، وكأنّ الحبَّ قد

فصَّلَها له، وذلك السقفُ صار ينظرُ إلى الغريبِ كأنه رآه من قبل، لكنه حاول عبثًا أن يكبحَ جموحَ انهيارِه تحت وَهْمِ أنه يملكُ شيئًا ليفعلَه وهو يفكرُ:

- قد كنتُ أُفكرُ في مجردِ اهتمامٍ واتهَمَتْ ظَنِّي اتّهامًا، وتقولُ أنَّ شهيقَ روحي سبَّبَ الفوضى الكبيرةَ والتَهَمَ التينَ التهامًا.

هل الحبُّ عمليةٌ جراحيةٌ كبرى نخضع قبلها للتخديرِ الإلهي فنفيق لنرى العالم غير العالم، فتحضننا الأشياءُ ونسمع من الجماداتِ صوت القُبلِ، وتلك السماء وهذه الأرض وما بينهما تعزفان لنا بما فيهما الوحوش والجن، هل تمت في هذه العملية زرع قلبٍ سماوي بعيون النبيين وجميع قطع غيار الروح من توكيلات سماوية؟!

وبينما كان يتدربُ على التماسُكِ للاحتفاظِ ببقايا أعصابِه، وفي زحامِ فوضَى احتلالِ الأسئلةِ للدماغِ سقطَ رأسُ الغريبِ المتعبِ مِن وجعِ الأيَّامِ القديمةِ وغرقَ في سُباتٍ عميق.

بينما وضعَتْ هي رأسها على كفِّها، وفي عقلها دار صراعٌ حولَ رغبةِ الجسدِ الملتهبِ في الذهابِ إليه وسط اندلاعِ حِمَمِ اللهفةِ على نوبةٍ مِن العناقِ العنيفِ، فحاولَت أن تفتِّشَ عن مطرٍ يطفئُ اتساعَ جحيمِ الحنينِ في أنفاقِ الروحِ قبلَ أن تنفجرَ وسط ضعفِ قشرةَ القميصِ في احتمالِ اندفاعات اللجوءِ فيه، فما شعرَتْ في وسط استغاثتِها بمطافي الجحيم إلا باستيقاظِها على صوتِ عصافيرِ الصبحِ، فهرولت خارج الكوخ تطلبُ الغوثَ من الندى لعله يساهم في خفض حرارة جهنم لهفتها.

أفاقَ في الصبحِ على صوت دقَّاتِ رائحة عطر جسدها يطرق بابِ غرفتِه، فأسرعَ لتتفتَّحَ عيناه على وجهِ القمرِ، وناولَتْه طبقًا من التمرِ وآخرَ مِن التينِ في ابتسامةٍ لا تخلو من وقارٍ، وكأنَّ هذا الجدَّ كانَ الهدوءَ الذي يسبقُ القهقهةَ، فإذا به تُجلسُه وسطَ الكوخ بينما كان يتناولُ الإفطارَ وتحدِّثَه بالإشارةِ قدرَ المستطاعِ وهي تشيرُ إلى شعرِه وتتساءلُ: لماذا لم يصففه؟ فوضعَ إصبعَه على جانبِ رأسِها فيما يعني كيف عرفتِ ذلكَ؟ لكنها أشارت بيديها على خدِّها بعلامةِ نومٍ ثم علامةِ فتحِ البابِ ثم إلى الطعامِ، مما يعني أنه استيقظَ على

رائحة عطرها وفتحَ البابَ وجلسَ يأكلُ وبطبيعةِ الحالِ أنه لم يغسلْ وجهَه ولم يصفف شعرَه ولا حتى بأناملِه، فكاد الغريبُ أن يرقدَ مِن الضحكِ وشاركته فقط بابتسامةٍ عريضةٍ.

حشودٌ مِن الأسئلةِ التي هاجمَتْ رأسه ليلَ أمسِ ما تزال تتدافع في الرأسَ باحثةً عن الحقيقةِ إنما كيف يسألُ الكفيفةَ أبكمُ؟!

كان الأمرُ ليس بالغموضِ الذي يرهقُ ذكاءَ امرأةٍ بحجمِ أناقةِ فِكرِها، فأشارت إليه أنها ستعلِّمُه لغةَ الإشارةِ بطريقةٍ أكثر احترافًا وأكثر سرعةً من طريقتِه البدائية في التواصلِ، لكي تتحدَّثَ له بها حين ينظرُ إليها، فاصطحبتْه إلى أدواتِ المطبخِ وحفَّظَتْه أسماءَ إشاراتِه والماءَ والأقداحَ وكثيرًا مِن أصنافِ الطعامِ والحمَّامَ والملابسَ وكثيرًا غيرَهم مِن البيئةِ المحيطةِ التي كان يجهلُ معظمها إلى الحدِّ أنه كان يكتفي بإشارة للأشياء أو يمكث فترةً طويلةً لمن يحدِّثه ليصفَ له ما يريد.

-2-

وتتعجَّبُ ريسال من هذا اللقاءِ الغريبِ ومما يحدثُ وتتذكَّرُ حديثَ أبيها في روايتِه العملاقة (أسرار التنهيدةِ الأولى) حين قال: «لا تسألوني كيف التقينا؛ آنَ الآوانُ للجاهلين أن يتوقَّفوا عن الدَّهشةِ؛ ففي كيمياءِ الحُبِّ وفي هذا العالَمِ الغريبةِ معجزاتُه التي تتقاطعُ فيه خطوطُ مشاعرِ دقَّاتِ قلوب البشرِ ليلتقي قلبٌ بِقلبٍ على مسافةٍ بين المشارقِ والمغاربِ في واحدةٍ مِن أعظمِ معجزاتِ السماءِ على الإطلاقِ، مِن سطوةِ فرحةِ شهقةِ التنهيدةِ الأولى لم يسأل أحدُهما الآخرَ كيف التقَينا هكذا».

مرَّ النهارُ بين ضحكٍ وحديث وتَمْرٍ وتينٍ، ونُقِشَ كلُّ ذلك الذي تعلَّمه في عقله، ولمَّا جاءَ الليلُ أرادَ أن يخبرَها أنه قد أحبَّها، فأمسكَ بكفِّها ووضعه على صدرِه متسائلًا عن إشارةِ كلمةِ: «أنا أحبُّكِ جدًّا جدًّا»، فعلَّمتْه إياها، فما أن أشار لها وهو يمسكُ يدَها لتدركَ أنه يقولُ لها: أحبكِ جدًّا جدًّا حتى سقطَتْ مِن الضحكِ، فأشار لها بالسؤالِ عن سرِّ ضحكتِها فقالت له بالإشارةِ سأخبرُكَ ذات يومٍ، لكنه فهم أنَّ تصريحَه لها بالحبِّ أمرًا أسعدَها لا أكثر مِن ذلك.

نام كلٌّ في غرفتِه بعدَ مرور يومٍ وكأنه هو أولُ يومٍ لهما في الدنيا، وأحلامٍ وكأسٍ مِن عشقٍ لا ينتهي وما تزال تنهمر فوقَ رأسه علاماتُ الاستفهامِ:

في كلِّ الحكاياتِ العاديةِ يحتاجُ صاحبُ السؤالِ إلى إجابةٍ، إلَّا حكايتي معكِ أحملُ فوقَ صدري إجاباتٍ أحتاجُ إلى أسئلةٍ منكِ لها، فأزيحَ عن عينيَّ بالبوحِ ولو بعضَ الحزنِ القديمِ، لماذا لا تسألين؟ لماذا لا تسألين مِن أين أتيتَ؟ وكيف؟ ولماذا؟ ولماذا لا تسألين هل أحبُّكِ أمْ لا؟ لماذا لا تسألين؟ ومَن أنتِ وما الذي أتي بكِ إلى هنا؟!

بينما نامت تفكر:

- لقد وضع على رقبتي شفتيه ولم يتركني حتى تمَّت تصفية مفاصلي وسقطْتُ تحت قدميه نائمةً على ظهري ليفعل ما يشاء، وكيف يمكن لأنثى مثلي أن تتجاهل رجولة بهذا الحجم البربريّ؟!

فنامت تحلم وقد أتاها على حصان عنيدٍ على هيئة شبحٍ من بعيدٍ وهي تعاتبه على أنه لم يتقدَّم لكنها سمعت صوتًا قويًّا في الحلم ينادي وهو يمضي بعيدًا:

- لدواعٍ أمنيةٍ من إرهاب حبَّتي عينيك لم أستطع، عندما نلتقي وأحاول ألَّا تجرفني عيناك أبدو كمغامر يجازف بالمشي على حبلٍ مشدودٍ بين قمة جبلين يخشى السقوط على صخور مدبَّبة.

ولمَّا أصبح الصباحُ على الدنيا مِن نافذتِه بنورِ وجهِها سمعَت صوتَ بابِ غرفتِه وهو يُفتَحُ فهرولَتْ تخرجُ مِن غرفتِها باتِّجاهِ أنفاسِه، إلَّا أنه كان قد خطا بضعَ خطواتٍ بعيدًا عن البابِ، ربَّما كان يمتحنُ فراستَها في أن تحدِّدَ مكانَه، فرآها تلتفتُ إليه وكأنَّ الظلامَ لا يمنعُ المؤمنين بالسمواتِ عن النور، فابتسمَتْ ووقعَ الجمالُ فوقَ رأسِ الغريبِ وقوعَ نَيزَكٍ على رأس نملةٍ كانت نائمة فحدَّثَ نفسَه:

- قد كنتُ أظنُّ كغيري من السُّذَّجِ أنَّ الشمسَ مسئولةٌ عن شروقِ العالمِ إلى أن طلعَت اليومَ صباحًا الشمسُ بينما لا يزالُ الظلامُ قائمًا؛ استيقظي في موعدِكِ يا فتاة مبكرًا؛ إنَّ الدنيا لا تحتملُ مزيدًا من الليلِ بدونِ تفتيحِ عينيك.

حاولَ أن يستجمعَ ما تبقَّى مِن أشلاءِ الوعيِ لكنَ الأمرَ باءَ بالفشلِ الذريعِ، النظرةُ الأولى في عينيها العسليتين تساوي سكْبَ نهرِ خمرٍ مِن الجنةِ في عقل رجلٍ ساذجٍ مِن سكَّانِ الأرضِ البؤساء.

وكانت تخبِّئُ خلفَ ظهرِها لوحةً كانت قد رسمتْها ليلًا ثم أشارت له:

- أغْمِضْ عينيكَ.

ضحكَ الغريبُ طويلًا فرسم الإشارات ممسكًا بيدها:

- إذا نفَّذتُ أمرك وأغمضْت عينيَّ؛ بهذا أكون لا أسمعُ لا أرى لا أتكلَّم، واللهِ إني لأخشى على الموتِ إذا يأتني الآن ألَّا يجدَ شيئًا يأخذه.

أمسكَ يدَيها وأشار بهما إلى مشكلةٍ يعاني منها وهي كيف سيحدِّثها، ثمَّ قدَّمَ لها حلًّا وهو أنه كلما أراد الحديثَ إليها أمسكَ يديها وأشارَ بهما، فضحكت كعادتِها وأشارت:

- المحذوراتُ المباحةُ تصبحُ إذا حضرَ الحلالُ حرامًا.

فقرَّرَت تأجيلَ المفاجأةَ ثمَّ اصطحبَتْه إلى مكتبتِها وفتحَتْ كتابًا وأخذت تعلمُه كيف يقرأ المكفوفون الجملَ البارزةَ حروفُها وكيف يكتبون، أمَّا القلمُ فقد اخترعتْه ليسكبَ حبرًا ثقيلًا على الورقِ يستطيع القارئ المكفوفِ أن يقرأ باللمسِ عن طريقِ أناملِه كبديلٍ عن القلمِ الذي يسكب حبرًا خفيفًا للمبصرين، وقد بدأ معها الأمر بصمغ الشجر من الشجر حولها بعد غليانه مع ماءٍ، ثم إضافةِ هِباب عليه أو بعض مسحوق الفحم الذي تطهي به الطعامَ، ثم تطور الأمر بوضع مسحوق نبات عرق السوس عليه ليجف بسهولة بعد سكبِه من سِن قلمٍ صنعتْه من غابِ الصحراءِ بعد زيادة نسبة الصمغ فيه ليبدو الخط بارزًا، تستطيع الأنامل الإحساس به على ملمس الورق وترجمته إلى حروف وكلمات وجمل.

وفهم من الأمرِ أنه كلما أراد الحديثَ إليها بأمرٍ غريبٍ عليه لا يمكن وصفه بالإشارات أن يكتبَ، وإن لم يكنْ الأمرُ غريبًا، فإنها ستفهمُ ما يحاولُ أن ينطقَ به حين ينطقُ بالهاءِ وألفِ المدِّ الذي لا يملكُ لسانُه غيرَهما (هاا)، فقام بحشو جيبِه بالورقِ وقلمين؛ أحدهما احتياطيًّا استعدادًا للتواصلِ، وبدأتْ تكتبُ وهو يتهجَّى كتاباتِها فتفاجأ بها حينما أعاد قراءة الجملة أنها قد كتبت:

- الحبُّ إن أغلقتُ بابًا يعني أني قد فتحت، قُدّ القميصَ مِن الأمامِ وإلَّا سأُسمِعُكَ السُّباب، لو لم أحبُّك لن ترى عبر الطريقِ سوى الجدار، هذا الجدارُ من الصخورِ وليس للتفَّاحِ باب،

واعلم بأني لم أحبُّ لكثرةِ النساء فيك، عسلُ الخلايا يستضيف لديه جيشًا من ذباب.

فابتسم الغريبُ وظلَّت الابتسامة تتلاعب على شفتيه حتى انقضى اليومُ الثاني في حصصِ تعليمِ القراءةِ والكتابةِ، لقد كان ولا يزالُ طائرًا مغيَّبًا عن الوعيِ عن الدنيا الماضي، ورغمَ أنَّ تعلم لغةِ الصمِّ والبُكمِ ولغةِ المكفوفين تحتاجُ زمنًا إلَّا أنَّ الأمرَ كان يشبه الوحيَ السماويَّ، مع الحبِّ تبدو هذه الدنيا في حجمِها كرجلِ فضاءٍ ينظرُ إلى الأرضِ مِن فوقِ سطحِ القمرِ، ويرى كم هي جِدًّا صغيرةٌ، أو كسائقٍ مخمورٍ يقودُ مركبةً بسرعةٍ هائلةٍ فوق طريقٍ أعلى جبلٍ محفوفٍ بالخطرِ ويصلُ إلى خطِّ النهايةِ بأمانٍ، في الوقتِ الذي يقودُ فيه الآخرون بسرعة ربع كيلو متر في الساعة وبعضهم يسقط مقتولًا من أعلى الجبلِ، ألم تعلمْ بأمرِ التي قطعتْ شريانَها بالسكِّين لتكتبَ على الجدرانِ «أموت ولا يخدشُك النسيم»، مَن لم يستطعْ أن يفعلَ في زمنِ الحبِّ شيئًا فلن يفعلَ في أي زمنٍ أيَّ شيءٍ آخرَ، ولا سيما إذا ترهَّلت المشاعر ودبَّ السوس في عظم السنين ينخر.

بعد أن علَّمته لغة الإشارة ليفهمها، والكتابة بالقلم الجديد ذي الخط البارزِ لتقرأ حين يكتبُ وتفهمه، صار التواصلُ أكثر سهولة، فدائمًا معهما أوراقٌ للكتابةِ عليها ليتواصلَ مع الكفيفة وهي بالطبعِ تتقنُ لغةَ الإشارةَ لتتواصلَ مع ذلك الذي لا يسمع ولا يتكلَّم.

ذلك الذي يتسلَّق مواسير تنذر بالموت ليخطف نظرة من زجاج نافذة حبيبته النائمة في أعلى طوابق البرج، لا تسألوه إذا مرت فتاة أخرى عليه بعدما ينزل لماذا لا تخطف منها عدة نظرات وترحم نفسك من مخاطر قد تسقط فيها على الأرض قتيلًا؟! إنه الحب أيها السادة، أن تغلق عليك تابوتًا من الذهب؛ لتنام فيه على فرش من حرير طوال عمرك، أم تجري حافيًا تأكل كسر الخبز القديم وتشرب من ترعة الحقولِ مع من تحب تحت موسيقى المطر والتصاق الأقمصة بالعود الذي يعزف سيمفونية الغرام الملتهبة حين تختبئان في الأحراش لخطف قبلةٍ وربَّما أكثر؟!

وأمامَ الفناءِ الفاصلِ بين البحيرةِ والكوخِ وتحتَ ضوءِ البدرِ في ليلةِ التمامِ ضحكَت وأشارت أنها أحضرت له المفاجأةَ الكبيرةَ، وبالفعلِ أغمضَ عينيه كما طلبَت منه مِن قبل،

وفتحَت لوحةً ثمَّ ضربَتْ على كتفِه كعلامةٍ ليفتح عينيه، فنظر إلى اللوحةِ ووجدَ رسمًا لملامحِ شخصٍ، وأشارت له:

- ما رأيكَ في المفاجأة، هل ما تزال تقولُ بأني لست من المبصرين؟

لقد كانت تلك لحظاتٌ فارقةٌ في تاريخِ تحديدِ موقعِ مصيرِ أيامِه على جغرافيا امتدادِ روحِها، كتحديقِ كافرٍ في جهنمَ على بيتٍ في الجنةِ مِن بعيدٍ به حوراء وأقداحُ خمرٍ لذيذٍ، كلُّ شيءٍ في صورةِ الوجْهِ المرسومِ كان مطابقًا لحجمِ أجزاءِ وجِهه، شعرُه الطويلُ الناعمُ المعقودِ بذيل حصانٍ بينما تتدلَّى منه خصلةٌ تداعبُ خدَّه الأيمن، بذقنٍ وشاربٍ خفيفَين جدًّا وملامحَ تبدو عليها الصلابةُ الممسوحةُ بالحنانِ في سابقةِ إبداعٍ لتجسيدِ روحٍ.

أصابها إحساسٌ بالإخفاقِ في التخيُّلِ والرسمِ بعد حالةِ الصمتِ التي اجتاحت ذلك الغريبَ، ممَّا دعاه حزنُ ملامحِها إلى التفاعلِ فأعطته ورقةً ليكتبَ لها، وبات لديه شعورٌ أنَّ هذه الورقةَ بطاقةُ هويةٍ تشبه وثيقةَ زواجٍ فكتبَ:

- إبداع في رسمِ الجسدِ والروحِ وهو أنا.

فكتبت له:

- أردْتَ أن تقول: «هو أنا» أم تقول: «كأنه أنا»؟

ما زال صمتُه سيدَ الحديثِ ولاسيما وأنها بالفعلِ تكتبُ وكأنها تدونُ أمرًا للتاريخِ، وبينما تشيرُ له في قلقٍ أن يسرعَ في الردِّ فكر محدثًا نفسَه:

- من الخطيئةِ ألَّا تترك نفسك لتخطئ، إذا كان الخطأُ الذي تتردَّد في ارتكابِه هو الحبُّ.

فلمَّا طال تفكيرُه الصامتُ أشارت بإلحاحٍ لا يخلو من تهديدٍ ووعيدٍ بعد أن أقسمت عليه:

- ولو كنت فجًّا قبيح الوجه سأحبك، لكن.. عاهِدني أن تقولَ الحقيقةَ إن كنتُ قد نجحتُ في رسمِك أم لا؟

فكتبَ بلا تردُّدٍ:

- هو أنا، نجحتِ بامتيازٍ يا فَرَستي، لكن كيف وصلَتْ لأعماقِك ملامحي؟

فكتبَت له:

- ما رسمتُكَ إذ رسمتُكَ لكنَ اللهَ أراني إيَّاكَ قبل أن أراكَ ببضعِ سنين.

فكتبَ بترددٍ شديدٍ:

- لا أدري كيف جمعت الملامحَ بهذه الدقةِ.

فكتبت وهي تضحك:

- أخشى أن يكون الصيادُ قاطعَ طريقٍ قد استولى على صيدِ غيرِه، الحبُّ ذلك المأذونُ الذي سيناولُك جسدي طازجًا، وفيما عدا ذلك كل ما يجري هو اغتصابٌ!

فأشار بيديها:

- مهما كانت صفتي (الصياد أو قاطع طريق) فأنا المُصابُ وأنتِ المُصيبةُ.

ضحكَت على تعليقِه وضحكَ عندما رآها تضحكُ وقبل أن تطوي اللوحةَ وضعَت على الرسمِ أناملَها وقالت وكأنها تتحدثُ إلى مَن فيها:

- أعمارُ الناسِ تمرُّ كَبِضعِ لصوصٍ في صحراءٍ جاعوا وناموا وقتَ مرورِ القافلة، ونسيمُ الدنيا بدونك يخنقُ فيَّ وشمسُ نهار العالمِ مهما تطلع عند غيابِك آفلة، تبًّا للناسِ وتبًّا جدًّا للمفروضِ وجودُكَ فرضٌ في أعماقي وهذا العالَمُ نافلة.

ثم طوَت اللوحةَ مع ورقةِ المحادثةِ التي كانت بينهما وألقَت بهما كمن لم يهتم بنتيجةِ الامتحانِ القاسي وكأنها لا تريدُ أن تمغصَ بطنَه بالنتيجةِ، وأشارت له وهي تكملُ مسلسلَ الضحكِ وتحاولُ أن تصلَ إلى صدرِه لتضربَه وهو يهربُ منها:

- من يقطع الطريقَ يا أيها الغريبُ يقطع طريقَ السمواتِ إليه، ولولا أنه استولى على ما يشقيه لأعطاه اللهُ ما كان مقدرًا له أن يسعدَه ولكنَ الناسَ يستعجلون.

توقَّعَ الغريبُ أن لمداعبتِها له بالإشارةِ الأخيرةِ حين كان يريدُ أن يمسكَ يديها دائمًا كلغةٍ للتواصلِ علاقةٌ بعلاقاتِه النسائيةِ السابقةِ ربما، ثمَّ اصطحبَته لتنهي هذا المشهدَ الصعبَ إلى غرفتِها ويتناولَا الفطورَ مِن التين والتمرِ وبينما هو يأكلُ كانت تشيرُ:

- ليس عليك أن تتعجَّبَ لأني أؤمنُ أنَّ الإنسانَ لا يولد حين يولد وإنما يولد حين يصيبه العشقُ، ولعلَّك تدركُ أنه أصبح مِن الحمقِ أن أسألَك عمَّا حدثَ قبلَ الولادةِ قبل أن تأتي إلى عينيك الدنيا.

فأمسك بيديها مشيرًا:

- أنا في حلمٍ كبيرٍ !

فأشارت ضاحكةً بدلالٍ:

- لا بأسَ من بعضِ اليقظةِ في نهايةِ الحلمِ فلعلك ترى أن هنالك فاجعةٌ، وأن ذلك الذي كان في أولِ الدربِ لم يكن إلا كابوسًا.

بالنسبةِ لها كل هذا كان مزحًا بريئًا لكن ذلك وبكلِّ عفويةٍ كان يشبه دق مسمارٍ في صدرِ طفلٍ رضيعٍ.

وكأنها أشفقَت على طفلِها المرتعشِ فراحت تشير:

- إني لا أكره قدرَ كراهيتي لرجالٍ لهجتها الرقة، لا تَحنِ حروفَك واشدُدْ ظهرَكَ واحذر إلا تسيء النية، فلديك امراةٌ ليست تشبه كلَّ نساءِ الأرضِ، فنِصْفي ملاكٌ والنصفُ الآخرُ جِنيَّة.

فأخرج ورقةً من جيبه وكتب وكأنه يعاتبُها:

- مِن المسَلِّي أن تشاهدي رجلًا ينزفُ مدَّةً لا بأسَ بها حتى تخرجَ روحُه وأنتِ تشاهدين، لكن الأكثر متعةً هو شروعك في قتلِه.

وأشارت له وهي تهم بالانصرافِ:

- أنا لستُ حبلًا كي أقيِّدَ في الغرامِ شهيقَ صدر، والحقُّ ربُّك من يقلِّبُ في القلوبِ كما يشاء، لكنني أدعو الإله تضرُّعًا لتكون لي، أو ينضجَ التفَّاحَ سُكرًا بالحلالِ على العشاء.

- واتجَهَت إلى الفراش وهو يكاد ينهار، وزحف مُرغمًا قدميه الراغبتين في الالتصاق بالأرض على المشي، كخروجِ آدم من الجنةِ، وألقى برأسِه على كفيه على فراشه في غرفتِه وهو يفكرُ:

- قد كنتُ أحسبُ أن عينيك سوف تجعلني أغيب، أو سوف أشعرُ بالدُّوارِ كفعلٍ مِن تحصيلِ حاصل، لكنني قبل ارتفاعِ الرِّمشِ كي تُبدَ العيون، ترتجُّ جمجمةُ الدماغِ وتنتهي كلُّ المفاصل، ورجاءَ روحي إذا عزمتِ بأيِّ وقتٍ تنظرين، إلا أُفاجَأَ بالقرارِ قُبيلَ سُكْري لكي أواصل، وبأن تحدِّقي مِن قَبِيلِ الإنسانيِّةِ مِن بعيدٍ، وإذا اقتربتِ ولو قليلًا لا يكونُ بِغيرِ فاصل.

وطال به الفكر الذي سرق من عينيه النوم إلى أجل غير مسمى وعاد يتساءلُ:

- ليس في الإنسانيةِ قانونٌ يرغمُها على البقاءِ معك، وإنما هي ليس لديها مأوى غيرك، لا لا، لم يكن السؤالُ حين وقع الاختيار عليك اختر من متعدِّدٍ، وإنَّما كان أكمل برجلٍ ينقذكِ من العنوسة، لالالا..

وسطَ هذه الفِكَرِ المتلاطمةِ في محيطِ رأسِه هَمَّ أن يخبرَها بِسِرٍّ أو ربَّما كان يريدُ بذلك أن يكون طبيعيًّا كتسليمِ مجرمٍ لنفسِه، لكنه عاد يخطِّطُ للأمرِ واضعًا رأسَه على كفَّيه مرةً أخرى:

- الحبُّ مثل الحربِّ، بل وأشدُّ ضراوةً، الطعنُ في كبد الهوى أم بعضُ جرحٍ في الحروب

وأشدُّ مِن كُرَبِ القتالِ إذا طُعنَّ خيبةً، واسأل العشاقَ قبلَك كيف تشتدُّ الكروب.

وعلى الجانبِ الآخر نامت هي على أحلامِ اليقظةِ في غرفتِها وسطَ سحابة أنفاسِه وضبابِ غرامِه وهي تسرحُ إليه حالمةً:

- اذهب إلى البيتِ الأخيروغلِّق المعنى علينا، ثم املأ الأقداح خمرًا في الخفَى بين السطور،

واسقني كأسًا وفُكَّ حِبالَ أكتافِ الحديث، لكن حذار أن تفوحَ إذا تأَوَّهنا العطور.

واحتضَنَت الوسادة بحنان دافئ قبل ذهابِها إلى النومِ وقالت:

- ليس شرطًا أن نخلعَ ملابسَنا كاملةً ثم تُمدُّ إلينا الأيادي لتلمسَها، فهذا الرجلُ كلتا يديه لم تتركْ منطقةً من أشيائي إلا وهتكَتْ عِرْضَها وأنا بكامل ملابسي وما تزال يديه قابعة ربَّما في جيوبِ معطفِه.

أيقظَه الحبُّ في الثلثِ الأخيرِ مِن ليلةِ اليومِ الثالثِ، ربما انتبَه إلى أن الليلَ عندَها يشبه النهارَ، فماذا سيحدثُ لو دقَّ بابَها وتواصلَ إليها ولو قليلًا.

وكانت في هذه اللحظاتِ تتحسسُ وجهَ اللوحةَ التي كانت قد رسمَتْها بريشةِ جنونِ الخيالِ، وكأن الله منحها نعمةَ اللمسِ لتشاهدَ بها وهي تقولُ للرسمِ:

- قد كنتُ ماءً يومَ خَلْقي وأنت كنتَ مِن الثَّرى، ثم اختلطنا وصرنا طينًا من عجينٍ، يا حبيبي إذا تغِبْ أعش عمري مبعثرًا.

لكن هذا العالمَ عند هذا النوعِ من العشاقِ يبدو كحكايةٍ واحدةٍ لا تنتهي كي يبدأوا حكايةً جديدةً، وإنما تنتهي ليبدأوا في إعلانِ مراسمِ جنائزِهم.

ملكَ الغريبُ أعصابَه واستجمعَ بعضَ شجاعتِه وتقدَّمَ في ضوءِ القمرِ الذي يتسلل مِن سقفِ الكوخ إلى بابِها ثم رفعَ يدَه، بين خجلٍ وخوفٍ وقفَ يتساءلُ أيطرقُ البابَ أم لا؟ لكن جُبنَه كان أقوى من أن يستمر بالوقوفِ فاستدارَ يقدِّمُ قدمًا ويؤخرُ أخرى لكنه تفاجأ بظلٍّ خلفَه فاستدار مرتعبًا فإذا به يراها؛ فباغتته وهي تشيرُ له بخفةِ روحٍ:

- لا تسألْني ما الذي أيقظني وتبدو لي أحمقًا كالعادةِ ولا تسألني لماذ لا تسألين عن سِرِّ استيقاظي، فنحن قد حسمنا الأمرَ، وقُلنا مِن قبل أن الذي له إجابات لا يستحقُّ أن نضعَ مِن أجله علامةَ استفهامٍ.

احتضنَ كفيها فاستسلمَتا لحضنِ كفَّيه وهَمَّ بها لولا أن غَضِبَ القمرُ، فتراجعَ الغريبُ ثم دخلَت غرفةَ مكتبتِها وجلبت ورقةً، وأشارت له أن اكتب ما تشاء أيها الغريبُ، وفي الصباحِ سأعطيك إجاباتِها، ثم أغلقَت بابَها في عنفٍ ووقفَتْ خلفَه تبتسمُ ابتسامةَ الملائكةِ وطارت بجناحي حمامةٍ إلى فراشِها وذهبت إلى الأحلامِ.

وتساءل في نفسه لماذا تغلق الباب بعنف؟ هل أنا أغضبتُها؟ لقد كنا مبتسمين وانصرفت من أمامي هادئة؟

يجب أن تلقي بعلامات الاستفهام تباعًا في وجه من يحبك لتبقى دائمًا على وجهه علامة التعجب، وحذارِ أن تفعل شيئًا لا يمتُّ للجنون بصلةٍ فتترهل المشاعر.

كانت كلما تناديه بالغريبِ يصيبه بعض الحزن، لكنه بات حتى مطلعِ الشمسِ يكتبُ أسئلةً وأشياءَ عن ماضيه ليزيحَ عن رأسِها ضبابَ الرؤيةِ ولا تناديه بعد قرائتها بالغريب.

وبات الغريبُ شاردًا فيها، يذكرُ ملامحَ تقاسيمِ وجهِها المتوهِّجِ وهو يحدِّثُ في صمتٍ نفسَه:

- ذلك الوهجُ الذي في حبتي عينيك أنقذ عينيَّ من الظلامِ، تلك الروحُ إن صمتت يسرِ في قلبِكَ منها أذانُ الديوكِ وتشم فيها رائحةَ الخبزِ الساخنِ في الفرنِ القديمِ في صباحِ لهو البطِّ على وجه التُّرعِ حين تستعدُّ الدُّنيا لضحكةِ صباحِ الشمسِ.

أعلنَتْ دقاتُ قلبه شروقَ قمرِ اليومِ الثالثِ بلا شعاعٍ حين خرجَت الفتاة مِن غرفتِها كلَيلةِ القدرِ إلى فناءٍ خارج الدارِ، وأشارت إلى أشجارِ التينِ والنخيلِ ليحضرَ لهما الفطورَ، وكأنه أصبح لها رجلًا تعتمدُ عليه، وبينما هما يأكلان أعطاها ورقةَ أسئلتِه مطويةً فأبقَتها هي وأشارت في ثقةٍ:

- أنت بائعُ عطورٍ و..

فقاطعها وأمسكَ بيدِها وسألها بالإشارةِ: كيفَ علمتِ رغمَ أنك لم تفتحي الورقةَ وما تزال مطويَّةً؟ فأشارت إلى أنَّها شمَّت في ملابسِه حين كانت تغسلُها جيشًا مِن العطورِ، وأن الأمرَ لم يكن اكتشافًا عبقريًّا منها وأن الرؤيةَ محلُّها القلبُ.

فتعجَّبَ لفراستِها القوية وتركَها تكملُ الإشارةَ وما تزال ورقةَ أسئلتِه مطويَّة:

- حدثَتْ لك فاجعةٌ أصابتْكَ بالصمم والخرس المؤقَّتِ لا أعلمُها لكن الذي أنا على يقينٍ منه أن الفاجعةَ ليست في امرأةٍ، ولا تسألْني متى ستنطقُ فإني لا أعلمُ الغيبَ، ولا تسألني كيف علمتُ أن الفاجعةَ لم تكن في امرأةٍ.

أمسكَ الغريبُ كفي القمرِ وقبلَهما متوسلًا لتجيبَ عن الاستفهامِ الأخيرِ فأشارت:

- لا!

فعادَ يتوسل راكعًا فأشارت:

- لقد كنتَ مسافرًا عبر طريق الضباب الصحراوي مِن مدينتِك روماف إلى مدينة الرايات الحُمر قبلَ سقوطِك ورائي في البئرِ إلى امرأةٍ، ولو كانت مصيبتُكَ امرأةً ما عرفتَ بعدَها

امرأةً أخرى تستحقُّ السفر، أما السؤالُ الذي على لسانِكَ المقطوعِ (كيف علمتِ أنني مسافرٌ إلى امرأةٍ؟) لا يقطعُ رجلٌ الصحاري المجهولةِ العواقبِ إلا مِن أجلِ امرأةٍ.

فتش عن المرأة في كل شيء إلا شيئًا واحدًا هو اللاشيء!

ابتسمَ في هلعٍ وأمسكَ كفيها بيديه المرتعشتين وأشار بما يوحي أنها تغارُ عليه، وأنه سعيدٌ بهذا وأن عليها أن تطمئنَّ؛ لأنَّ المرأةَ التي كان مسافرًا إليها هي أمُّه.

وبدأت تجمع بهدوء أجزاء الصورة الممزقة وضحكت جدًّا ربما أدركَت من حديثه أنه غير متزوجٍ بالفعلِ وأشارت إلى رقبتِه ثم إلى قلبِه:

- الحبُّ والموتُ يتبادلان الأدوارِ في حكايات العشقِ السَّماويِّ الذي لا يحتاجُ العاشقُ فيه إلى اختراعٍ يكتشفَ به إن كان معشوقًا أم لا.

فأشار لها بيديها ما يوحي بتساؤلِه إن كان فقرُه يؤثرُ على حبها له فأشارت وهي تضحكُ:

- سيظلُّ هذا تحرشًا حتى أُحبُّك يا فتى، أو كن بعيدًا دون بُعدٍ دونما أي اقتراب، وخُطى ترابِك إن عشقتْ عيناي أغلى من الذهب، ذهبُ الملوكِ بدونِ حبٍّ لا يساوي إلا التراب.

هرولَ الغريبُ فرحًا بالخروجِ مِن تحت مقصلةِ فراستِها ثم كتبَ لها:

- يحتاجُ الغرقى إلى الذين ينقذونهم، بينما رجالُ الإنقاذِ يحتاجون إلى ضمِّ أذرعِ الغرقى خلف ظهورِهم حتى لا يأخذُهم الموتُ إن جاءَ يحصدُ أرواحَ الغارقين، لكنني عندما جاءكِ الموتُ استأذنتُه أن يقيِّدَني فيه ويؤخِّرَكِ عدةَ دقائقَ في الحياةِ على كتفيِّ.

هي لم تنسَ يومَ السقوطِ في البئرِ وأنه حملها غارقًا فوق كتفيه حتى تعيشَ دقائق إضافيةً، لعل السماءَ ترسلُ إليها على كتفِ موتِه الحياةَ، حين جزم بأنه احتضاره موت وآمن معها بعقيدته «أنك تحتضر لا يعني أنك ستموت».

ضمها إلى صدرِه ووقَّعَا عدةَ طلباتٍ لِقبلاتٍ لا تخلو مِن قوة بربريةِ، جموح الاشتباكاتِ الأولى للذين يعشقون لكن القبلات جميعَها لم تدخلْ حيِّزَ التنفيذِ، ربَّما أنها تحترفُ فنَّ عبقريةِ المسافاتِ لتبقى اللهفة بداخله مشتعلة.

-3-

ألقى بائعُ العطورِ الورقة المطوية التي كان قد كتبها ليلَ أمسِ في الفناءِ الكبيرِ بعيدًا، وكأنه خاف أن تكتشفَ أنه يرميها فتأمرَه بإحضارِها، ثم انتقلَ العاشقان إلى البحيرةِ التى تفرعت مِن بئرِ السقوطِ ونسي أمرَ الورقةِ، وتبادلَا الرأيَّ حولَ استغلالِ الماءِ في الزراعةِ، وبالفعلِ في خلالِ عدَّةِ أيامٍ كان الغريبُ قد أحضرَ مِن القبائلِ التي على حدودِ المدائنِ بذورًا، ثم عاد كالبرقِ وزرعَ حولَ الكوخ ما تيسَّر له مِن البذورِ والشتلاتِ والوردِ والياسمين ومسك الليلِ وغيرها من النباتات الفاتنة.

كاد الفضولُ أن يفتك بها لتعرف أيةَ أنباءٍ عن مدينةِ روماف التي هرِبَتْ منها يومًا ما منذ كانت طفلةً لأسبابٍ دمويةٍ، ولكنها كانت تستدرجُه ليحكي لها ما وقعَ في المدينةِ في العشرين عام الأخيرة، فبدأ يحكي عن انقسامِ المدينةِ إلى شمالٍ وجنوبٍ وانضمامِ وسطِ المدينةِ بما فيه من أغنياء للشمالِ حيث الملكية، وانفصالِ الجنوبِ بما فيه من فقراء ومتشددين بعدَ حربٍ طاحنةٍ وسيلٍ من الاغتيالاتِ الغامضةِ التي طالت كلَّ الذين كانوا على مذهبِ (الحُب) بعد موتِ مؤسسه الذي يدعَى سيد الآسرين (آسر)، ومقتلِ زوجتِه التي تدعى لامار، ومقتلِ (الحكيم) وهو أحدُ أكبر مؤسسي مذهب الحب، وعن حوادثِ اغتيالٍ طالت كلَّ تلاميذهم وعائلاتِهم، وكلِّ مَن له علاقةٌ بهم مِن قريبٍ أو مِن بعيدٍ.. وهنا تذكرت ريسال حديث أمها لأبيها وهي تقول له:

- لا، مِن المنطقيِّ إلا تفكِّرَ في الاختيارِ بين شيئين أحدُهما الموتُ إذا فُرِضَ عليك اختيارُ أحدِهما بين قوسين؛ لكن المنطقيَّ أن تختارَ احتمالَ الحياةِ بِبُطولَةٍ، نَجاحُ قِصَّتِنا ليس مِن أجلِنا فقط، إنما مِن أجْلِ الناسِ جميعًا في هذه المدينةِ والعالمين.

وبدأتْ ريسال تطلق سراح أسرار إصرار أبيها قبل موتِه أن تعيش ريسال في الصحراء بعيدًا عن القتل الذي لم يرحم رقاب البشر، وتذكَّرَت أيضًا دفاعَ أبيها عن حبِّه لأمِّها بقوله:

- هل تعلمُ سِرَّ تفاهتِنا، بِتفاهةِ ما بعدَ التَّتفيه، أنَّا حرمنا الحبَّ علينا، فوجدنا حكيمَ القومِ سفيه، الحضن بِحُضنِ الحضنِ يخون، في حضنٍ آخَرَ يعشقُ فيه، فدعونا نحضنُ مَن نعشق؛ الجرحُ ينادي مَن يشفيه.

وعادت ريسال من رحلة شرود ذاكرتها إلى الغريبِ؛ حيث امتدَّ الحديثُ إلى شمالِ المدينةِ وما حلَّ به من فقرٍ ورذيلةٍ وعلاقاتٍ سيئةٍ بين الناسِ وبعضِهم، وعن تلالِ القمامةِ التي ملأت الطرقات فأشارت له:

- يحسبُ الناسُ أنه لا للغيمةِ التي لا تمطرُ سوى حجبِ الشمسِ ومزيدٍ مِن الأملِ الزائفِ إلا أنهم نسوا أن أنفاسَ الحبِّ على الأرضِ هي التي تغازلُ الغيومَ، وما من غيمةٍ تمرُّ بلا مطرٍ إلا وتحذِّرُ الذين ظلَّلَتْهم أن الحبَّ على هذه الأرضِ يتعرَّضُ للتبويرِ.

بدا على وجهِه الضجرُ مما يسمعُ منها؛ ربما لأن هذا البوحَ كان يقتلُ الذين يتفوهون به فكتب لها:

- اكتبي إن شئتِ عن الموتِ لكن لا تكتبي عن ذلك الذي يُدعَى الحبُّ، ألم تسمعي الناس يقولون إن الموتَ رحمةٌ، وإن الحبَّ على الذين يعشقون لَعذابٌ كبير.

فكتبَت تداعبُه:

- إن كان قلمُكَ يبعثُ في روحِ المتلقِّي الكآبةَ، فحاول أن تتفهمَ أن الذي بين أناملِكَ أيَّ شيءٍ آخرَ غير أنه قلم.

وما زالت تحاول أن تقحمُه في (الحب) ليدركَ أنه في صحراء ولا يوجد رقيبٌ هنا على ما يخافُ أن يبوحَ به وهي تشير له:

- إذا جاءَكَ مَن اجتثَّه الوجعُ مِن فوق الحياةِ بعد أن أمسى حزينًا لحظة غروبٍ، وبات كأمواتِ الشجرِ تدقُّ فيها المسمارَ فما عاد يشعرُ؛ فحذارِ أن تجعلَ بمنشارِ كلامِك هذا

الخشبَ تابوتًا في الوقتِ الذي يمكنُك فيه أن تجعلَه آلة موسيقية فريدة.

فكتب لها وهو ينظرُ حولَه خائفًا:

- كلامك كأنه يخلخلُ ضرسَ عقلي تمهيدًا لاقتلاعِه.

ظلت تضحكُ حتى استلقَت على ظهرِها فرأى حدائقَ التفاحَ تغوي من فوقِها الأزرارُ بالانحلالِ على طولِ امتدادِ الفرعِ النائمِ في فراشِ الغوايةِ.

لقد كان عشقًا سماويًّا خالصًا؛ لم تُحَدِّثْ نفسُ أحدِهما نفسَها بالحرامِ، وكان كلٌّ منهما يلزمُ غرفَتَه ويستيقظان على شفا حضنٍ، وينامان على التهابِ قُبَلٍ لا تشتعلُ، ولكنها تساعدُ على الجحيمِ، وكانت قد هبطَتْ في المكانِ الطيورُ فأصبحَ مطارًا للأفراحِ، وفي هذا العشقِ الغريبِ اجتاحت عطورُ الوردِ فضاءَ الصحاري البعيدةِ.

كفاه عن العالمين اشتهاءٌ لحضنٍ وطلبٌ لِقُبلةٍ وهما يتنهَّدان في تداخلِ عَشرةِ أناملِه في عَشرةِ أناملِها الساخنةِ في انبساطٍ وانقباضٍ للكفين على مدارِ الأربعِ والعشرين ساعةً صعودًا وهبوطًا سبعَ مراتٍ في الأسبوعِ، فهل آنَ الأوانُ أنَ يعلمَ الذين لا يعلمون أن الحبَّ حياةُ، وألا عصمةَ لهشيمِ الجسدِ من الاشتعالِ إلا بالعشقِ ولو كان في قاعِ محيطٍ؟

كانت هذه المنطقة من العالم تسمى منطقة الهلاك نظرًا لاعتقاد الناس أن هذا الطريق الممتد فيها لا يوجد به ماء، وأن من يمر عليه هالكٌ لا محالة، وطريق الهلاك هذا هو أحد الطرق التي تربط بين مدينة روماف (التي كانت تسكن فيها عائلة ريسال قبل وقوع المجاز الوحشية والاغتيالات الكبرى) وبين المدينة التي على الجانب الآخر.

وفي إحدى المساءاتِ التي تشهدُ جموحًا عارمًا أشارت في شهيقٍ هامسٍ:

- أريدُكَ.

وقفَ مرتجفًا من صدمةِ هول ما سمع فقالت:

- ألن تفعلَ شيئًا؟!

فكتب من أعماقِه:

- قد كنتُ أكتبُ بعضَ شعرٍ حين كان يُقالُ لي، هلَّا كتبت عن المناسبةِ المقامةِ في كذا، لكنني قطعتُ أوراقَ المدينةِ دون حرف، قلمي الضعيفُ أُصيب عمدًا مِن رموشك بالأذى، والشعرُ والشعراءُ داخوا من حديث قيل عنكِ، وأنا الذي يُغمى عليَّ إذا تذكرتُ الشَّذى، إبليسُ صلَّى أمام وجهِكِ ركعتين بتوبةٍ، والجنُّ في الركنِ المهيب على النهود تتلمذَ.

فأشارت وهي تضمُّ حاجبيها وكأنها غضبت:

- لا قيمةَ لكلِّ الذي حدثَ صراحةً ما لم يحدث ذلك الذي كان يجبُ أن يحدثَ سِرًّا في اللهفةِ الأولى أوَّلَ مرةٍ!

ثم اقتربَت منه حدَّ اللمسِ وتنهّدَتْ:

- الشِّعْرُ مَن وقتَ اشتباكِ الخيلِ صهلًا أقحمَه؟! لا شيءَ إن حَمِيَ الوطيسُ سوى اندلاعِ الحمحمة، أرني البطولةَ والفحولةَ والرجولةَ يا رجل، فمِن الوجاهةِ إن ملكتَ الخصمَ ألا ترحمَه.

ليس من المنطقي أن يرجو الماء النار بالانطفاء من تلقاء نفسها حين تندلع في الهشيم ببضع كلمات لا تسمن ولا تغني من لقاء.

ضمَّها إلى حريقِ حُمَّى لهفته برجولةٍ معلنًا بذلك انتهاءَ الوقتِ الإضافي للعقل، فأخذته الأنثى الفارهُ جسدُها إلى غرفتِها، وغلَّقَتِ الأبوابَ وخلعت له بابَ خزانة، وأشارت إليه أن يلبسَ منها فلمَّا لبسَ أشارت له أن ينتظرَها حتى تُبدِّلَ هي الأخرى ملابسَها، وكأن قد أصابَ جبينَها العرقُ، فأشار وهو يجففه:

- قطرة واحدة من عرقِ جبينِك، أجملُ من عطورِ هذه الأرض ولو اجتمعت.

شدَّها إليه بعنفٍ واحتضنَها وهي تُفلِتُ جسدَها من بين فكيه مشيرةً بإغراء:

- قبائلُ من الرجالِ يمتطون خيولهم غاضبين، بربريٌّ كان عناقُك حولَ ظهرِ مهرةٍ تريدُك.

انقضَّ المغيبُ عن الوعي على شفتيها وجسدِها فانفلَتَتْ منه وأشارت إلى شفتيها وصدرِها بعد حادثةِ الهجومِ:

- قبلاتُك قطَّعَتْ الشفتين وتحفرُ في الأعماق تجوُّفًا، وجرائمُ خربشةِ التفَّاحِ أثارت في الليمون تخوُّفًا، قد أعلمُ أن الرغبةَ حقًّا نصفُ الحب، لكنك تجهلُ أن النصفَ الباقي يا دَمَويُّ تصوُّفًا.

وانحشرَتْ علامةُ التعجبِ في منتصفِ رأسِه على خلفيةِ فجورِها المدججِ بالإيمانِ، ولما لمحَت علامات الاستفهام في عينيه أشارت له في دلالٍ ضاحكةً:

- اللصُّ يمضي هاربًا والطفلُ يصرخُ خلفَه، لا بد أن تبقى الأنوثة كالذئابِ مع القطيع، ومن الذكاءِ بأن يطولَ الوقتَ جدًّا هكذا، لا الطفلُ ذاق ولا الذي خطف الحلاوةَ يستطيع.

ارتفع صوتُ ضحكُه الصاخبِ، فكأنما أغضبَتْها تلك القهقهةُ التي فصلَتْ اللحظةَ الناعمةَ فأشار مسرعًا:

- لا بدَّ أنكِ تعرفين بأنَّ هذا الصَّلبَ هَشُ، وبأنَّ خلفَ القهقهاتِ الصوتُ مِن حزْنٍ أجَشُ، فإذا علمْتِ بأنَّ سِرًّا بي عصيٌّ لا يقال، فضعي الشرارةَ في الحكايةِ أن كلَّ سكوتي قَشُ.

فأشارت في هدوء العارفين بالله:

- تحت الضغوطِ بدونِ صبرٍ نفعلُ السَّهلَ الحرام، ما كلُّ شيءٍ في الحياةِ إذا اضطُررنا بمستحَلٍّ، دعني أُحِبُّك دون لمسٍ دون هتْكٍ للشِّفاه، تفصيلُ فتوى لارتكابِ الذَّنبِ عمدًا ليس بحَلٍّ.

تحكم وتتحكم وتقود ولا شيء معها يحدث عفويًا، فهي تشحنُه بطاقةِ الحبِّ استعدادًا للانطلاقِ إلى طريقٍ غير مسمَّى، وكانت جملةٌ من روايةِ أبيها تطاردُها، وكأن أباها ترك هذه الروايةَ لتحرسَها في كل حينٍ حينَ كتب: «لا يقطفنَّك أحدٌ متسلِّلًا سورَ غفلتِكِ باسمِ الحبِّ أبدًا، إن حياةَ الوردِ بعدَ القطفِ قصيرةٌ جدًّا، ولو وضعناه في نهر دجلةَ وسكبنا عليه جبالَ الهيمالايا سُكرًا».

ثم خرجا من الدارِ (الكوخ) فوضعَ يدَه على مقدمةِ رأسِها علامةَ أنه لم يفهم كالعادةِ؛ فأشارت له أنهما ذاهبان إلى المدينةِ للمأذونِ؛ فقفز قلبُه فرحًا على خلفيةِ احتمالاتِ حصولِه على جوازِ سفرٍ للتوغُّلِ أخيرًا في حدائق الرُّمَّانِ، واحمرَّت حدائقُ الوردِ وتجمهرَت على خدَّيها، وانطلقا فورَ اتِّخاذِ قرارٍ بالهوى حتى إذا صدمَ قدميها حجرٌ انكبَّت على وجهِها أمامَ الورقةِ المطويةِ التي كان قد كتبَ فيها شيئًا عن ماضيه وكثيرًا من الأسئلةِ، فأمسكَ ساقَها المصبوب في حنانٍ ليرى ماذا أصابَ قدمَها حين اصطدمت بالحجرِ، واستلقَتْ على ظهرِها تتألَّم، لكنها لم تعد الاصطدامَ كالعادةِ صدفةً، وإنما شيئًا قدريًّا لا تدري جملةَ أسبابِه، ومدَّتْ كفَّها تفتشُ عن شيءٍ تفهمُ به سرَّ السقوطِ، فالتقطَت يدُها الورقةَ، ففتحتْها وراحت تقرأُ بأناملِها فإذا بها تصادفُ مِن بين الأسئلةِ التي يريدُ لها جوابًا عن سرِّ وجودِها في هذه الصحراءِ وحدَها، وعن اسمِها وأصلِها وسرِّ العمى الذي أصيبت به عيناها، سؤالًا له وإجابةً عليه وهي تقرأُ في الورقةِ:

- إن كنتِ تريدين أن تعرفي في لحظةِ صدقٍ لي معكِ ما الذي أتى بي إلى هنا، فقد كنت مسافرًا للقاءِ امرأةٍ واعدَتْني على المعصيةِ في البرِّ الآخرِ مِن الصحاري، وكانت قد اشترت مني عطورًا وراودتني عن جسدِها لألقاها في بيتِها، حين أسافرُ إليها يكون زوجُها في التوقيت نفسِه قد ذهبَ في رحلةٍ للتجارةِ فقبلتُ.

ساد الصمتُ بضعَ شهقاتٍ وقد نسي ما كان قد كتبه .. فكَّرَ أنها تقرأ له شيئًا فحدَّث نفسَه:

- تبًّا لك، لن أكتبَ عنك بعدَ اليومِ شِعْرًا حتى لا تقرئين بين السطورِ ذلك الذي أخفيه عنك في كلِّ حديثٍ!

تفاجأ بائعُ العطورِ بقدميها تركلانه في وجهِه وقامت غضبى وهي تهرولُ للعودةِ إلى الدارِ وهي تشيرُ:

- لا تتفوَّه بحرفٍ واحدٍ؛ آلآنَ فقدَتْ بلاغتُكَ الزهوَ بعدَ أن كان الصمتُ على شفتيك بلاغةً؟ لقد انتقَلَتْ الإثارةُ إلى رحمةِ اللهِ تعالى، لكنْ اطمئنْ لقد كانت جنازةٌ باذخةَ الحزنِ، لو كنتُ أعلمُ مَن ذا الذي لفَّني في كفنِ حكايتِكَ ودفنني في مقبرةِ الحنينِ إليكَ لقطَّعتُ ضلوعَ صدرِه مِن خلافٍ، ومنعتُ عن جسدِه الموتَ حتى يرى العذابَ كما أراكَ.

حاول أن يفهمَ ما يجري وما الذي جعل كأنَّ حيَّةً لدغتْها، وحينما رأى الورقةَ علمَ أنها اكتشفت أمرَ المرأة التي كان مسافرًا إليها؛ نهض مسرعًا خلفها بحزنٍ قائلًا:

- ها ها ها.

فأشارت له:

- قد باتَ ذلك الكتابُ الحاوي لكلِّ هؤلاءِ النساءِ يحتاجُ إلى فهرسٍ!

فتوقَّفَتْ في المنطقةِ الواقعةِ أمامَ البحيرةِ وشمَّرتِ عن ذراعيها وأشارت:

- بالطبعِ تذكرُ حديثَنا عن الموتِ والحبِّ.

أشار برأسِه نافيًا كونه يتذكر الحديثَ، ثم انتبه بطبيعة الحال أنها لم تره إصبعًا على جبينِها كعلامةٍ على أنه يذكر؛ فأشارت بابتسامةِ المجانين بعد أن قبضَت على يده التي كانت على رأسها، وقد استعادت من الغضبِ كبرياءَها:

- سنعودُ إلى ما قبل السقوطِ لنسقطَ مِن جديدٍ لأرى هل ما يزالُ الحبُّ والموتُ يتبادلان الأدوارَ، أم أنك مِن الكاذبين.

فأشارَ لها متوسِّلًا وهو يمسكُ يدَها كالعادة لتدركَ ما يقولُ:

- ألم أسقط وراءَكِ في البئرِ لإنقاذِكِ، ألمْ أحملكِ على كتفيَّ في البئرِ أثناء ارتفاعِ منسوبِ الموتِ لأمنحَكِ عمرًا أطولَ مني؟!

فأشارت في غضبٍ:

- ما سقطتَ مختارًا إذ سقطتَ، ولكن الحبَّ أسقطَكَ حين كنتَ من المغرمين، وكانَ الوقوعُ إجباريًّا، وما كان قد وصلَ منسوبُ الموتِ إلى أنفِكَ بعد لأعرفَ هل هذا فعلٌ أم أنكَ مِن الشُّعراءِ فما أنا من الغاوين.

سقوطي لا يعني أنني أحتاج إلى إنقاذ، بل ربما كان إنقاذًا للذين قدر الله لهم السقوط بعدي؛ لينقذهم بسقوطهم في أسفل بئر من السقوط في قعر جهنم مما كانوا سيرتكبونه لو لم يسقطوا ومرُّوا آمنين!

فأشارَ لها بيديها أن عليها أن تفي بعهدِها في إلا تحاسبَه مطلقًا على ما قبلَ اللقاءِ التي شبَّهته بيومِ الولادةِ، فهرولَت إلى داخلِ الكوخ وأخفَت اللوحةَ في قعرِ الخزانة بعدَ أن أحضرَتْ الوثيقةَ التي كانت مطويةً فيها، وعادت بينما يقفُ مذهولًا وكتبت على الورقة تحت السطورِ التي فيها سؤالًا:

- لماذا أشعر بك تدفعُني نحو اللاشيءِ بقوةٍ على خلفيةِ إرسالِكِ لي الوهمَ صورًا مزيفةً مِن منطقةِ الخداعِ في أكبرِ كمينٍ للوقوعِ في شَرَكِ السَّرابِ مستغلًّا امرأةً ليس لها على هذه الأرضِ إلا عيناك؟!

- أنا بقلبي أحبُّكِ وسأبقى معك لا ريب.

- أحبُّكَ كلَّكَ لكنا سنفترقُ ذات يومٍ يقينًا؛ فلقد أقَمتَ في مكانٍ ما أنت فيه إلا مِن العابرين.

ركعَ يرجوها أن تعفوَ عنه فأشارت:

- أنا لا أحاسبُك على ذهابِكَ إلى العاهرةِ، وإنما أحاسبُك على كذبِك الذي كان بعدَ الولادةِ.

جلسَتْ حزينةً فاقتربَ يلمسها فضربَت يدَه وهي تبكي وتشيرُ:

- لم أَرْجُ بهذا الموتِ الختامَ، ولسوفَ أموتُ كموتى اليتامى؛ كي تمضي تسألُ عني الطرقات، وتفتِّشُ في الصحراءِ الخِياما.

فابتسمَ مرتعشًا وأشارَ بيديها أنه سيفعلُ أيَّ شيءٍ حتى ولو الموتَ، فقامت كالمجنونة وأشارت إلى ماءِ البحيرةِ وأمرتْه أن ينزلَ ويغطسَ لا يرفعُ رأسَه إلا إذا أعطتْه إشارةً!

نزلَ بائعُ العطورِ في البحيرةِ وكأنه لا يأبَه بجنونِها وغطسَ بجسده ورأسِه كاملين تمامًا في الماءِ، ثم نزلَتْ إلى الحافةِ ووضعَتْ كفَّها في الماءِ ووصلَتْ إلى ما فوقَ رأسِه لتكون على يقين مِن أنه سيغرقُ غرقَ الموتِ.

شعرَ بائعُ العطورِ تحت الماءِ أنها نسيت أنه لا يملك خياشيم السمك مِن طولِ مدةِ تركها له غارقًا، ومرَّت الثواني وبدأَ يحتضرُ كالذين يُصْرعون ويبتلعُ الماءَ، وهي لم ترفعْ يدَها بعد ولم تعطِه أيةَ إشارةٍ كدليلٍ على نجاحِه في امتحانِ الموتِ أو الحُبِّ، لكنَّ شيئًا مِن معجزاتِ العاشقين أصابَ روحَه جعله يستسلمُ للموتِ..

-4-

وفجأةً رفعت الغاضبة التي أصبحت كالمجنونة يدَها من فوقِ رأسه، لكنه ما ارتفعَ ليلتقطَ أنفاسَه، فاشتدّ غضبُها منه عندما وضعَتْ إصبعَها على رقبَتِه في موضعِ النبضِ وعلمَتْ أنه ما تزال به الروحُ، فأمسكَت وتملَّكَتْ مِن شعرِه الناعمِ الطويلِ من فوقَ كعكةِ ذيلِ حصانِ تسريحتِه، فما ارتفعَ فوضعت يديها تحتَ إبطيه بعد أن نزلتْ إلى الماءِ وأرغمَته على الارتفاعِ وحملته بالقوَّةِ كما تحملُ الأمُّ طفلَها المقتولَ، ثم ألقَتْ به على الشاطئ في غضبٍ وانتفَضَتْ تصيحُ وتقولُ وكأنها تسمعُ نفسها وهو نصفُ ميتٍ:

- لو كنتَ طلبتَ الذي كنتَ ستنتحرُ مِن أجله أيها الحقيرُ لناولتُكَ إياه، فأنا أدركُ جدًّا ما وراءَ هذا الذي فعلتَه يا بائعَ العطورِ!

ثم راحت تضغطُ على صدرِه وتسحبُ الماءَ من فمِه بفمِها، حتى ظنت أنه ماتَ، لكنها سمعَتْ دقاتِ الروحِ تُدب في أوصاله، فعادَت في هلعٍ تستمرُّ في سحبِ الماءِ بشفتيها حتى انتفضَ أخيرًا يتقيَّأ ما في الرئتين فاحتضنَتْه وأشارت له:

- لماذا فعلْتَ هذا بنفسِكَ ولاسيما وقد أعطيتُك الإشارةَ بالخروجِ لالتقاطِ الحياةِ؟

فابتسمَ وأمسكَ بيديها وذكَّرها بمقولتِها (الأشياءُ التي لها إجابات لا يحقُّ لنا أن نضع لها علامةَ استفهام).

أدركَتْ بذلك أنه بخفَّةِ روحٍ يأخذُ بالثأرِ، ويردُّ لها الضربةَ ويكرِّرُ ما أغلقَتْ به فمَه مِن قبل حينما سألها: لماذا لا تسأليني مَن أنا؟ فضربته ضربَ الطفلةِ لطفلٍ سرقَ منها الحلوى، فانطلقَ يجري خلفَها وتحولَ الطفلان إلى حصانٍ ومهرةٍ، توقَّف الحصانُ فجأةً وتركها تجري متسائلًا في نفسِه:

- لماذا لم تتعثر وهي لا ترى إن كانت تجري بهذه السرعةِ؟!!

فأشارت مِن بعيدٍ حينما أحسَّت أنه ليس خلفَها يجري وهي تبكي كطفلةٍ غاضبةٍ:

- يجرحُني اندهاشُكَ يا بائعَ العطورِ، وما تزال مندهشًا لأنني اكتشفتُ أنك مندهشٌ؛ لأنني لم أتعثر، كلُّ ما في الأمرِ أنني أحبُّ رجلًا أحمقًا، هل تعرفُ لماذا لستَ مندهشًا مِن قولي لك أنك أحمقٌ، ببساطةٍ شديدةٍ خبرُ إدراكِك أنك أحمقٌ ليس مفاجأةً بالنسبةِ لك.

هرولَ يجري نحوَها ويحتضنُها ثم أخذ يديها وأشارَ بهما:

- لقد قلتِ بعد إجبارك لي على الخروجِ مِن الماءِ: لو كنتَ طلبْتَ الذي تودُّ أن تنتحرَ لأجلِه لناولتُكَ إياه، وها أنا ذا أطلبُ منك بشكلٍ سلميٍّ وبدون وقوعِ قتلى أو جرحى.

ضحكَتْ جدًّا، ثم فتحت ذراعيها ليرتمي فيهما، ثم أغلقَتْ ذراعيها حتى لا يقعَ العناقُ، ثم نظرَ الحصانُ في عيني المهرةِ العسليتين، وتقدَّمَ بارتفاعِ وانخفاضِ تنهيدِ صدرِه طالبًا القُبَلَ العميقةَ فيها، فتحسسَت وجهَه حتى وصلت إلى صدرِه بكفها، علامةً على رغبتِها في أن يتوقَّفَ عن الجموحِ فيها وأشارت:

- أشعرُ كلَّما أذكرُكَ في طرقات الروحِ وأنتَ لست معي أنك تقبِّلُني و تصبُّ في جمجمتي زجاجةً من الذِّهابِ، فأسْكَر وربَّما أضحكُ وحدي، وإلا ما الذي يجعلُ العصافير التي تصادفُني على طولِ الطريقِ تتهامسُ عليَّ.

قفزَ قلبُه يسألُ قلبَها وهو يضعُ يدَها على يسارِ قفصِه الصدريِّ؟

- أتحبين رجلًا مثلي؟

ردَّت على إشارتِه بإشارةٍ أكثر ثرثرة:

- يجادلونني عينايَ في أنه كانت هناكَ سنين قبلَكَ برغمَ أنني أعلمُ علمَ اليقينِ أنكَ أنتَ بدايةُ التقويمِ الميلاديِّ لأيامَ الدنيا، وسألتُهم متى طلعَ الصُّبحُ قبلَه فلم يجيبوا، وسألتُهم ربَّما قد كان قبلَكَ سوادٌ يجتاحُ العالم، ولو أني أشكُّ أنه كانت قبلَكَ على هذه الأرضِ حياةٌ.

حملَها كالمغشيِّ عليها مِن هولِ حرارةِ غرامِها فيه، وتركَها خارجَ غرفتِها لتدخلَ وينهي هذا المشهدَ الساخنَ بناءً على رغبتِها ودخل، وبينما يدخل هو غرفتَه على حين غفلةٍ منه عادت إلى حيث حادثةِ غرقِه، لتلتقطَ الوثيقةَ التي كانت قد ألقَتْها على شاطئ البحيرةِ كي تنزلَ في الماءِ بالكاملِ لإنقاذِه ورفعِه من الغرقِ، ثم أعادتْها في اللوحةِ المطويةِ في قعرِ الخزانة المحفورِ في جدارِ الكوخ المبني بالطوبِ اللبِنِ، وكذلك كانت المكتبةُ وأشياءٌ أخرى.

انتهيا مِن تبديلِ ملابسِهما المبتلَّةَ الملتصقةِ بحرارةِ جِلدِ الشوقِ، وكأنها كانت تعدُّه لتحمِّلِ غياباتِ الرحلةِ إلى المجهولِ، فأعطَتْه جرعةً إضافيةً وهي تشيرُ إلى حنينِها نحو عناقٍ:

- إشعالُ حريقٍ دونَ هشيمٍ دون ثِقاب، في أنثى أتَتك وعادت بالخيباتِ عِقاب، لو لم تأخذني الليلةَ حيث أريدُ فسوف يطير بهذا الأمرِ حبيبي رِقاب.

وسأرفعُ ضدَّكَ دعوى، أقدِّمُ فيها دليلًا قطعًا سوف يدينُك، هل تركُ قميصي بدونِ القَدِّ سلوكٌ يرضي حبيبي دينَك.

عادَا من العناقِ الطويلِ وقد عقدَا العزمَ الجارفَ على استئنافِ السفرِ في الصحراءِ إلى حدودِ المدينةِ، وقد بدأ ظلامُ ما بعدَ الغروبِ في السيطرةِ على المشهدِ.

وفي كلِّ بضعِ خطواتٍ يقتربُ محاولًا الانقضاضَ على رباطِ قلبِها لتنهارَ مستسلمةً مفاصلُها لجرعاتِ تخديرِ تنهيداتِه، لكنها كانت تعطيه من نبيذِ الاهتمامِ ما يكفيه لِضخِّ دماءِ الروحِ في عروقِ الحلمِ؛ لمواصلةِ السُّكْرِ؛ للتخدير ضد مواضعِ تعب السفر.. نعم.. يجبُ أحيانًا أن نفقدَ الوعي لكي نكون في قمةِ الانتباهِ.. حتى أوقفها مشيرًا:

- أوَكلَّما اشتهَتْ الشفاهُ لِوَرْدِ وجنتيك كي تستعدَّ لتلْثَمَه، ترتدُّ عني والاحمرارُ يسيلُ منك على ارتباكِ اللعْثَمة.

كانت أكثرَ ذكاءً من أن تناولَه ما يجعلُه يمضي متخمًا لا يقوى على الحلمِ.. إنما.. تُرى ما حجم هذا الحبُّ الذي يجعل المرءَ يقطعُ موتَ الصحاري ولا يشعرُ أن قدميه متعبتان؟!

وعندما باتت أنوارُ المدينةُ عبر شابورة الليل على مدِّ البصرِ، بدأتْ علاماتُ الاستفهامِ في الهجومِ على رأسِ بائعِ العطورِ:

- إلى أين سيذهبُ بي الهوى، ترى كيف هل ستذهبُ بي إلى جنوبِ المدينةِ أمْ إلى مقرِّ إقامتي في الشمالِ، وإن ذهبَتْ بي إلى الشمالِ، فماذا سأقولُ لأهلي هناك والذين يعرفونني عن هذه الكفيفة؟ وإن ذهبَتْ بي إلى الجنوب فأقلَّ ما يفعلوه بي هو القتلُ، هذا إن كان في قلوبِهم رحمةٌ، إنهم يعدوننا كفارًا، وإن حدثَ ونجوْتُ فأنا لا أعرف أحدًا، كيف سنحصلُ على مأذونٍ؟ وإن وجدنا مأذونًا مِن أين سنأتي بالشهودِ لإتمامِ العقد، وإنْ حدثَ كلُّ هذا وهذا مستحيلٌ أن يمرَّ بسلامٍ، فكيف سنردِّدُ وراءَ المأذونِ صيغة الزواجِ (زوجتُكَ نفسي.. إلخ)؟

فأشارت له وكانا قد وصلا إلى مشارف الجنوبِ؛ حيث لاحت بعضُ الأنوارِ في البزوغِ بعدَ رحلةٍ كانت قد بدأتْ حين غطسَتْ الشمسُ إلى حلولِ ضبابِ منتصفِ ليلِ العالمين:

- لا مخرجَ لنا من الحرامِ الليلةَ إلا الحلالُ بعد أن بات صدري يتشقَّقُ لهفةً على عَرَقِ حضنِكَ، وإني لأشعرُ من هولِ اللهفاتِ عليك أن في بطني لك أجِنَّةً.

- انقضَّ عليها مالك لكنها تراجعَتْ خطوةً فتراجع المسحورُ بها احترامًا لاعتراضِها وأمسك بكفيها:

- هل إن جُنِنتَ يُجَنُّ رأسي وقلبي رغمَ جفاكَ حَنْ، أمَّا أنا حين اشتياقي لا يهمُّك أن أُجَنْ، إن أنَّ جُرْحُكَ أو تأوَّهَ أَرْتَمي فوق الأنين، لكنْ تغيبُ ولا أراك إذا عميقُ القلبِ أن، قل ماذا

يمكنُ أن أقولَ إذا رغبْتَ الآنَ بي، وأتيتَ ليلًا وقتَ شوقي وقُلْتَ إني رغبْتُ عن.

فأشارت له بنفسٍ مطمئنةٍ وحبَّاتُ العرق كاللؤلؤ تترقرق على جبين القمرِ:

- اعلمْ أن كلَّ الخطى إلى الرحمن نورٌ، وأن كلَّ العذابِ في الطريقِ إلى اللهِ نعيمٌ، وأن كلَّ الدموعِ في الطريقِ إلى الرحمن أفراحٌ؛ الله يحبُّ السالكين الدروبَ إليه، اطمئن وأبِقِ في يديَّ يديك يا بائعَ العطورِ.

دخلَا المدينةَ على حين نومٍ مِن سكَّانِها بين اطمئنانِ امرأةٍ، وبين رجلٍ يكتمُ اندهاشَه خشيةَ أن تضايقُها أسئلتُه، لكن الأمرَ بات يدعو إلى القلقِ الشديدِ لا سيما وأن الليلَ في مثلِ هذه الأحياءِ الفقيرةِ له أعرافُه وله وحوشُه، وبينما هما يمشيان توقّفَتْ وقالت لحبيبِها بالإشارةِ في بكاءٍ:

- لقد أحرقوا الوردَ وحرموا الصدورَ مِن النسيمِ، إنما ترى أيُّ الفريقين فعل هذا بالورودِ، الملوكُ أَمْ المتشددين، هل نحن في غابةِ الذي يعدون الناسَ كفَّارًا أم في قبيلةِ الذين يعتبرون الناسَ عبيدًا؟

بدا بائعُ العطورِ في حرجٍ بعدما بات لا يستطيعُ أن يرفعَ حاجبيه خشيةَ أن تشعرَ باندهاشِه، لكنَّ غموضَها اتخَذَ شكلًا مخيفًا، فبدأ يلعبُ لعبةَ الاستنتاجِ بطريقةِ أن حديثَها (أُحرِقَتْ الورودُ) تفيدُ بأنه كانت هنا ورودٌ، وهو لم يحكِ عن حوادثِ حريقِ الورودِ.

وما يزالُ بائعُ العطورِ شاردًا يحاولُ أن يفكَّ رموزَ ذلك اللغزَ الغريبِ:

- قد أدركت الكفيفة ببساطةٍ؛ لأنَّ الأمرَ لا يحتاجُ إلى عينين، وإنما أنفٌ لم تعثرْ على رائحةٍ كانت قد تعوَّدَتْ عليها، وهذا يعني أن هذه الفتاةَ المجهولةَ كانت هنا يومًا ما، وتعرفُ هذا المكانَ كما تعرفُ نفسَها.

تحاورَا في صمتٍ قليلًا، ثم أشارت له باتجاه أنفاسِه التي يخرجُ منها زفير الضباب:

- نعم أعرف هذا المكانُ يا بائعَ العطورِ كما أعرفُ نفسي، والآنَ يجبُ ألا تعرفَ مَن أنا وأنْ ننتهي

.. فأشار لها بيديها:

- مستحيل، لا بدَّ أن أعرفَ، فرأسي يكادُ ينفجر.

فأشارت له في خوفٍ:

- أنا امرأةٌ محفوفةٌ بالعذابِ يا بائعَ العطور و..

.. فأجابَ بلا تردد وهو يضعُ يدَها على رقبتِه:

- من العدلِ أن أموتَ أمامَ طغيانِ عينيك الرافضتين لبقاءِ رأسي بعيدًا عن التَّلَفِ.

- إن عرفتَ مَن أكونُ، ومَن الذين في رقبتي، فسوف يكون خطرًا عظيمًا على الحبِّ في هذا العالمِ.

- ستجديننني رجلًا يا فتاة.. ألا يكفيكِ كلمة «وعد»؟!

أشفقَتْ عليه ولاسيما أنه بالفعلِ قد قاربَ على الجنونِ، وهنالكَ في طريقٍ بين بعضِ البيوتِ النائمةِ التي مروا عليها والبيوتِ المواجهة لها في أحراشٍ، شدَّتْه من يدِيه وأقعدَتْه تحت أنوارِ عينيها، وقالت في مفاجأةٍ صاعقةٍ:

- أنا ريسال ابنةَ سيد الآسرين (آسر) صاحب مذهب (الحب) الذي اغتيلَتْ بعدَه الإنسانيةُ جميعًا وأمي هي لامار.

أصابَ الأبكم الذهولُ وطلبَ منها أن تعيدَ الإشارةَ، حتى يتأكَّدَ أنه فهم الكلامَ صحيحًا، فأعادت الصدمةَ واندفعَ بيدِه يشيرُ إلى عنقها بما يفيدُ:

- أن الحاكمَ هنا في الجنوبِ يبطشُ بالذين يتفوَّهون بما كان عليه أبواكِ، ولو عثرَ عليك لذبحكِ؛ لأنهم يعتقدون أن والديكِ كانا قوَّادَين، وكانا ينشران الفاحشةَ بين المؤمنين.

فأشارت له:

- أتظنُّ أن الأنثى التي أتت برجلٍ في حجمِك من الصحاري لتكتبَ عليها بعقد الحلالِ كان أبواها فاسقَين.

- لا بالطبعِ، الحبُّ حجابٌ يعصمُ أجسادَ العاشقين من الغرقِ في الشهواتِ، ولو مشوا في طرقات التعرِّي، والبيوتُ بِلا حُبٍّ تَتَعَرَّى ولو كانت في حجابٍ من حديدٍ، وعلى أيَّةِ حالٍ نشبَت الحربُ بين الملكِ والمتشددين يا ريسال لمدَّةٍ لا تقلُّ عن عشرين سنةً، وانتهى الأمرُ بسيطرتِهم على الجنوبِ وإعلانِ الانفصالِ عن الشمالِ الذي ما تزال تحكمُه العائلةُ الملكيةُ.

اطمئني لن أتركِكِ.. الحزنُ يراكَ يصيرُ سعادةً، والماءُ المالحُ حين يُنادَي باسْمِكَ فَاهُ يذوبُ السُّكْرُ فيه زيادةً.. لكن.. ما الذي دفعك إلى العيش وحدَكِ في الصحاري يا ريسال؟

- إن الأمرَ معقدٌ لكنه ببساطةٍ شديدةٍ جدًّا: كان أبي قد كتب روايةً في الهوى عنوانها (أسرار التنهيدة الأولى) سُرِقَتْ منه قبل نسخِها للناسِ، ولم تكن قد اكتملَتْ بعد، فانتقلَتْ من يدٍ إلى يدٍ حتى وقعَتْ في يد مجرمٍ قرأها فأثَّرَتْ فيه حتى صار حكيمَ الزمانِ، وافتتح مدرسةً مجانيةً لتعليمِ الحبِّ وعلاجِ القلوبِ التي أتعبتْها الحياةُ مجانًا، وبالصدفةِ علمَ أبي أن هذا الحكيمُ هو مَن عثرَ على الروايةِ، فاعترفَ الحكيمُ بالأمرِ وبدأَ العطر يفوحُ والهوى، ليملأَ الدنيا فوقعَ الصِّدامُ بين أبي والقصرِ الملكيِّ آنذاك على خلفيةِ تأثيرِ الحبِّ على أولاد الملكِ، فأقسمَ الملكُ على قتلِ أبي؛ لكن الأمر جاء قدريًّا ومات أبي بالحُمَّى بعدَ أن ذاعت شهرتُه في الآفاقِ، فقرَّرَ الملكُ هدمَ قبرِه لينسفَ بذلك أيَّ أثرٍ يتذكرُه به العامةُ، لا سيما وقد أمسى كهفًا للعاشقين الهاربين من الموت قبل الموتِ، وفي هذه الليلة دافعْتُ وأمي عن قبرِ أبي.

دمعَ القمرُ المكتملُ الجمالِ ومسحَ الغريبُ خدَّيها، فعادت تشيرُ له وهي تحرِّكُ شفتيها بصوتٍ حزينٍ:

- تفاجأنا بمقتلِ أمي من سهمٍ جاءَ من بعيدٍ، عرفنا بعدَها أنه انطلق مِن سوادِ صدورِ المتشددين الذين خافوا مِن أن يقع بيننا وبين الملكِ اتفاقٌ، فأرادوا بذلك أن يوقعونا في الحربِ وإشعالِ جحيمِ الفتنةِ بين العامةِ المريدين لأبي وبين الملكِ، ظنًّا منهم أنه قد يخالُ على الناسِ الأمرُ أن مَن قتل أمي هو الملكُ وجنودُه، لكن الملكَ وجنودَه كانوا واقفين وقد عزموا على العودةِ بدونِ هدمِ القبرِ، وهنا بالفعلِ اندلعَتْ الفتنةُ وثار العامةُ لقتلِ الملكِ وحصارِه في جنوبِ غربِ المدينةِ؛ حيث يرقدُ أبي في مقبرةٍ خاصةٍ كان قد بناها قبلَ موتِه، حملني الحكيمُ وأنا طفلةٌ لأتلقَّى إسعافاتٍ أوليَّةٍ بعد الجراحِ الرهيبةِ التي كانت في جميع أنحاء جسدي مِن نفادِ السهامِ في حين كنت أدافعُ عن قبرِ أبي، وبعدَ إفاقتي بلحظاتٍ كان الملكُ في غرفةِ الإنقاذِ مختبئًا خوفًا من طوفانِ غضبِ العامةِ، فخرجْتُ وتحدَّثْتُ إليهم فهدءوا بعدَ أن أخبرتُهم أن الملكَ ليس قاتل أمي، وأن هناك من يختبئ ليصطادَ فريستَه، على اعتقادِه أن كلَّ الذين على مذهب (الحب) كفارٌ، وأنهم ينشرون البغي والفسادَ في الأرضِ، أخذْتُ بعدَها جثمانَ أمي ورُفات أبي وانطلقْتُ إلى الصحراءِ لأنجوَ بهما وبنفسي بعدَ أن بدأَ أتباع الحُبِّ يسقطون شهداءً واحدًا تلو الآخرِ، وما أبقى المتشددون منهم مِن أحدٍ، وكنا نستيقظ كل صباحٍ على مقبرةٍ جماعيةٍ لجثثٍ مجهولةِ الهويَّةِ قد أُحْرِقَتْ.

أشار بائعُ العطورِ لها وهو يمسكُ كالعادةِ يديها ويضعها على عينيها:

- متى أصابكِ العمى؟

- أصابني يومَ جاءَ الملكُ زاحفًا بالجيشِ ليتخلَّصَ مِن قبرِ أبي، وكانت الجنودُ تحملُ شجرةً، فوقفْتُ أمامَهم للدفاعِ عن القبرِ فجاءت ضربةٌ في رأسي، وبدأ النور يخبو من عينيَّ تدريجيًّا حتى بدأَ الظلامُ بعدَ أن هاجرْتُ إلى الصحراءِ ببعضِ يومٍ.

احتضنها بائعُ العطورِ وبدأَ الهلعُ يدبُّ في صدرِه، فأمسكَ يدَها وهو يرتعدُ خوفًا عليها، فأشارت له تحت ضوءِ القمرِ، وكان الليلُ قد قاربَ على الانتصافِ، وحاول رويدًا رويدًا أن يتماسَك فأشارت له تداعبُه:

- الموقفُ لا يحتملُ مزيدًا من الحماقاتِ، وعليك بالارتجافِ إن كان الأمرُ يستحقُّ الخوفَ، هيَّا ناولني حضنكَ عميقًا جدًّا، واتركْني اتحسَّسُ شفتيكَ بأناملي، فإني لا أعلم بعدَ الليلةِ كم سيكونُ حجمُهما في القُبَلِ.

هو لم يفهمْ من الألغاز التي قيلت سوى أنها دعتْه الآنَ إلى العِناقِ العميقِ، فكأنه قال لنفسِه سأتناولُ الحضنَ ثمَّ أفهمُ، لكنه احتفظَ بالإشاراتِ وحركة الشفتين في ذاكرتِه البعيدةَ، وانطلقا ثم توقَّفَ في الطريقِ ودار حوارٌ بالإشارةِ بينهما والكتابة:

- حقي أن أفهمَ ما يجري واطمئني؛ إني لأظنُّ أنني لو فهمْتُ أنك ستأخذينني معكِ إلى قبرٍ سآوي إليه.

- نحن سنذهب إلى صديقةٍ لأمي هنا في الجنوبِ، وأعتقدُ أنها ستتدبِّرُ الأمرَ كلَّه، فقد كانت أمي تقولُ لي عنها: «هذه أمك من بعدِ أمك».

فأمسكَ بيدِيها وأشار في غضبٍ منها معجونٍ بالخوفِ عليها:

- بعدَ عشرين عامًا ستذكرُكِ هذه المرأةُ يا ريسال؟!

ضحكت ريسال وأشارت له:

- وإني لأظن أنها ما تزال تذكرُني، فأنا ريسال ابنةَ سيدِ الآسرين، وبنت لامار ابنة إياد زوجِ إيلين ابنةَ القصرِ والملوكِ، وآسر أبي هو مؤسسُ علمِ الهوى وصاحبِ رواية أسرار التنهيدةِ الأولى التي بلغَتْ ما لم يبلغُه النسيمُ في صدورِ الخلائقِ.

وكأن أصابه الرعبُ وكأنه يسمع الخبرَ الفاجعةَ لأول مرةٍ، فأشار بذراعها الذي كاد أن ينخلع في يديه:

- يالَلهولِ! أنتِ ريسال، من بين بناتِ هذا العالمِ كلِّه يكونُ حظِّي هو عشقُ امرأةٍ بحجمِ خطرِك.

.. داعبتْه وهي تنظرُ إلى القمرِ لتمتص غضبه المزعوم:

- هناك قمرٌ في السماءِ وأنا هنا، ولم يخلقْ الله سوى قمرين في مدارات هذه الأرضِ، فاحمدْ اللهَ أن أحدَ القمرين معك.

.. لم تستطعْ أن تسيطرَ بدعاباتِها على خوفِه، فمضى يحدِّثُ نفسَه كالمجانين بلغةِ الإشارةِ وببعض التهتهة ويردِّدُ ما كانت تقولُ:

- بعدَ ظهورِ الأعراضِ الجانبيةِ للطهارةِ على ضمائرِ الأنجاسِ قرروا هدمَ قبرِ أبي حتى يرتاحَ الملكُ السَّفَّاحُ آنذاكَ مِن اعتناقِ الشعبِ للحبِّ، لاسيما بعد وقوعِ ابنتِه وابنِه في عشقٍ لشابٍ وفتاةٍ من عامةِ الشعبِ، وبالطبعِ وقفْتُ رغم أنني كنت طفلةً في وجْهِ الملكِ أنا وأمي لامار حتى لا يهدمَ القبرَ وجنودُه، لكن الموقفَ تصعَّدَ ورمى المتشددون أمي بالموتِ مِن بعيدٍ، فسقطَتْ شهيدةً حتى يوقعوا بين أنصارِ الحبِّ والقصرِ، لكنني احتويتُ الموقفَ وحدَّثتُ الغاضبين المحاصِرين للملكِ وأمرتَهم أن يطيعوا الملكَ بعد أن وعدني أن يحكمَ بالعدلِ، حتى لا تقعَ البلادُ في مصيدةِ الفوضَى.

أمسكَتْ بيدِيه حين سمعت بعض مقاطع التهتهة وهو يحدِّثُ نفسَه واستلمَتْ منه زمامَ الحديثِ وأكملت الإشارةَ في وجهه:

- وبدأَ النورُ مِن الحزنِ على أبي وأمي يخبو تدريجيًّا مِن عينيَّ، ثم أعطاني الملكُ استجابةً لرغبتي يومئذٍ عربةً تجرُّها الخيولُ، وعليها تابوتٌ يحملُ رُفاتَ أبي وجثمانَ أمي في غفلةٍ مِن الدنيا، حتى لا يعرفُ قبرَهما الناسُ ويتَّخذونهما آلهةً مِن دون الرحمن، فانطلقْتُ في

الصَّحاري يومئذٍ، وكانت عيناي لا تريان إلا قليلًا جدًّا، حتى إذا صادفتُ نخلًا وأشجارًا تينٍ علمتُ أنَّ هذا مستقرٌ لي، فنزلتُ ووجدتُ حفرةً مجهزةً للدفنِ، وكأن أبي كان قد أعدها لهما مِن قبل الموتِ، وبعد هبوطي في المكانِ في أقلِّ مِن ساعةٍ ما استطعتُ أن أقولَ: «كأن أبي أعدَّ المكانَ لي» لكنني قلتُ: «إن أبي هو من قد أعدَّ الحياةَ هنا». كيف يمكنُ أن يخرجَ تينٌ ونخيلٌ وزيتونٌ ورمَّانٌ من الأرضِ مِن تلقاءِ نفسِه، وكيف يمكنُ أن أجدَ ملابسَ بمقاساتي لكلِّ عامٍ في خزانة مُرَتَّبةً، وعلى فرضِ حدوثِ ذلك صدفةً مِن أحدِ العابرين، فما الذي يفسِّرُ وجودَ ملابسَ بمقاساتِكَ أيضًا، وما الذي يفسِّرُ مجيئك من طريقِ الهلاكِ هذا أيضًا ولماذا أبكم؟!

.. فسألها متعجبًا:

- هل كان أبوكِ يعلمُ الغيبَ ويرتِّبُ المستقبلَ؟!

.. فأجابت على ما كتب:

- إذا هاجمَتْك قطعانٌ من الذئابِ يا بائعَ العطورِ وأنتَ وحدكَ في الصحاري فماذا تتوقَّعُ؟

- أن أكون وجبةَ عشاءٍ للسادةِ الذئابِ.

- كيف تقولُ هذا، أأنت تعلمُ الغيبَ؟!

- لا بل تحصيلُ حاصلٍ.

- لقد كان أبي كذلك يا بائعَ العطورِ، وقد كان يتأمَّلُ أكثر مما يتنفَّس، ولهذا كان صافي الروحِ، على إدراكٍ بخريطةِ الزمنِ، يلتقطُ صورةً كاملةً للكرةِ الأرضيةِ قبلَ أن يجيبَ إذا سُئل عن مسرحِ جريمةٍ فيها، واليومَ يلتقطون صورةً للمسرحِ إذا سُئلوا عن الكرةِ الأرضيةِ، فصار الناسُ يصدرون أحكامًا عن شيءٍ لا يعلمون عنه شيئًا يا أبكم.

.. فكتب لها ضاحكًا:

- قد يكونُ هذا حرصًا مِن أبيك حتى يضمنَ ألا أبوحَ بأسرارِكِ، ياللهولِ يا ريسال إن هذه المرأةَ التي روادَتني عن جسدِها وصفَتْ لي هذا الطريقَ الذي أخذني إليكِ لأسلكه إلى مدينتِها ولا أخفي عليكِ أنَّني تعجَّبْتُ مِن أن امرأةً بحجمِ أنوثتِها تراودُ رجلًا غيرَ وسيمٍ مثلي فجأةً عن جسدِها.

- لستَ وسيمًا؟! عليك أن تحمدَ الله على أنني لا أرى يا بائعَ العطورِ، هل تذكرُ العنوانَ الذي ستذهبُ إليه لتلقى عاهرتَك؟

- لا لقد أخبرتني أنها ستنتظرُني في أحراشِ مدينتِها (الرايات الحمر) في منتصفِ ليلِ اليومِ الذي سقطتُ وراءَكِ فيه في البئرِ.

- وهل امرأةٌ بهذه الأنوثةِ ستقطعُ الطريقَ في الصحاري إليك لتشتري عطرًا يا مفعم الذكاء؟! ألم تسألها عن اسمِها؟

- لم تخبرني بأي اسم سوى اسمِ أمِّها.

- ياللحماقةِ، وما اسمُ أمِّها؟

- فرات.

- فراااات؟!! صديقةُ أمي التي كنت سأصطحبُك إليها الآن فقد سكنَت في الجنوبِ بعدَ مقتلِ أمي بعدَ أن افتعلَتْ أنها عدوةٌ لأمي حتى تستطيعَ العيشِ هنا.

- لابدَّ أن أبي كان قد أوصاها بأن تبحثَ في المدينةِ عن شابٍّ أبكم، عن طريقِ إحدى بناتِها الجميلاتِ، وبالطبعِ أنت لم تتعرف شكلهَا فهي من الجنوبِ وأنت كنت زيرَ نساء الشمالِ، أجل، وأبكم؛ حتى لا تبوحَ بأسراري يا بائعَ الورد لو أرغموكَ على البوحِ أو عذَّبوك.

.. فأشار برجولةٍ:

- ولو أني لا أعلمُ ما قدرةُ هؤلاءِ القومِ على العذابِ إلى الآن لكنهم لن يجبروني على البوحِ، ولو كنتُ أستطيعُ الكلامَ.

- ما اسمُكَ يا بائعَ العطورِ؟

- اسمي مالك، وأسكنُ في الشَّمالِ ولا علاقةَ لي بالسياسةِ وما يحدثُ فيها.

- نعم!، الخمرُ والنساءُ فقط، لكن ما قصةُ الخرسِ الذي ألمَّ بحنجرتِكَ يا مالك الروحِ؟

- لقد كنتُ طفلًا واقتحمَ المتشدِّدون المنزلَ في منتصفِ ليلِ شمالِ مدينةِ روماف، وذبحوا أبي وأمي وجميع إخوتي إلا أنا؛ اختبأتُ تحتَ الفراش أراقبُ في هلعٍ تلك المجزرةَ، ثم خرجوا وأنا أراهم يهتفون بينما اكتشفْتُ أنني لم أعُدْ أسمع ولا أتكلَّم.

- والذين قتلوا عثمان يا مالك قالوا الله أكبر وهو من المبشرين بالجنةِ.

- بعد هذا التاريخِ طالت الاغتيالاتُ ثلاثةَ أرباعِ سكانِ المدينةِ فانفصلَ المتشددون بالنصفِ الجنوبي، وحكمَتْ الأسرةُ المالكةُ النصفَ الآخرَ في الشمالِ بعد أن قُتِل - كما تعلمين - الحكيمُ وكلُّ تلامذتِه وكلُّ مَن له علاقةٌ به وكلُّ مَن يمسكونه متلبِّسًا بروايةِ «أسرار التنهيدةِ الأولى».

- لهذا السبب كان أبي قد رتَّبَ لي أمرَ الصحاري البعيدةِ، أعتقدُ أنه يجبُ علينا أن نفرَّ من هنا هاربين، وهذا هو الاختيارُ مما بين القوسين الذي كان دائمًا يلهمُ به الناس، وهو أنه إذا فُرِضَ عليكم الموتَ أو ما يشبه الموتَ فاختاروا ما يشبه الموتَ وتعلَّقوا بالحياةِ في أيِّ مكانٍ بعيدٍ، واجبروا الأحزانَ على الفرارِ من السنينِ لتخطفوا الضحكَ مِن بين أنيابِ اليأسِ، لقد كان أبي رجلًا عظيمًا يا مالك، حين قالت له أمي يومًا ما ذا موتٍ: «إذا كنت عاجزة تمامًا عن وضع خط تحت الإجابة الصحيحة وكان عدمُ الاختيارِ موتًا، بينما الموتُ أمامي أحد خِيارَين، هل تفعلُ الآخرَ لإنقاذي مهما كلَّفَكَ مِن الألمِ؟! وال...

.. وقبلَ أن تنتهي ريسال من جملتِها حتى لمح مالك على مدِّ البصرِ في ضبابِ الظلامِ أشباحًا لبعضٍ مِن حرسِ حدودِ الجنوبِ الملتحين، يشهرون سيوفَهم باتِّجاهِهما فأخبرَ ريسال فطلبت منه أن يأخذها ليختبئا؛ فأخذها مسرعًا مِن يدِها ودخلَا تحت لوحٍ عريضٍ مِن الخشبِ زحفًا، فلمَّا احتضنَها أشارت إلى أنفِها، ففهم أنهم جاءوا بعدَ أن شمُّوا رائحةَ عطرِه المركَّزِ، فهو يعتقدُ أن هؤلاءِ لا يستعملون إلا عطرَ المسكِ ويحرِّمون باقي العطورِ المثيرةِ التي تحتوي على الكحول الفواح.

.. تذكَّرَ مالك مشهدَ ذبحِ عائلتِه كأنه الآنَ؛ فقرَّرَ الخروجَ للقتالِ لاسيما بعدَ أن استدار الثلاثةُ الذين يبحثون عنهما وأعطوا ظهورَهم له بعدَ أن تأكَّدوا أنه لا أثرَ لغرباء، وأن العطرَ ربَّما أتت به الريحُ من مكان بعيدٍ.

تحرَّكَ مالك زاحفًا فأمسكَتْ به ريسال وسألته في سكونٍ شديدٍ، فأجابها بإشارةٍ إلى رقبتِه كدليلٍ على أنه سيذبحُ الذين ذبحوا عائلتَه فأشارت له:

- إن الذين يعفون يكونون أقربَ مِن باقي البشرِ إلى السماءِ، وأن الذين يأخذون بالثأرِ يبقون كباقي البشرِ، فماذا تختارُ؟

.. طالَ جلوسُ الحرَّاسِ وغَفَتْ ريسال في حضنِ مالك، وقد فاضَتْ دموعُه على إثر ذوبانِ الشيءِ الذي كان قد أبكمه قديمًا ليلةَ قُتِلَتْ عائلتُه، فأحسَّ بأفراحِ الثلجِ تجري في عروقِه المحترقةِ فنطقَ والحروف تذوب على لسانه:

- ري س ا ل، ري سال،!، ل قد ت كلَّمْ تُ يا ري سال...

.. لم تسمعْ ريسال الذاهبةُ في نومٍ عميقٍ من مشقَّة الرحلة شيئًا بينما سمع الثلاثةُ الذين كانوا جالسين صوتَ مالك الذي بدأ يعود إليه متقطِّعًا، فانقضُّوا يحملون اللوحَ الخشبيَّ الذي كانا يختبئان تحته، وكبَّلوا مالك، وقد كان ما يزالُ وسطَ فرحةٍ عارمةٍ، فانتبهت ريسال من نومها فزعةً بعدما جرُّوها جرًّا في منتصفِ صَمْتِ الطريق البعيدِ عن البيوتِ.

.. زاغت المهرةُ المشاغبةُ في عيون الثلاثةِ الذين مسّهم التفاح المتدَّلي من العود، الفارهةُ فاكهته، فاقترحَ أحدُهم قتلَ الشاب والتناوب على الحَوراء، حتى إذا طلع الفجرُ دفنوها وهذه عقوبةُ الزاني والزانيةِ، فقالت ريسال لمَّا شمَّتْ رائحة لعابِهم:

- لسنا متزوجَين بالفعلِ حقًّا ولسنا زناةً، وإنما كنا قد أتينا هنا للزواجِ وكنا نبحثُ عن مأذونٍ.

.. سادَت بضعةُ أنفاسٍ والشبابُ ينظرون إلى بعضِهم البعض وتتساءلُ عيونُهم ماذا سيفعلون بهذا الصيدِ الثمينِ؟ وزأرَ الأسدُ الأبكم في أعماقِه لاحتمالِ اعتداءاتٍ قد تحدثُ، بينما وضعَتْ العاشقةُ يدَها على صدرِ بائعِ العطرِ ودفعتْه إلى الوراءِ وقالت وقد بدأتْ تحصي مِن أنفاسِ اللاهثين عليها العددَ التي باتت تعتقدُ أنهم ثلاثة على أقلِّ تقديرٍ وقالت لهم:

- لكم الحقُّ في أن تعتقدوا أننا نفعلُ الحرامَ، إنما فكّروا ما الذي يدعونا إلى الحرامِ في الجنوبِ هنا حيث البيوت، إن كنا قد أتينا معًا مِن قلبِ الصحاري التي لا إنسَ فيها ولا جان؟

.. ضحكَ أحدُهم:

- لا يهمُّنا الآنَ إثباتُ برائتكِ مِن التُّهَمِ المنسوبةِ إليك، فمهما بُرِّئتْ ساحتُكِ فهذه الساحةُ ستشهدُ تناوبًا عليك؛ استسلمي بهدوءٍ لنستمتعَ في جماعةٍ بال...

.. داهمها الغيظُ المعجونِ بالقلقِ مما سمعتْ من ألفاظِ إباحيةٍ صريحةٍ، فعاد ذلك الحارسُ يقولُ:

- في الحبِّ ليس هناك لفظٌ قد يُحرَّمُ أو يقالُ بأن لفظًا في الهوى مثلًا مجيد، في الحبِّ ليس يسيءُ شخصٌ أو ابتدى مثلًا يجيد، كيف الترابُ بكعبِ رِجْلِكِ كالجواهرِ والجواهرُ كالترابِ بأيِّ جِيد.

.. واقترب أحدُهم منها ووضع يدَه على صدرِها، وكأنّ دماغَه قد تبخَّرتْ من لهيب فوران جسدِها؛ ولمَّا حدَّدَت موضع أنفاسِه بصقَتْ في وجهِه، فمسحَ بصقتَها وهو يلعقُها بعد أن تناولَها من وجهِه بأصابعِه وهو يقولُ:

- في الحبِّ بصقةُ مَن عشِقْنا إذا قُتِلْنا تجعلُ المقتولَ حَي، ولو اكتوينا بمن نحبُّ يكون ثلجٌ والثلوجُ من الغريبِ ولو بعيدًا تكوي كَي.

.. كادو أن يسقطوا من الضحكِ في وصْلَةٍ مِن التهكُّمِ، لاسيما وأنهم لاحظوا تهتهةَ مالك كما لاحظوا أيضًا غرابةَ نظراتِ ريسال فاعتقدوا أنها بلهاء، وقد اصطادَها هذا الأبكم الذي ينطق حروفًا كطفلٍ وليدٍ، واقترحَ الثاني عليهم أن يُقتلُ الشابُ بينما يتزوجُها هو فاعترضَ زميلاه، فاقترحَ الأخيرُ أن يُقتلَ الشابُ ثم يأخذُها كلُّ واحدٍ منهم ليلةً كاملةً على أن يبدأ هو، فاعترضَ زميلاه قبلَ أن يكملَ الاقتراحَ فتعاركوا حتى استيقظَ على صوتِ عراكِهما النائمون، فلمَّا بدأ الناسُ بالازدحامِ قال الحرَّاسُ:

- لقد أمسكنا بهما بينما كانا يرتكبان الفاحشةَ على هذه الأرض الطاهرة!

-5-

اقتاد الجنودُ المحرومون من الحب والجمال مالك وفَرَسَتَه وعيونُهم تصولُ وتجولُ في جسدِ الأنثى الفارهةِ التي أفلَتها القدرُ من بينِ أنيابِهم، الأمرُ الذي جعل أحدُهم يقتربُ منها ويهمسُ فيها بما يفيدُ أنه سينفردُ بها إذا واتته الفرصةُ في السجنِ، وبأن حبيبها الأحمقُ سوف يرحل وقال الحارسُ لها تحت أذنيها:

- تلك الغوايةُ تستحلُّ القتلَ جهرًا بالنهار، وترسلُ العقلَ اللعينَ من الدماغِ إلى منفاه، فبِأحمرِ الشفتين تحفرُ في الصِّمامِ إذا تمُرْ، ماذا سيحدثُ للدماغِ إذا تلامسَتْ الشِّفاه.

.. فنهرته وكادت أن تفضحه قائلةً:

- لن أسمعَ شيئًا مهما تصدحْ بِالأشعارِ ستبقى وإنْ ثرثرْتَ على آذاني أخرسا، وسكوتُ حبيبي أحلى غناءٍ في أعماقي يرسو، وأنت أمام موانئ عيني ألف سكوتٍ مهما غناؤك قد رَسا.

فاضطُرَّ الحارسُ إلى افتعالِ أنه كان يكبِّلُها حتى لا تستطيع الفرار ثم مضوا، وإلى القاضي الذي احتجزهما عنده ليرى ما في الأمرِ، حاولَ أن يحدِّثَ ريسال فلم ترد بعدَ أن أذهلها ازدحامُ الجهلاءِ في الخارجِ؛ فأبقاها وحدَها محتجزةً في غرفةٍ لديه، وأخرج مالك ليسألَه وسطَ غضبِ الناسِ، وعندما اتَّضحَ للقاضي أنه أبكم استدعى له بعضُ مترجمي لغةِ الصمِّ والبكمِ، فأشار لهم مالك بالعبارةِ التي كانت قد حفَّظَتْها له ريسال حين سألها كيف يقولُ: «أحبكِ وأريد الزواجَ منكِ». فأشار لهم بإشارةِ هذه العبارةِ فسقطَ المترجمون على الأرضِ من الضحكِ، وقالوا للقاضي إن هذا المعتوه يقولُ: «أريدُ أن أفعلَها على نفسي في السروالِ»، وما كان يعلمُ مالك أن ريسال كانت تمزحُ معه في ذلك اليومِ، فأدخلَه القاضي في غرفةٍ منفصلةٍ حتى الصباحِ تأمينًا له من الوقوعِ في أيادي الغاضبين.

.. لم يلاحظ أحدٌ عمى ريسال ربما لأن الجنود كان يسحبوها سحبًا في سرعةٍ إلى بيت القاضي.

.. وضع القاضي دماغَه على كفَّيه في الدقائق الأخيرةِ من الليلِ وسط انسحابِ روحِه منه على خلفيةِ اختطافِه بعد رؤيةِ ملامحِها وجهًا لوجْهٍ؛ فتسلَّل خفيةً على حين نومِ زوجتِه العجوزِ ونظر من فتحات خشبِ البابِ إلى ريسال، فإذا بها تمشي ذهابًا وعودةً في مساحةِ الغرفةِ المظلمةِ إلا قليلًا فتدافعَت ضرباتُ قلبه فقال وهو ما يزالُ راكعًا يحدِّقُ:

- خطرُ التَّجسُّسِ في الصدور على المشاعرِ قد تفاقَم، والقلبُ يتَّهمُ الملامحَ بالتورُّطِ في العِمالة، وإذا الملامحُ تستجيرُ من اندفاعِ الحبِّ فيها، القلبُ يشربُ في خمورٍ مَن هوى حتى الثُّمالة.

.. ربما ظنَّ للحظةٍ أنها أمام سطوةِ سلطاتِه ستسلِّمُ جسدَها سهلًا لاحتمالِ عقد اتفاقٍ، ولا سيما أن موقفَها بالنسبةِ للقضيةِ في مأزقٍ مرعبٍ قد يصل حجمُ خطرِه إلى حبلِ المشنقةِ، فتح البابَ ودخل على ريسال وهو لا يدري كيف سيلمسُ جسدَها الذي يشبه دوَّامة خمرٍ في محيطٍ سحيقٍ، وبينما هي تذهبُ عادت فجأةً فارتطمَت يدَها بصلْعَةِ رأسِه، فصرخَتْ في الوقت الذي كانت فيه زوجته تراقب منذ دقائق حركة ركوعِه أمام البابِ فقالت له:

- ماذا تفعل مع المتَّهمةِ يا قاضي الجنوبِ في هذا الوقتِ من الليلِ تاركًا زوجتَك وحدَها؟!

- كنت أستجوبُها فقط وانتهى الأمر هيا بنا يا حبيبتي.

.. استيقظَتْ المدينةُ كلُّها لتجلدَ الزانيةَ والزاني ووصلَ خبرُ ذلك الزاني المعتوه إلى أسماعِ الحاكمِ، فقرّرَ أن يحضرَ مع من سيحضرون في الصباحِ محاكمة هذا الأبْلَه بعد إلحاحٍ شديدٍ من أحدثِ زوجاتِه، وبات الرجالُ في الطرقات يتحدَّثون واجتمعَتْ النسوةُ في الصباحِ، وقد كبرَ الخبرُ حتى وصلَ من فمٍ لفمٍ كعادة الناسِ الذين يجعلون من القطةِ جَملًا، إلى أن بلغ الأمرُ بمروجي الشائعات أنه كان كهفًا سريًّا للدعارةِ في الصحاري، صمتت الحشودُ الغاضبةُ

لدين اللهِ ووقفَ الجلَّادُ غير بعيدٍ، والناسُ كلٌّ واحدٍ منهم قد أتى بكيسٍ من الحجارةِ للرجمِ، وبدأ القاضي التحقيقَ في تمامِ الساعةِ الواحدةِ بعدَ منتصفِ نهارِ جنوبِ مدينةِ روماف باستدعاءِ الشهودِ، فجاء الحراسُ متراصِّين أمامَ القاضي في أدبٍ رسميٍّ ووجاهةٍ وهَيبةٍ بعد أن أقسموا على الصدقِ:

- ما قولُكم في الرجلِ الأبكم هذا وهذه المرأةِ؟

.. أجابَ أحدُ الحراسِ سؤالَ القاضي قائلًا:

- رأيناهما في وضعِ الزنا متلبِّسَين يا سيدي والعياذُ بالله ولا حول ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ

- هل تعترفين يا امرأةً بهذا؟

- لا يا سيدي القاضي وإن هؤلاءِ لكاذبون.

- ما دليلُكِ يا امرأة؟!

- بل ما دليلُكَ أنتَ يا سيدي؟

- القاضي هو من يقدِّمُ الدليلَ يا امرأة؟!

- هؤلاء ثلاثةٌ وأنت تحفظُ أنه لابدَّ أن تكون أعدادُ الشهودِ العدولِ أربعةً!

- هؤلاءِ أربعةٌ يا امرأة أأنتِ كفيفة؟!

- نعم أنا كفيفة لكنك لستَ من المبصرين؛ هؤلاءِ مِن أين أتوا بالرابعِ غير أنهم يريدون أن يبرِّئوا أنفسَهم مما كانوا يشتهون بالانتهاء مني سريعًا!

.. جاءت أصواتُ الحشودِ:

- كاذبة، زانية، اجلدوهما حتى يكونا عبرةً لهؤلاءِ الفُسَّاقِ الذين يعيثون في الأرض فسادًا في الشَّمالِ.

.. أشار لهم القاضي فصمتوا فجأةً ثم استأنفَ:

- وماذا كانوا يشتهون منكِ يا امرأة؟

- ماذا يشتهي الرجالُ المحرُومون من امرأةٍ بحجمي يا سيدَ العاقلين؟!

- أظنَّكِ تتهكَّمين مني!

- عفوًا يا سيدي إنما أراكَ تراني مدانةً وما أنا إلا من المتهمين.

- بل أراكِ مجرمةً وهؤلاءِ أربعةٌ من حرسِ حدودِ الجنوبِ، وما الحرسُ لدينا إلا من المختارين.

- دعني يا سيدي أكشفُ لك الشاهدَ الرابعَ الذي لم يكن معهم ولفَّقوه.

- تفضَّلي.

.. استدعى القاضى الحراسَ الأربعةَ أمامها فسألتهم بالترتيبِ عن أسمائهم فلمَّا أجابوا اختارت الشاهدَ المزوَّرَ وقالت هو فقال أحدُ الثلاثةِ الآخرين:

- ما هذه بكفيفة وإني لعلى يقينٍ أنها من الكاذبين.

.. فقالت ريسال:

- ما كان لك أن تعرف باليقينِ أنني من الكاذبين وتدَّعي أنني لستُ بكفيفة لولا أنك تعرفُ أنه ما كان معكم.

- وكيف عرفتِ أنتِ وأنتِ كفيفة.

- ما كان هذا الصوتُ الجبانُ معكم عندما سمعتُ أصواتَكم هناك.

.. بدأ القاضي يرتابُ في أمرِ الشاهدِ الرابعِ فسأله:

- ما دليلُكَ أنك كنتَ هناكَ يا بني؟

.. فانتفضَتْ ريسال توبِّخُ القاضي:

- تقولُ له يا بنيَّ ولا تقولُ لي يا ابنتي وإنَّكَ لتظنُّ أنه كاذبٌ، وما أنا لديك من المجرمين.

.. عَلا صوتُ الحشودِ:

- إنها تتبجَّحُ في كبارِ المؤمنين.

- نحن في محكمةٍ وما أنا بمتبجِّحةٍ وما هؤلاء بآلهةٍ يا قطعانَ العبيدِ.

.. أوقفَ القاضي مهزلةَ الحشودِ بتحذيرٍ لكنه ما أوقفَ ميلَ قلبِه إلى الجنودِ ربَّما خوفًا من شيء ما، وربَّما ليس لديه ما يكفي لكنه استأنف يسألُ الرابعَ:

- ما دليلُكَ أنك كنت هناكَ؟

.. أجابَ الشاهدُ بما حفَّظوه له زورًا مِن وقائعٍ حقيقيةٍ حدثَتْ في المشهدِ، في الوقتِ الذي لم يتجرَّأ أحدٌ على الشهادةِ من الذين وصلوا أول الناسِ لحظةَ وقوعِ الحادثةِ ليلًا، فلم يجد القاضي بُدًّا من الحكم عليهما بالرجمِ حتى الموتِ فانتفضَتْ تقولُ:

- لست متزوجةً ولا هو، والحكمُ هو أن تقيموا شرعَكم بالجَلْدِ ثم تطلقوا سراحَنا لنقيمَ شرعَ اللهِ بالزواجِ.

.. قال القاضي:

- من يثبِتْ منكما أنه ليس متزوجًا سنجلدُه وهذا هو الحكمُ النهائي.

.. فسألته ريسال:

- هؤلاء الثلاثةُ أرادوا أن يقتلوا مالك ولولا اختلافُهم حول من سيبدأُ باغتصابي لقتلوه، والآنَ أنت استجوبت الأنثى وما أشرْتَ إليه وما سألتَه سؤالًا، أأنتم هنا لا تتحدَّثون إلا إلى النساءَ.

ثم مثلًا ماذا إذا اخبرتَك أنه لا شعر بدماغِك وأنك أصلع الرأسِ هل ستسألُني ما الدليلُ؟!

.. غضبَ القاضي وقام بالتشويش على ما ترمي إليه وهو رابطُ الجأشِ عظيم المهابةِ، وأمر بربطِهما في شجرتين منفصلتين حتى العصرَ ليشهدَ رجمَهما طائفةٌ مِن المؤمنين، فنادت ترجوه قائلةً:

- هذا الرجلُ اسمه مالك من الشمالِ وتحرَّوا عنه، ستعرفون أنه لم يتزوجْ اجلدوه واتركوه يذهب وإنه لَأبكم؛ لا يسمع ما حكمتم عليه به ليدافعَ عن نفسِه.

.. فقام غيرُ واحدٍ من الحشودِ يؤكِّدُ كلامَها للقاضي ويحكي أنه بائعُ عطورٍ يسكنُ بالفعلِ في الشمالِ، وأنه أصم فأمر القاضي بالرجوعِ مِن الرجمِ إلى الجلدِ وسألها:

- من تكونين أنتِ لتنقذي حياتَكِ من الموتِ؟

.. إن اعترفَتْ سيحرقوا مالك ويذبحوها ويعلِّقوا رقبتيهما على بابِ الحدودِ الواقعةِ بين الشمالِ والجنوبِ وسيستجوبونها بالتعذيبِ ويهدموا قبرَ أبويها.

.. قرّرتْ السكوتَ ثم من السكوتِ إلى الموتِ إنقاذًا لحبيبِها مالك، فلمَّا جاء العصرُ وبدا المكانُ على مدِّ البصرِ لا تُرى فيه إلا عشراتُ الآلافِ مِن رؤوسِ المؤمنين، الذين جاءوا

غاضبين لدين اللهِ وجلدِ الزاني ورجمِ الزانيةِ أعطى القاضي الإشارةَ بالبدْءِ بِجَلْدِ مالك.

.. وتساءل كثيرون كيف علمت وهي كفيفة بصلعِ القاضي وردَّ آخرون بأن على رأسِ القاضي عمامتُه ولو افترضْنا أنها مبصرةٌ فلن تعرف إن كان أصلعًا أم لا، وتكاثرَتْ سحبُ علامات الاستفهام وهطلَتْ الإجاباتُ.

.. ولمّا كان المشهدُ مشوِّقًا فقد حضرَ حاكمُ المدينةِ وجمعٌ مِن كبارِ رجالِ الدينِ وكثيرون، وحانت لحظاتُ العذابِ وأحضرَ الحرَّاسُ مالك وريسال وبدأتْ مراسمُ التطهيرَ في ساحةٍ عاليةٍ ليشهدَ عذابَهما كلُّ مَن سوَّلَتْ له نفسُه أن يفكرَ في ارتكابِ الفاحشةِ.

.. كان كبار المجاهدين في الجنوب وعلى رأسِهم الحاكم قد كتبوا دستورًا من كتبِ اللهِ ومن أهم قوانينه أن تكون كل المحاكمات علنيةً، ولا توجد سلطة تملك حظرَ النشر والإعلان مهما كانت خطورة الموقف؛ إذ كانوا يرون في ذلك تضليلًا للناسِ وإخفاءً للحقائق وأن يقطعوا الطريق على كل من يريد أن يضربَ حُكْمًا في الظلامِ تحت زعمِ الخطر على الأمن القومي، وذلك على خلفية ما لاقوه من ظلمٍ برأيهم أنهم تعرضوا له على يد ملوك الشمال.

وكلُّ من كان يرى ريسال رجلٌ كان أو امرأةٌ يقفُ مذهولَ الروحِ على هذا الجمالِ المَهيبِ، وهذا السحرِ العميقِ، وتلك الجاذبيةِ الغامضةِ مِن شعرِ الرأسِ الليلي الحالكِ المنسدلِ على طولِ امتدادِ عودِها الفارِهِ إلى أظافرِ قدميها المطليَّةِ بالثباتِ، إلى حدِّ الفزعِ جمالُها كان غريبًا.

لا تعرفُ وسطَ هذا البغضِ العنيفِ للعاشقين ما السرُّ الحقيقيُّ الذي دفعَ هؤلاء جميعًا للغضبِ، ذلك أن الغضبَ للهِ يحملُ روحًا مختلفةً، أمَّا هذا فيعكسُ كراهيةَ الناسِ لرؤيةِ العاشقين، وكأن كلَّ واحدٍ من هؤلاءِ كان قد مرَّ بقصَّةِ حبٍّ خانتْه فيها حبيبتُه وجاءَ اليومَ لينتقمَ.

وبدأتْ الهلاوسُ تحومُ حولَ عقل الحاكمِ في تأثيرِ ريسال على مفاصلِ حروفِه وأعصابِ الجُملِ وخُيِّلَ إليه حديثٌ حسبَه مسًّا جاء تحت أذنيه يقولُ:

- الله يومَ خلقَ العالمين أمرني أن أحبَّك، فلا تسأليني لماذا منذ سنين لم نلتقِ، فإنَّ حبَّنا جدًّا قديم.

نظر القاضي إلى الحاكمِ الذي ما يزالُ في كامل مهابتِه لعلَّه يجدُ في عينيه تعليقًا؛ فأومأَ الحاكمُ بنصفِ عينٍ تجاه مالك، وفي ذلك أمرٌ لأنْ يُبْدأَ العقابُ بمالك ثم الفتاة.

بدأ القاضي بتلاوةِ آياتٍ مِن كتابِ ربِّ العالمين تناسبُ المشهدَ، ثم أذاعَ أدلَّةَ الثبوتِ، ثم كادت قلوب الحاضرين أن تتوقف انتظارًا للنطقِ بالحكمِ والإشارةِ بالبدءِ في حفلِ التطهيرِ، ثم نطقَ اسمَ مالك كاملًا بعدَ أن عرفَه من بعضِ تحرِّياتٍ حقيقيةٍ عنه في مسقطِ رأسِه في شمالِ المدينةِ، وأخيرًا نطقَ بحكمِ الجلدِ بينما كان مالك يرتعدُ رعبًا من قربِ تنفيذِ حكمِ الرجمِ حتى الموتِ بحقِّ حبيبتِه، كان في الوقتِ نفسِه النورُ يخرجُ مِن وجهِها والاطمئنانُ؛ الأمرَ الذي أدهشَ مالك فتكلَّمَت بالصوتِ وبالإشارةِ له أثناء السكونِ الذي ضربَ الأماكنَ حين سمعَتْ صوتَ قيودِه تمرُّ معه بينما يقتادونه إلى حيث يقفُ الجلادُ:

- لابدَّ أنَّك ما تزال تندهشُ أيها الوغدُ الكبيرُ، كيف عرفْتَ معي مَن هو اللهُ بينما ما تزال خائفًا؟، يا مالك اترك الذين لا يعرفون الله ليخافوا أمَّا أنت فعارٌ عليك.

.. شعرَ حاكمُ المدينةِ بشيءٍ مجهولٍ في نفسِه فقامَ مِن مقامِه فوقفَ الجميعُ تقديسًا واحترامًا لوقفتِه، لكنه أشار للقاضي باستئنافِ الحفلِ الغريبِ، فنادت ريسال على القاضي حينما كانت حشودُ الناس يقولون الله أكبر بصوتٍ يدغدغُ الحجرَ:

- قاتلو عثمان قالوا الله أكبر، وقاتلو عليٍّ قالوا الله أكبر، وما هما إلا من المبشَّرين بالجنةِ، وما أرى الله أكبر إلا في عرقِ الذين يعملون وينتجون، كفُّوا عن مضغِ المفرداتِ الطاهرةِ في لعابِ الجملِ النَّجسةِ يا قطَّاعَ الطرقِ.

.. لم يمر الكلامُ على الحاكمِ مرورًا عاديًّا، وكان قد رفعَ حاجبيه وازدرد لعابه وكأنَّ هذا الكلامَ ليس غريبًا عليه، وهذه الأنثى الغامضةُ وقَعَتْ في نفسِه موقعًا عجيبًا، ثم استأنفَتْ تحرِّضُ الزمنَ على التوقُّفِ وهي تستفزُّ القاضي:

- يا أيها اللسانُ الذي تلا الآياتِ، بِمَن بَدَأَتِ الآيةُ بـ {الزّانيةُ والزّاني} أم بالزاني والزانيةِ.

.. وبالفعلِ اُستُفِزَّ القاضي وأجابَ:

- {الزانيةُ والزاني} يا امرأة.

- ألا يدعوكَ قلبُكَ إلى البدءِ بتنفيذِه على الزانيةِ أوَّلًا.

.. فتقدَّمَ الحاكمُ نحوَها ثم نظرَ إلى القاضي وقال:

- تاللهِ ما هذه المرأةُ ببلهاء وإن حديثَها ليُنبئُ أن وراءها سرًا عظيمًا.

.. ارتجفَتْ أعماقُ ريسال لكن وجهَها ظلَّ مهيبًا وتساءلَتْ:

- مَن الذي يتكلَّمُ يا سيدي القاضي؟

- حضرةُ حاكمِ المدينةِ يا امرأة هو الذي قد تفضَّلَ بالكلامِ.

- ما بقي إلا أن تقولَ إن الكناري قام يغرِّدُ في أجرانِ البُومِ، أو أن القنديل قام يضيءُ عتمةَ الصدورِ، ثم كيف له أن يتكلَّمَ في محكمةٍ لا يُسمَحُ فيها بالحديثِ إلا للقاضي أم أن هذا ربكم الأعلى؟!

.. استلَّ الحاكمُ سيفَه مفتعلًا الغضبَ، وبينما هو يرفعُه قالت ريسال بسخريةٍ:

- ضع سيفَكَ في غمدِكَ والزم مكانَكَ على أشجارِ السوسنِ ياأيها البلبلُ.

.. فنادى الحاكمُ على الناسِ:

- انظروا إنها تراني وعلمتْ أنني أرفعُ في وجهها السيفَ واللهِ إنها لكاذبة.

.. علَتْ الأصواتُ بقتلِها والانتقامِ لدين اللهِ فنادتْ:

- يا أيها الحمقى لقد سمعْتُ صوتَ استلالِ السيفِ مِن الغمدِ، فلا تظنوا أن كلَّ مَن ليس له عين لا يبصرُ، فها أنتم هؤلاء لكم عيونٌ ولكن لا تبصرون!

حتمًا ستبيتُ تتهاوى الأغصانُ ما دام الجذرُ قد أمسى في عِداد الموتى.

.. انهارَ الحاكمُ وانفلتَ زمامُ جنونِه وسألها وهو يحاولُ أن يبدو متماسكًا أمام ذلك الجمالِ الداهية:

- مَن أنتِ يا فتاة؟

.. لم تُجِبْ؛ فتهامسَ الحاكمُ مع القاضي، فأخبرَه أنها لا تريدُ الكلامَ ولا حتى تريدُ أن تكشفَ عن عذريتِها النساءُ، واختارت الموتَ فانتفضَ الحاكمُ:

- ما أظنُّ أنها اختارت الموتَ إلا لنا، وإني ما أزالُ أظنُّ أن في عينيها شيئًا عظيمًا.

.. حاول القاضي تبسيطَ الأمرِ فقالَ:

- أَنطقُ بالحكمِ يا سيدي وننفِّذُ وينتهي أمرُها وأمرُه.

.. اعترض الحاكمُ في ردَّةِ فعلٍ تلقائيةٍ وتساءلَ:

- كيف ستنطقُ بِالحُكمِ وتنفِّذُ ونهربُ مِن إكمالِ مراسمِ التطهيرِ أو ننتظر قليلًا، ولعلَّ أن يكون وراءهما سرٌ كبيرٌ، لقد أوقعْتنا في حرجٍ كبيرٍ.

.. واقترب الحاكمُ من القاضي وهمس فيه أن اتركني أكلِّمُها قليلًا، وعندما أعطيك الإشارةُ نفِّذْ، ثم توجَّه نحو ريسال يسألُها وقد بدأ يمسُّه الجَمالُ:

- مَن أنتِ؟

.. لم تُجِبْ .

- لو لم تنطقي وتعترفي مَن أنتِ سأقطعُ رأسَكِ الآنَ.

.. حدثَ ما كانت تخشاه وهو أن الحاكمَ شمَّ فيها رائحةَ أبيها رغم محاولاتِها أن تتكلَّمَ بغير بلاغةٍ، أو تُظْهِرَ أنها من العارفين، وفجأةً جاءت في رأسِ الحاكمِ فكرةً لاستجوابِ مالك فسأله في حوارٍ مقتضَبٍ:

- أعجبَني دورُ الأبكم الذي تقومُ به وإني على يقينٍ أنَّك تسمعُ تحاورَنا، وأنا أراقُبُ انفعالاتِك حين نطقَ القاضي عليها بالموتِ؛ لم تستطعْ أن تخفي رعبَكَ عليها، وذلك الهلعَ العظيمِ، وذلك الحزنَ المستترَ خلفَ الأحداقِ يا عاشق.

.. وبينما ما يزال يخفي مالك على ريسال بدْء تعافيه من الصمم والبكم لم يسقطْ أيضًا في اختبارت الحاكمِ له، وظلَّ صامدًا وكأنه لا يسمعُ، فهو يريدُ أن يثبتَ لريسال أنه لن يفرِّطَ في السرِّ الكبيرِ عندما ستعلم فيما بعد أنه يتكلَّم وينطقُ مثل الجميعِ، وربَّما هو عاشقٌ من الطبقةِ العليا، وربَّما هو يثقُ فيما تفعلُ ريسال وهما في النهاية بما تفعلُه سينجوان مما هما فيه، وعاد الحاكمُ يسألُه ويدفعُه:

- مَن هذه المرأةُ يا هذا؟

.. لم يُجِبْ مالك سؤالَ الحاكم واعتبر نفسَه لم يسمعْ وأنه ما يزال أصمَّا فعادَ الحاكمُ يسألُه:

- إن لم تتكلَّمْ وتحكي لنا مَن هذه سأقتلُها، فانظرْ ماذا ترى؟

.. ارتبكَ مالك خوفًا عليها وطلب مترجمًا للإشارة، وحاول أن يبوحَ بالإشارةِ بقدرِ المستطاعِ فحكى قصةَ لقائهما حين كان مسافرًا في الصحاري.

.. فقال الحاكمُ لريسال كي يكسبَ مساحةً في قلوبِ العامةِ:

- لقد كان أبواك كافرَين وضدَّ إقامةِ دولةٍ تقومُ على الدينِ يا مالك.

.. فتدخَّلَت ريسال إنقاذًا لمالك وصرخَتْ:

- وهذا واضحٌ يا سيدي الحاكم في المحاكمةِ يقفُ القاضي بعيدًا، وأنت إلهٌ تحاكمني هذه هي السلطةُ الدينية.

.. التفَتَ الحاكمُ وراقَ له ذلك الصراخُ المحسوبُ وقال يفتعلُ الغضبَ ويقترب:

- لأنَّ الأمرَ تعدَّى اعتبارَكم زُناةً وسيعرفُ الناسُ الآنَ أنكم جئتم تتجسَّسون.

.. واقتربَ الحاكم من ريسال جدًّا وطلبَ منها أن تقنعَه كيف تحبُّ كفيفة رجلًا أبكما، فقالت له بثباتٍ:

- لقد أحبَّتْ الكفيفة الأبكم، مثلما أحبَّ الذين بلا عقولٍ رجلًا غبيًّا مثلك.

.. اندهشَ الحاكم من حجمِ استفزازِها له؛ فتناولَ حفنةً من الترابِ ليلقِي بها في عينيها المتفتَحتين، وبينما كفُّه في الطريقِ إلى عينيها كان يراقبُ حركةَ رمشَيها فلم ترمشْ، فأكملَ القذفَ حتى دخلَ في عينيها الترابُ؛ فتراجعَ الحاكمُ ومسحَ ذقنَه بعدَ أن دمَّرَتْ الفتاةُ شبكةَ الأعصابِ الممتدةِ من أصابع القدمِ حتى الدماغِ، وهو لا يدري لماذا لا يترك القاضي ينفِّذُ الحكمَ، هل هي جاسوسةٌ ووراءَها الكثيرُ من الأسرار، هل يخشى أن تُعدَمَ والأدلةُ ليست دامغةً بما يكفي، قرَّرَ أن يعودَ إلى مهابتِه فجأةً تخلُّصًا مِن تأثيرِ التفاف خصرها عليه، ثم نادى في الناسِ بذلك الصوت الجهوريِّ الرخيمِ:

- غدًا سيتم هنا إعدامُ الجاسوسين.

-6-

كانت اللحظاتُ الأخيرةُ للحاكمِ وردودُ أفعالِه مريبةً جدًّا، ولا أحدَ يعرفُ ولا حتى هو نفسُه ما أحدَثَتْه هذه الفتاةُ من تفاعلٍ في كيمياءِ أعماقِه، كيف اجتمعت تُهَمُ الكذبِ مع الجاسوسيةِ مع الزنا في فتاةٍ بهذا الجمالِ المزلزلِ للكرةِ الأرضية في هذا الوجهِ الملائكيِّ النُّوراني الذي يسحبُ العابرين في دوَّامةِ الغيابِ.

ذلك أنَّنا قبلَ الحُبِّ نشبه الموتى وتعودُ للجسدِ الروحُ إذا عشِقْنا، وقد لا تدركُ أنك عاشقٌ وإنما تشعرُ بعودةِ الروحِ وبأنك مستعدٌ للطيرانِ.

.. عمَّتْ الفوضى، وارتفعَت بين الحشودِ بعضُ الأصواتِ التي تطالبُ بإكمالِ المحاكمةِ وإظهارِ الأدلةِ للناسِ حسب لوائحِ الدولةِ الوليدةِ، الأمرُ الذي جعلَ الحاكمَ ينصرفُ قلقًا ليبحثَ عن سيناريو يقنعُ الناسَ بإعدامِهما لينتهي من هذا الكابوسِ، وبينما كان الحرسُ يقتادون مالك وريسال كلٌّ إلى زنزانتِه، حاولت ريسال أن تعرفَ أيَّةَ زاويةٍ للنظرِ إلى مالك لتشيرَ إليه بشيءٍ ما، لكنها لم تستطعْ ظنًّا منها أنه بالطبعِ ما يزالُ اصمًّا أبكمًا بحسبِ اعتقادِها القديمِ.

.. انفضَّتْ الجلسةُ وانصرفَ الناسُ ينتظرون الغدَ ببالغِ اللهفةِ وباتت المدينةُ تحلمُ بهما ما بين مؤيدٍ ومعارضٍ بالآياتِ والأحاديثِ، ما بين محاولٍ يثبتُ خطأ تدخِّلِ الحاكمِ، وآخر يؤيِّدُ بحكمِ مسؤليته عن الأمنِ القومي للجنوبِ في هذه الظروفِ الحرجةِ..

.. وبات مطبخُ الحاكمِ السياسيُّ واقفًا يقشِّرُ الحروفَ، ويقطِّعَ الجُمَلَ ليجهِّزَ للناسِ في الصباحِ وجبةً مِن الحديثِ المحبوكِ، في الوقتِ الذي أمرَ فيه الحاكمُ الممسوسُ الضباطَ باستجوابِ مالك لاقتلاعِ أيَّةَ معلوماتٍ عن هذه المرأةِ، التي لم يتعرَّفْ على ملامحِها مِن بين كلِّ هذه الحشودِ أحدٌ، وكأنها سقطَتْ من السمواتِ على الجنوبِ، وكان الحاكم المرتبكُ قد شدَّدَ على الضبَّاطِ بألَّا يعذِّبوا مالك، حتى لا يأكلُ لحمَ وجهِه المعارضون له في الصباحِ

إذا ظهرَتْ على مالك آثارٌ للتعذيبِ، كما أن هناك احتمالاتٍ ولو قليلةً أنه لا يقومُ بدور أبكم وإنما هو أبكم بالفعلِ، وقد أساء ذلك للشكل الملائكي للحاكم الذي يزعم أنه يقوم بدفع حقوق الإنسان إلى هذا العالم الكافر بالإنسانية.

.. وتمَّ نقلُ ريسال من زنزانتِها إلى إحدى الزنازين التي في الطابق الأعلى، حتى لا تسمعَ صراخَ الأبكم أو صوتَه إن صرخ، وخاصةً أن كلَّ الزنازين كانت متجاورة تحتل الدور الأرضي للقصرِ، والواحدة منها عبارة عن قفصٍ من الحديدِ تشبه السجنَ المؤقَّتَ، وهذه الزنازين بالأساس كانت مجهزةً للجنودِ وحرسِ القصر لتكديرِهم إذا ارتكبوا مخالفةً، وبالطبعِ للقضايا الأمنيةِ الخطيرة التي يلزم الحاكمُ أن يكون أحدُ المحقِّقين فيها.

.. وما سكنَتْ ريسال زنزانتَها الجديدةَ حتى خرجَتْ عيون الحارسِ على جسدِها المدمِّرِ، فما استطاع الحفاظ على هيبتِه فوقف مباشرة يحدِّقُ من بين قضبان الحديدِ منتظرًا أن تخلع عن تفاح الجنةِ الأوراق وهو يهذي:

- وإذا السُّكارى ذاتَ صمتٍ من شفاهِك غُيِّبُوا، ماذا سيحدثُ أن بدأْتِ الآنَ جهرًا بالحديث، كيف السبيلُ إلى وقوفي بالمفاصلِ لحظةً، إن كنتُ قبلَ سقوطِ شيءٍ أشتكي هل مِن مغيث.

.. وبمرور أحد الضبَّاط فوجئ بتحديقِ الحارس ببلاهةٍ في زنزانة ريسال، فشدَّه من قفاه ودفعه على الأرض حتى تستطَّح على ظهره مستلقيًا، ثم نظر إلى ما كان ينظر إليه ليرى ماذا يجري، فوجد القمر بازغًا فعاد يقولُ للحارس الذي قام يستجمع أعصاب روحه ليقف على رجليه:

- احذرْ مِن التَّحديقِ فيها ولا تهمَّ مُداعِبًا، ليست مجرَّدَ أن تلاقي في الغرامِ متاعبًا، وإذا الحواجبُ قد أُسِنَّتْ كي تُقطِّعَ في الرِّقاب، تلك الفتاةُ جمالُها إذا اقتربْتَ لمُرعِبًا.

.. لم يكن إتقانُ دورِ الأبكم على مالك جديدًا، إذْ إنه يقومُ بهذا منذ سنين حقيقةً، فعادَ الضُّبَّاطُ إلى الحاكمِ الغاضبِ على أثر عودتهم صفر الأيدي خائبين بعد عدَّةَ محاولاتٍ لاستجوابِ مالك، الذي لم ينطقْ حرفًا واحدًا لهم رغمَ أنهم عذَّبوه حتى الموتِ خنقًا وشنقًا وضغطًا على كِليتيه وطُحالِه حتى لا تظهرَ عليه آثارُ التعذيبِ في المحاكمةِ، ووفَّي مالك بالعهدِ مع ريسال، رغمَ أنه الآنَ يستطيعُ الكلامَ، إلا أنه فضَّلَ إلا ألَّا يتكلَّمَ، وألَّا يبلغَ أحدًا أنه لم يعد أبكمًا أو مصابًا بالصَّممِ ولا حتى أبلغَ ريسال، وكان يهمسُ دائمًا بجملٍ كان يحفظُها من روايةِ أسرار التنهيدةِ الأولى الممنوعةِ من العرضِ:

- يعتقدون أنني أحبُّك، أخبريهم أني أحبُّكِ فوق ما لا يتخيَّلون.

.. وكان أحدُ الضباطِ قد انفعلَ أثناء استجوابِ مالك ونسي نفسَه ولَكَمَ مالك عدَّةَ لكماتٍ في وجهِه فتورَّمَتْ شفتاه، الأمرُ الذي أثار عليه غضبَ الحاكمِ، وانتفضَ يضربُ كفًّا بكفٍّ وأمرَ بإرسالِ طبيبٍ إلى مالك ليداوي تورُّمَ شفتيه، ولو بوضعِ تجميلٍ مؤقتٍ حتى انتهاءِ المحاكمةِ، ثم خطرَ في جنونِه رغمَ حساسيَّةِ موقفِه أن يذهبَ إلى زنزانةِ ريسال، فقام وكأنه يؤمرُ بِالذهاب فقال غاضبًا كالمعتوه:

- ذهابي إليكَ أمسى كرجوعِ طفلٍ بظهرِه على قمةِ جبلٍ إلى الحافةِ وهو لا يدري.

.. فتح الحراسُ الزانزانةُ في الثلثِ الأخيرِ من الليلِ فوجدَها واقفةً باتجاه انفتاحِ البابِ بوجهِها القمريِّ، الذي ينسدل عليه شعرُها الليليُّ الغزيرِ، وكأنها كوكبٌ مليءٌ فضاؤه بالملائكةِ، تعجَّبَ محدِّثًا نفسَه:

- شعرُكَ قِطَعٌ مِن الليلِ يموجُ بعضُه فوقَ بعضٍ حين يشتدُّ الرعبُ بظهورِ الفتنِ في أرجاءِ ملامحكِ، حتى إذا نظرْتُ في عينيكِ رأيتُ فيهِما الجنةَ على مدِّ البصرِ وحدائقَ وحمامًا وعصافيرَ وأطفالًا يضحكون وخلودًا.

.. فنظر حوله ووراءَه كاللصوصِ لم يجدْ أحدًا وكأنه أراد أن يقولَ:

- فتعالَي نسرقُنا ونرتِّلُ بعضَ هلاوسَ ثمَّ نحرِّفُ في النصوص، وتعالَي كي نتوارى قليلًا نخفِضُ صوتَ التنهيداتِ وصوتَ شفاهِنا كاللصوصِ.

.. فتفاجأ بها تقولُ في صلابةٍ:

- لقد كنتُ في انتظارِكَ لأقولَ لك: لن أتكلَّمَ إلا أمامَ العالمين.

.. نظرَ الحاكمُ بغضبٍ عن قربٍ إلى ملامحِها فوقفَ وكأنَّ على رأسِه الطيرُ مشدوهًا، لا يملكُ مِن أمرِ عينيه أن يرمشَ، ثم تراجعَ خطوةً وأخذَتْ عيناه الطريقَ مِن أظافرِ قدميها إلى شعرِ رأسِها الذي يموجُ بقطعٍ مِن الليلِ الغريبِ بعدَ أن مرَّ على امتدادِ العودِ الباذخةِ أنوثتُه بالمناطقِ المحرمةِ وحدائقِ الرمَّانِ فما فوق وهو يهذي:

- أقف على حافةِ قمةِ جبلٍ في وجه طوفان نوح، في محاولةٍ لمنعِ كارثةِ البوحِ من الانزلاقِ في الشلَّالِ ذات لهفةٍ عليك لئلَّا يفضحَني الموتُ فيك على وجهي، ويمرُّ العالمُ يومًا وراءَ يومٍ وتشيبُ في عينيَّ الدنيا، وأحتضرُ بأربعةِ أحرفٍ اسمهم «أحبُّك» بين الحنجرةِ ووجعِ الضلوعِ.

..استغلَّتْ ريسال التفافَ الحراسِ حولَ الحاكم على خلفية سماعها لهم عند فتح باب الزنزانة؛ فأحبَّتْ أن تحرجَه لتكسبَ جولةً أخرى وتسقطَه من عيونِهم:

- ما رأي الحاكمِ بالدين في رجلٍ تمتدُّ عينيه إلى محرماتِ امرأةٍ بحجَّةِ أنه جاء لاستجوابِ جاسوسةٍ؟

.. كأنها ألْجَمَتْ لسانَه وزادتْ على إحراجِ موقفِه إحراجًا جديدًا، فانصرف غاضبًا بعد أن أوشكَتْ هذه الفتاةُ أن تهدمَ ما قام ببنائه على جثامين عشرات الآلافِ من الشهداءِ الذين كانوا يحلمون معه بحلمِ الانفصالِ عن الشمالِ الذي أصبح واقعًا، ولمَّا سمعَتْ قرعَ نعليه وإيقاعَهما السريعَ علمَتْ أنه ذهبَ غاضبًا.

وإلى الاجتماعِ الليليِّ السِّريِّ المغلقِ، استجمعَ كلَّ ما أوتي من جبروتٍ حين تذكَّرَ آلافًا من استغاثاتِ المذبوحين على يديه، وهو في الطريقِ إلى حلمهِ لبناء مدينةٍ، وجلسَ قليلًا ثم قالَ للذين اجتمع بهم في حزمٍ:

- من يسبُكُ منكم خطَّةً للخلاصِ من هذه الجاسوسةِ أمامَ الناسِ بسلامٍ سيدخل في خزينتِه خمسمائة ألفِ دينارٍ من الذهبِ.

.. كادت المكافأةُ أن تأخذَ برؤوسِ المستشارين من هولِ صدمةِ الاستعدادِ على أملِ الفوزِ، اعتكفَ كلُّ واحدٍ منهما في ركنٍ يفكِّرُ وفي يديه ورقةٌ وقلمٌ حتى طلعَ الصبحُ، فاستيقظَ الحاكمُ وطلبَ الاقتراحات فقُدِّمَت له في أوراقٍ بلغَ عددُها تسع عشرةَ ورقةً بعددِ المستشارين، شعر مستشارو الحاكمِ أن الحاكمَ لا يريدُ لها موتًا رحيمًا باعتبارِها زانيةً، سيتم رجمُها وينتهى العذابُ إنما يريدُ لها حياةً أكثر طولًا ليستمتعَ بالتنكيلِ بها، ربَّما هذا ما لاحظوه من قشورِ إصرارِ الحاكمِ على عدمِ إلصاقِ تهمةِ الزِّنا بها أثناءَ الاجتماعِ!

ارتفعَتْ شمسُ اليومِ التالي على ابتسامةِ الحاكمِ لاقتناعِه بإحدى الخططِ، وقد تجمهرَ الناسُ منذ الصباحِ انتظارًا لمشاهدةِ المحكمةِ في المساءِ، وتمَّ اقتيادُ مالك وريسال، وكان الجزءُ الأولُ من الخطَّةِ أن يتمَّ تقديمُ قضيةٍ أخرى مع قضيةِ ريسال حتى لا تبقى حديثَ المدينةِ، لا سيما أن القضيةَ الأخرى مشوِّقة ومثيرةٌ وتمس أيضًا الرأي العامِ؛ حيث إن المتهمَ فيها متهمٌ بقتلِ نفسِه، وأنه ما أن يُفَكُّ قيدُه حتى يبحثَ عن سكِّينٍ يذبحُ بها نفسَه رافضًا الحياةَ، وكان قد تأجَّلَ الحكمُ عليه إلى أن جاءَ وقتُه ليشغلَ بالقضيةِ الناسَ، فحُكِمَ عليه بالإعدامِ، وكانت إحدى مبررات القاضي أنه إذا مات بالسيافِ سيكون أفضل له من الموتِ بالانتحارِ، وما أن أُصْدِرَ الحكمُ حتى صرخت ريسال في القاضي قائلةً:

- فكُّوه ولن يقتلَ نفسَه.

.. فقال القاضي معترضًا:

- وماذا إن قتلَ نفسَه؟

.. قالت بثقةٍ وهي تستفزه ليوافق:

- اقتلني، إنه ربما لم يجد في الذين نصحوه يريد له إصلاحًا بصدق.

.. فقال القاضي بعد أخذ موافقةِ الحاكمِ:

- هو الآنَ لكِ.

.. فأشارت أن يأتوا به أمامَها وراحت تفكُّه وهو ينظرُ إليها وهي تقولُ له:

- مِن الأفكارِ ما يجعلُكَ منفيًّا خارجَ الدنيا وأنت فيها، ومنها ما يعيدُك للحياةِ مرةً أخرى، ومنها ما يجعلُ بيتُك ضيِّقًا ولو واسعًا، ومنها ما يجعلُ لك هذا العالمَ بيتًا مساحتُه الأرضُ وسقفُه السَّمواتُ، وانظرْ كيف لألأَتْ الأفكارُ وجوهًا سمراءَ بالنُّورِ، وكيف صُبِغَتْ وجوهٌ كثيرةٌ بالسَّوادِ رغمَ شدَّةِ بياضِها.

.. فقالَ لها الرجل:

- أعتقدُ أنه كان هناك عالمٌ قبلَ هذا العالمِ، وارتكبْنا فيه الذنوبَ، فألقي بنا هنا في هذا الجحيمِ.

.. قالت في حزن:

- لا أبالي بقتلي إن قتلْتَ نفسَك، إنما إذا وصل بك الأمرُ في الطوابقِ العليا من الروحِ إلى القفزِ من النافذةِ، ففي أقربِ فرصةٍ للهربِ من البابِ اهربْ ولا تعُدْ إلى هذا البيتِ مرَّةً أخرى، وأرسِلْ إلى مَن كان معك فيه بريدًا، وأخبرْه أنك على قيد الحياةِ، لربَّما ينقذُه بريدُك هو الآخرُ من الموتِ بعُقْدةِ الذنبِ، وربما كان يحبُّك وأنت قد توهَّمْتَ شيئًا غير الذي في قلبِه.

.. انفكَّ القيدُ من قدميه وذراعٍ بينما تركت الذراعَ الآخرَ، وطلبتْ سكِّينًا وأعطتْها له وقالت:

- اقتل نفسَك واجعلهم يقتلوني أو اقطع القيدَ الأخيرَ وعانقْني عناقَ الأخ لأختِه.

.. بكى وقطعَ القيدَ وقال:

- لا، أعانقنَّكِ يا أختي حتى لا يقالُ في حقِّكِ كلمة.

- عانِقْني، فإنهم قد قالوا كلَّ ما يمكن من الكلام، وعلى الأقل أقدِّم لهم دليل انحرافي.

.. وقفا يضحكان من سخافة الموقف، وتَلاسَنَ الناسُ على حرارة العناقِ، ولم يراعوا حرمةَ خروجِ نفسٍ من قبرِها، وشعر الحاكمُ أن الفتاةَ ربَّما ستخطفُ بهذا نصرًا، وستكسبُ تعاطفَ الناسِ، فقامَ وقطعَ الحضنَ بقوله:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد كان الموتُ خيرًا لهذا لو كان سيقضي بقية حياتِه يغضبُ ربَّه هكذا.

.. وخطبَ الحاكمُ خطبةً دغدغتْ مشاعرَ المحتشدين في الجلسةِ الثانيةِ للمحاكمةِ التي زلزلت أصداؤها أرجاءَ المدائن، واختفى ذلك الذي كان يريد أن ينتحرَ، ثم نادى الحاجبُ على تسعِ رجالٍ، وأوقفَ بينهم مالك وكان قد اختارهم صاحبُ الخطةِ بعنايةٍ يشبهون مالك في بِنيةِ الجسد، والأكثرُ غرابةً مِن هذا أنه وضع على كلٍّ منهم مجموعةً مِن العطورِ ثم أمرَ الحاجبُ العشرةَ بالصَّمتِ وأشار إلى الحاكمِ ليتقدَّمَ، فقال الحاكمُ للمحتشدين:

- يا أيها الناسُ، قد يحبُّ الأصمُّ الأبكمُ كفيفة؛ لأنه يراها لكن كيف تعشقُ هذه الكفيفة ذلك الأبكم وهي لا تراه ولا تسمعُه؟ هذه العاهرةُ تمارسُ الرذيلةَ مع مَن يقتربُ منها، وأنا بنفسي ليلةَ أمس كنت أستجوبُها فراودتني عن فاكهتِها مقابلَ إطلاقِ سراحِها، ففزعْتُ وقلتُ إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين.

.. بدأ البعضُ بالبكاءِ متأثِّرًا بالمعجزةِ التي يشاهدُها، حيث يرفضُ رجلًا امرأةً بهذا الجمالِ الفريدِ، وآخرون تكهَّنوا أنه من السبعة الذين سيظلهم الله يوم تكون الشمس على رؤوس الخلق، وذهب آخرون أننا نشاهد من أهل الجنة الآن رجلًا بيننا، لكن الحراسَ الأربعةَ وبعضَ المستشارين ابتسموا سخريةً مِن الحاكم سرًّا، ثم تابعَ الحاكم المرتبكُ الخطبةَ قائلًا للناسِ:

- هؤلاء الشبابُ عشرةٌ بينهم عشيقُها، أن تعرَّفَتْ عليه ستنجو من الموتِ، وإن لم تتعرَّفْ عليه سوف تعاقبُ بالموتِ رميًا بالرمحِ؛ لأن عدمَ تعرفِها عليه يعني أنها تنامُ على فراشِ أيِّ رجلٍ يلمسُها، أليس كذلك؟

.. فأجابت الجماهيرُ وقد أصبح الأمر مثيرًا جدًّا:

- بلى، هو كذلك يا حاكمَ الجنوبِ.

.. ازدادَ الأمرُ إثارةً وما تزال ريسالُ بوجهِها الذي يشبهه القمرَ الكاملِ في ليالي الصيفِ الساكنِ، بابتسامتِها التي تشبه رقصَ الماءِ حين يسبحُ فيه البطُّ بعدَ صلاةِ الفجرِ، فكَّ الحراسُ قيودَ ريسال وسحبَها أحدُهم في منتصفِ الشباب العشرة، واستعدَّ رامي الرماحِ للرَّمي من خلفِها، ثمَّ أمرها الحاكم بأن تسلِّمَ عليهم لتتعرَّفَ مِن خلالِ اللمسةِ على مالك، وليزيدَ الأمرَ موتًا سحبَ مالك مِن بين العشرةِ وتركها تختارُ مِن بينهم، دقَّتِ قلوبُ الطيرِ في السَّمواتِ وبدأ الصخرُ في الدموعِ، وسكنَ النسيمُ، وأُصيبَ مالك بالهلعِ الدَّاخلي في أعماقِ صدرِه وسطَ إنذارِ الحراسِ له إن تحرَّكَ حركةً واحدةً سيكونُ إذنًا لها بالذبح.

ابتسمَ وجهُ القمر ونظرَ باتِّجاهِ صوتِ الحاكم، وطلبت منه أن يفي أمامَ الناسِ بإطلاقِ سراحِهما وتبرئتهما من تهمةِ الزنا، إن تعرَّفَتْ على حبيبِها، فضحك الحاكم سخريةً ثم عاهدها أمامَ الناسِ.

بدأ العدُّ التنازليُّ لانطلاقِ الرمحِ في منتصفِ دماغِ ريسال من الخلفِ، وتقدَّمَت في سكونِ وسطَ ترقُّبِ العالمين لها، وبدأتْ من اليمين إلى اليسارِ بمصافحةِ الشبابِ حتى انتهت واتَّجهت صوبَ الرامي، وسألتْه بصوتٍ فيه حزنٌ وألمٌ شديدان لتكسبَ مساحاتٍ أكبر في قلوبِ الحشودِ الكبيرةِ:

- يا راميَ الرمحِ أن أمركَ الحاكمُ بالرمي تحقيقًا للعدلِ سترمي لتقتلَني؟

.. قالَ الرامي:

- أجل.

- وإن أمركَ بالرمي ظلمًا سترمي؟

.. تردَّدَ الرامي وتلعثمَ فقاطعتْه وقالت:

- هذا هو الحاكمُ حين يصبحُ إلَهًا، يظنُّ الناسُ أن أوامرَه الركنُ السادسُ من أركانِ الدينِ.

.. ثم نظرَتْ إلى الحاكمِ وقالت له:

- لم أتعرَّفْ عليه بينهم.

.. واستعدَّ الرَّامي منتظرًا الإشارةَ من الحاكمِ، فاندفعَ غيرُ واحدٍ من الجماهيرِ يهتفُ بأنها تتعرَّضُ للظلمِ، وبأنَّ مالك لم يكن بالفعلِ بينهم، فكيف ستتعرفُ على من ليس موجودًا.

أرغمَت عاصفةُ الموقفِ الحاكمَ على ركوبِ الموجةِ وأمرَ بدفعِ مالك بين العشرةِ، وكان ترتيبُه بين العشرةِ السابع، ووقف معهم الحاكمُ ليزيدَ عليها الموقف تعقيدًا، فكان ترتيبُه التاسع لتختار بذلك من بين أحد عشر رجلًا؛ فمضَتْ تسلِّمُ تحت تهديدِ الحاكمِ لمالك إن بدا منه في مصافحتِه لها إشارةٌ سيقوم بقتلِها.

.. أخذ مالك يفكرُ كيف علمَتْ أنه ليس مِن بين العشرةِ في المرةِ الأولى، وكيف يمكنه مساعدتَها في الإفلاتِ مِن دقِّ الرمحِ خلفِ رأسها في هذه المرةِ المقبلةِ، قبلَ أن تسقطَ قتيلةً في بِرْكةٍ من دمائها؛ وقبل الإعلان الرسميِّ بإذنِ القاضي لريسال بالمصافحةِ، وبينما كان مالك يضعُ أنامله على شفتيه المتورِّمتين تذكَّرَ قولَها له:

- الأمرُ لا يحتملُ مزيدًا من الحماقاتِ، وعليك بالارتجافِ إن كان الأمرُ يستحقُّ الخوفَ، وهيَّا ناولني حضنكَ عميقًا جدًّا، واتركْني اتحسَّسُ شفتيكَ بأناملي، فإني لا أعلم بعدَ الليلةَ كم سيكون حجمهما في القُبَلِ.

.. اعتقد مالك أن هذه كانت إحدى رسائِلِها العبقريةِ له، لئلَّا يكتمَ رعشةَ خوفِه عليها أبدًا، وبالفعلِ قرَّرَ ألَّا يخفي خوفَه عليها، وأن يتركَ كفَّيه للارتعاشِ بتلقائيةٍ لعلَّها تعرفُه.

.. أعطى القاضي ريسال الإذن بمصافحةِ الأحد عشر رجلًا، ومن بينهم الحاكم فتقدَّمَتْ تصافحُ في اطمئنانٍ زادَ عيونَ المحتشدين قلقًا.

بدأتْ ريسال من اليمين إلى اليسار بِمصافحةِ الرجال هذه المرَّةَ وكأنها في عجلةٍ مِن أمرِها، وسلَّمَت على الجميعِ بما فيهم مالك سريعًا ووقَفَتْ عند التاسعِ (الحاكم)، وما أكملَتْ، وشدَّتْه إلى الأمامِ خطوةً، ثم أشارت له بلغةِ الإشارةِ مع صوتِها الهامسِ المبحوحِ مِن الألمِ:

- ألم ترَ؟! أستطيعُ أن أرى حُبَّك وأنا لا أرى ولا تملكُ أن ترى كم أحبُّكَ وأنتَ ترى!

.. وانتبهت عيونُ الحشدِ لتلتقطَ ما تقولُه شفتاها من بعيدٍ للحاكمِ، لكنْ ما كان لأحدٍ أن يترجم هذه الوشوشةَ ولا يتوقَّع أن خلفِ كواليسِ الصدورِ نبضًا بتلك الارتعاشات، وأحسَّت بحرارةِ يديه فتيقَّنَت أنه هو، ثم عاودت الوشوشة في عمقِه وهي تشير:

- العُميان يقولون إن شيئًا بيننا، وكيف يكون بيننا شيءٌ ونحن ملتصقان، ومسام جِلدي يجري فيهما عرقُ صدرِك؟!

.. وفي أقلِّ من دقَّتي قلب وبالقربِ أنفاسِه الخائفةِ حاولَتْ أن تحدِّدَ موضعَ حبَّتي عينيه على خريطةِ الروحِ، وانتهَتْ علاقةُ الرجلِ بضجيجِ هذا العالمِ بعدَ أن راحَ في نوبةٍ من الغيابِ في براحِ عينيها المقدَّستين، ثم همس لنفسِه:

- وحدكِ مَن تمتلكين القدرةَ حين أرى عينيك على سحبِ الثقةِ من الجهازِ الإداريِّ للروحِ.

.. ثم قالت له وسطَ سكونٍ عارمٍ أثناءَ انتظارِ رامي الرمحِ خلفَها لإشارةِ الحاكمِ بالرمي في منتصفِ دماغِها وتحويله إلى عصفٍ مأكولٍ:

- سيبقى صوتُك وحده يسلك طريقَه إلى روحي مهما أجبرتْه الدنيا على الصَّمتِ.

.. فنظر الحاكمُ إلى قميصِها الذي انفكَّ زرارُه تلقائيًّا، فظهر بياضُ التفّاحِ المحرَّمُ، فقالت له بشفتيها وبالإشارةِ:

- الخِلْسَةُ عند تَسَلُّلِ زِرِّ قمِيصي تَفُضُّ الصَخْرَةَ والفولاذ، الأُنْثَى تُغْرِقُ فيها البَحْرَ، وحين تُحِبُّ تَراها تَغْرَقُ في قَطَراتِ شَهِيقِ رَذاذْ.

.. تراجعَ الحاكمُ بعيدًا عنها في هلعٍ، وكأنه اتّخَذَ قرارًا بالارتباكِ وأشار للرجالِ العشرةِ بالانصرافِ إلا مالك، فقد أُعيدَ إلى قيودِه بعيدًا وهو يلتقطُ مِن ملامحِ حبيبتِه آخر صورٍ لها في هذه الدنيا بعينيه الدامعتين، ولا سيما وقد باءت محاولتُها لاختيارِه بالفشلِ الذريعِ على حدِّ آخر اعتقاداته بجريان القدر.

.. امتدَّ الصمتُ على المكانِ كثيرًا انتظارًا لإشارةِ الحاكمِ، وأُنْهَكَ ذراعُ الرامي من طولِ انتظارِه في وضع الاستعدادِ لرمي الرمحِ في دماغِ ريسال، وأحسَّ الحاكمُ بالقلقِ مِن امتدادِ فترة صمتِه، فيتحولَ النظامُ إلى فوضَى مما يدفع الجماهير إلى الهياج وربما العنف..

.. وفجأةً أمر الحاكمُ الرامي أن يعدِّلَ من وضع الاستعدادِ إلى وضعِ وقوفِ الانتباه، ثم لملمَ بعضَ ما تبقى من فتات هيبتِه وتواضعِ كبريائه وسطَ مخاوفِه العارمة بأن يكونَ وراءَ

هذين المتهمين شبكةً مِن التجسسِ على الجنوبِ لإسقاطِه، ثم أقسمَ الحاكمُ للناسِ أنها ترى وأن هذا الأبكم يتكلَّمُ، وأنَّ هذين لَجاسوسان قد جاءَا يدبِّران شيئًا لهذا البلدِ الأمينِ، وعاد يثرثرُ أنها تتقنُ القيامَ بدورِ الكفيفة، وأنه يتقنُ القيامَ بدورِ أبكم، وأنَّه بعدَ بعضٍ من الصبرِ القليلِ عليهما، ستتتمكَّن القوى الأمنيةُ في فترةٍ وجيزةٍ من أن تنتزعَ منهما ما يكفي لإثباتِ أن القصرَ في شمالِ المدينةِ ما زال يتآمرُ ضدَّ الجنوبِ وضد دينِ الله في الأرضِ.

وبينما كان الحاكمُ يبرِّرُ تجنبَ قتلِها عمَّتْ بالمكانِ الفوضى والتفَّ الحرَّاسُ حولَ الحاكمِ لاحتمالِ اندلاعِ احتجاجات عارمةٍ، وسمعَ الناسُ أحدَ الحراسِ بصوتِه الجهوريِّ ينادي فيهم، ويبلغُهم قرارَ الحاكمِ بِأنَّ غدًا هو يومُ الفصلِ في الأمرِ، وكان الحاكمُ يرتجفُ من عمقٍ وهو في اندهاشٍ مِن أمره:

- ياللهولِ كيف نجوْتُ من زلزالٍ عنيفٍ أصاب ضرباتِ القلب الهادئةِ بالجنون.

.. غادر الحاكمُ الساحةُ في ذهولٍ وهو لا يصدِّقُ الحرجَ الذي أُلقِي فيه على يد هذين المعتوهَين، بينما كانَ يسمعُ هتافاتٍ غاضبةٍ مِن الجماجمِ التي يعرفُ حجمَ تأثيرِ دغدغةِ ريسال لمشاعرِهم، وهتافاتٍ معاديةً له على خلفيةِ منظرِ تحطيمِ وجْهِ مالك وانتفاخ عينيه وتورُّمِ شفتيه.

.. انفلتَ زمامُ غضبِ الحاكمِ فور خروجِه من الساحةِ وأمر باعتقال الضابطِ الذي كان قد اعتدى على مالك، والذي اعتبره سببًا رئيسيًّا لهذا الحرجِ، في الوقت الذي غُمِرَتْ فيه عيونُ ريسال بفرحةٍ عارمةٍ بعد سماعِها هتافاتِ الحشودِ الغاضبةِ أثناءَ رؤيتِهم آثارَ تعذيبِ مالك، على خلفيةِ عدم إدلائه بأيةِ إشاراتٍ تدلَّهم على ريسال واسمِ أبويها ومكانِ قبرَيهما.

.. هي اعتقَدَتْ أن اليدَ التاسعة التي صافحتْها واختارتْها كانت يدَ مالك، والذي زادها يقينًا أن الرامي لم يؤمرْ برميِ الموتِ خلفَ دماغِها، وبعدَ أن سمعَتْ صوتَ انغلاقِ بابَ زنزانتِها الانفراديةِ عليها بدأتْ تحتفلُ بعد أن اجتاحتْها فرحةٌ عارمةٌ، أخذَتْ على أثرها تبكي لأوَّلِ مرَّةٍ؛ لتذوِّبَ جبالًا من غيومِ الحزنِ في سماءِ عينيها على خلفيةِ سماعِها احتجاجاتِ

واعتراضاتِ المحتشدين على تعذيبِ مالك؛ فبهذا قد أثبتَ لها حقيقةً أنه رجلٌ، وأنه يُعتمَدُ عليه، وأنه حفظَ العهدَ، وأنه يخافُ عليها وأنه.. وأنه..، وما هي إلا دقائق من الدموعِ الساخنةِ التي تجري فوق ملامحِ الوردِ حتى ذهبَ من عينيها الظلامُ كشروقِ شمسِ صباحِ الحياةِ في الحبَّتين الملوَّنتين، وبدأ يحلُّ محلَّه النورُ تدريجيًّا، فعادت بعدَ أن لمحَتْ النورَ تغمضُ عينيها وقالت:

- ربَّاه سامحْني أنا لا أرفضُ النورَ، وأنت أعلمُ بنفسي مِن نفسي، وإنما أرادت نفسي أن تكون الصورةُ الأولى لعينيَّ هي وجه حبيبي.

.. وكان مالك قد أخذ يفكرُ بينما هو في طريقِه بقيودِه إلى زنزانتِه:

- تُرى ما ذلك السبب الذي جعلها تخفقُ في اختياري هذه المرة، ولماذا اختارت ذلك الجبارَ مصَّاصَ الدماءِ صاحبَ الرقمِ القياسي في الاغتيالاتِ حسب آخر تصنيفٍ للشياطين، حتى إن فرعون موسى يأتي بعدَه في التصنيف، فأيُّ بشاعاتٍ يكون قد ارتكب أكثر من ذلك الذي أغضب السماءَ يوم انفلاقِ البحرِ.

.. في هذه اللحظات المشتعلةِ وسطَ دخان الرؤيةِ الذي يقتحمُ المشَاهدَ اجتمع الحاكمُ بمستشاريه في غضبٍ وثورةٍ عارمَين على نفسِه التي ما عاد يحكمُها، وعمَّا قريبٍ لن يستطيعَ أن يحكمَ أحدًا في الجنوبِ، ولم يجرؤ أحدٌ من المستشارين على البدءِ بالحديثِ رعبًا مِن ردِّ فعلِ الحاكمِ على خلفيةِ إنفاذِ حكمِ الإعدامِ بحقِّ عنق الضابطِ إياه، رغمَ وساطاتِ المجاهدين وبينما هم في صمتِهم سأله أحدُهم في ارتجافٍ:

- أتظنُّ يا سيدي أن هذه المرأةَ ترى بعينيها حقيقةً؟

.. وكأنَّ الحاكمَ وجدَ مَن سينفجرُ فيه فقالَ بصوتِ الرعدِ:

- إني لا أظنُّ أيها الأحمقُ، إنما أنا على يقين، لا أدري كيف ارتبطَ اسمي بهذه القضيةِ، ولا أدري كيف أُخرِجُ نفسي منها، ولو خُدِشَ أحدُهما الآنَ في زنزانتِه لأكلَت لحمَ وجهي

الحيواناتُ في الصباحِ، واتهموني بتجاوزِ حقوقِ الإنسانِ، وأنا أفعل كلَّ هذا مِن أجلِ الجنوبِ وأهلِه، ومن أجلِ أن تظلَّ مدينتُنا مثالًا يُحتذى به.

.. قال أحدُ المستشارين في ارتباكٍ:

- لديَّ خطَّةٌ.

.. فقال الحاكمُ:

- لعنةُ اللهِ عليكم وعلى خططِكم، انصرفوا مِن أمامِ وجهي.

.. جلس الحاكمُ يفكِّرُ وحدَه وهو يأكلُ في أنامله:

- لماذا اختارتني هذه الفتاةُ من بين أحدَ عشرَ رجلًا؟! ولماذا أقول لها يا فتاة بينما يقولون لها يا امرأة؟، كيف علمَتْ في المرةِ الأولى أنه ليس من بينهم؟ لماذا هي بهذا الاطمئنان الذي يقلق؟ حديثُها وبراهينُها في الردِّ على القاضي ليست غريبة عني، وتذكرني بذلك الماجن صاحب «أسرار التنهيدةِ الأولى»، لا لا؛ إن الإيمان يطلُّ من بين عينيها، تزوجْتُ بأربعةٍ من النساء ولم أرى في وجه واحدةٍ منهن ما أراه في هذه المجهولة، و.. لماذا يرفض عقلي اعتبارَها عاهرةٍ وأريدُ أن ألصقَ بها تهمةً أخرى؟ مَن هذه الفتاةُ اللعينةُ التي ستهدمُ حلمَ المجاهدين في بناءِ الدنيا؟

.. وبينما هو كذلك دخلَتْ عليه إحدى زوجاتِه وقطعَتْ حبلَ تفكيرِه، ثم خلعَت حجابَها وأظهرت بعض مفاتنَها أمامَ تجاهلٍ غير متعمَّدٍ من عيون الحاكم لها، وبعدَ محادثةٍ بينهما في أن يهوِّنَ على نفسِه، وأن يفكِّرَ بهدوءٍ قالت له بمكرٍ وكيدٍ عظيمين:

- سنستبدلُ رامي الرمحِ برامي السهامِ، وفي هذه المرة لن يكون من خلفِها وإنما من أمامِها، وسنعطي الأوامرَ للرامي بالتصويبِ في منتصف صدرِها على بُعْدِ عشرين مترًا، وسيقف عشيقُها خلفَها أيضًا معصوبَ العينين في الاتِّجاهِ نفسه لتصويبِ الرَّامي، بحيث إذا كانت

هذه العاهرةُ كاذبة وتدَّعي أنها كفيفة سترى السهمَ منطلقًا نحوَها، وستفدي نفسَها بالابتعادِ عن خطِّ انطلاقِ السهمِ خوفًا من اختراقِ الموتِ لصدرِها، وبهذا تكون قد استعدْتَ مكانتَكَ في قلوبِ العامةِ، وبذلك أيضًا تكون قد قتَلَتْ عشيقَها وتستحقُّ القتلَ، وتهمةُ الجاسوسيةِ ستكون قد أُلصِقَتْ بها، وإنْ لم تكنْ كذلك وتكون أخيرًا قد أثبتَّ صدقَكَ في أن تلك الحقيرةَ ليست كفيفة منذ البدايةِ، وتبقَّى احتمالُ أن تكونَ كفيفة بالفعلِ و..

.. قاطعَها الحاكمُ بملامحَ غامضةٍ وقد بدأتْ تحاصرُه:

- هذا مستحيل ولا يمكن أن..

.. قاطعَتْه في غضبٍ لا يخلو من خوفٍ عليه:

- رغمَ أن هذا أمرٌ مستحيلٌ إلا أننا سوف نصنعُ لاحتمالِ السقوطِ مظلَّاتٍ بتهيئةِ الرأي العامِ للجنوبِ بعدَ موتِها إلى أن جريمةَ الزِّنا ثابتةٌ عليها، وأنها تستحقُّ الموتَ، وذلك عن طريقِ عناصرِنا التي سننشرُها بين الجماهيرِ في هذه اللحظةِ لاحتواءِ غضبِ العوام بالهتافِ لك وللجنوبِ وللاستقلال ولنصرةِ الدين، و.. وأنت تعلمُ العامةَ في عالمِنا العربيِّ ترتفع درجةُ حراتِهم مِن أقلِّ تسخينٍ.

.. ابتسمَ الحاكمُ وقال مقاطعًا إيَّاها وقد شعر بغيرتِها، ولا سيما أن الناس باتوا يتحدَّثون عن جمالِ المرأةِ المجهولة:

- وبهذا نكون قد تخلَّصْنا من هذا القلقِ بأمانٍ وانتهينا من موتِهما لِنبدأ حياتَنا يا سيدتي.

.. فقالت له بدلالٍ يعكسُ إحساسَها بذكائها في حالةٍ من الغرورِ وسط سخرية الحاكمِ المكتومةِ:

- ذلك الذي يدَّعي أنه أبكم يُعذَّبُ حدَّ الموتِ، ولا ينطقُ ولا حتى بإشارةٍ ليفشي أمرَ عاهرتِه، وأنتَ كيف تقبلُ على سيدتِك أن تتساوى بها زوجاتُكَ الثلاثةُ، أريد وعدًا منك بعد نجاحِ

الأمرِ أن تجعلَني زوجتَكَ الوحيدةَ، وتطلِّقُ الثلاثةَ الأخريات اللائي تزوجتهن قبلي.

.. فقال بقوةٍ كأنه يريدُ أن يبعدَ تمامًا شبهةَ تاثيرِ المرأةِ المجهولة عليه:

- أعدُكِ بذلك يا سيدةَ الجنوبِ وسيدةَ سيدِ الجنوبِ.

.. ذهبَتْ زوجةُ الحاكمِ تعدُّ فاكهتَها للعشاءِ، وتركتْ الحاكمَ وحدَه، ويا ليتها ما تركتْه وحيدًا فريسةً لعيني الفتاةِ المجهولةِ التي تطاردُه، وملمسِ كفِّ يديها حين كانت تصافحُه ونقلَتْ إليه عدوى الجنونِ حين شردَ يحدثُ نفسَه:

- لقد كان حديثًا على السَّطْرِ عاديًا، كان بين الحرفِ في الكلمةِ الواحدةِ والآخرِ شهقةٌ، وبين الكلمةِ والأخرى تنهيدةٌ، وبين الجملةِ والتي تليها آهةٌ، وبين السطورِ وبعضِها حديثًا، لو اقترب أحدُ العابرين لاحترقَ بأنفاسِنا، لكنه كان في المجملِ حديثًا عاديًا جدًّا لم يلفتْ انتباه المارةِ.

.. وجاءت مرةً أخرى زوجتُه وهي تتمايل قائلةً في برودٍ شديدٍ:

- وأظنُّ بأنَّك كنتَ تظنُّ بأنَّ ظنوني ليست ظنْ، فهيا نكشفُ أوراقَ اللعبِ المكشوفِ بكلِّ وضوحْ، وهيا نخبرُ هذا العالَمَ أنَّا عشقْنا حتَّى يُجَنْ، فسكوتُك حطَّمَ رقمًا لم يُسبقْ في أكبر عشقٍ مفضوح.

.. فتراجع حمزة قليلًا وهو يحاول ألا ينفخ تضجُّرًا مما يُحاصَر به على غير رغبةٍ منه فقالت:

- ماذا سيحدثُ إن ذهبْنا أمام كلِّ الخلقِ جهرًا واشتبكْنا، أم أنَّنا جئنا الحياةَ لكي نشيبَ وكلَّما اشتبكَتْ يدانا هربْنا منها وارتبكْنا.

.. ثم دعَتْه للطعامِ وكأن إعراضَه عنها لم تلاحظه، لكنه كان متخمًا، وهي ما تزال تغني وهو ذلك الأطرشُ المختنِقُ بالتقيُّؤِ وكانت ما تزال تطفئُ المصباحَ وتغنِّي:

- ولقد كتَبْتُ لكي أُحَذِّرَ عيني منك أمام عيني لافِته، فيها حروفٌ من ضحايا رمشِ عينِك حين أضعفُ مُلْفِته، ولكي لا ينطفئُ المصباحُ بذات ضعفٍ، جئتُ بأكثرَ من مصباح، لكنَّ حَبْلَ قميصي داخَ وأُغْمِضَتْ كلُّ العيونِ على الآهاتِ الخافِته.

.. وبينما هما يعتليان المائدةِ شعرَ الحاكمُ الممسوسِ بأمعائه تتلوَّى في صدرِه، وبأنَّ أقدامَه تدهسُ رأسَه، وما قميصُ زوجتِه الآن إلا كفنٌ سيلتفُّ به من الحرير.

-7-

نتفض الحاكمُ شاردًا عن زوجته وجلس بعيدًا سارحًا:

- وسيسألونك كيف تعرفُ أن حبًّا ليس حب، أو كيف تُمتحَنُ القلوبُ قبيل مفترقِ الطريق، قل هل لَهَوتَ بذاتِ بحرٍ بين بعضِ الأصدقاء، هل حين غابَ وجدْتَ روحَكَ بين منتصفِ الحريق، قل هل مشيتَ على الصحاري وفي انتقامٍ للعطش، ثم اكتشفْتَ بذكرك اسمٍ أن قلبَك في الغريق، يا قتلَ روحٍ دون حبٍّ تمضي بالعمرِ القصير، يا دفنَ نفسٍ في الحكايةِ حين ينطفئُ البريق، يا أيها العشاقُ تبًّا سوف تُختطَفُ الحياة، ولسوف نمضي بذاتِ نهرٍ؛ إذ نلاقي جفافَ ريق، قُل مَن سيدفعُ بالمقابلِ حين يندلعُ المشيب، قل من يعوِّضُ حين نكبرُ بعضَ عمرٍ قد أُريق، اليومَ هيَّا انهالوا سبًّا فوق جمجمة الرجوع، الخوفُ يمضي من طريقٍ والمشاعرُ من طريق.

.. ثم انتفضَ كالمجانين قائلًا بلهجةٍ أصابت زوجته بالرعبِ:

- ينكشفُ الحجابُ دائمًا في المساحةِ الفاصلةِ بين النطقِ بالإعدامِ وتنفيذِ الحكمِ، ويسابقُ البوحُ دقَّاتِ الروحِ بالصراخِ في وجْهِ هذا العالمِ الحقيرِ قبلَ أن يأتي ملكُ الموتِ.

.. قالت زوجتُه وهي تلتقطُ من فمِه بعضَ القُبَلِ بينما هو لا يستجيبُ:

- بم تتمتمُ يا عشيقي الأبديِّ؟!

.. قال الحاكمُ:

- هناك زاويةٌ في خطَّتِكِ لم ننظرْ منها لوضعِ مصدَّاتٍ لاحتمالِ هجومِ طوفانٍ مباغتٍ على خلفيةِ فشلِ الخطةِ.

- وما هذه الزاويةُ يا سيدَ الروحِ؟

- أن تكونَ هذه الفتاةُ كاذبةً، وليست كفيفة كما تدَّعي هي، لكنها صادقةٌ في عشقِها وستختارُ الموتَ فداءً لعشيقِها الذي يقفُ خلفَها معصوبَ العينين غدًا.

- ستموتُ كما اتفقنا على خلفيةِ أنها زانية وننتهي منها.

.. بدأت نبرةُ صوتِ الحاكمِ تتخذُ موقعًا في الاعتراضِ واضحًا:

- ومَن أدراكِ وجعلكِ على يقينٍ مِن كونِها زانيةً، ربَّما كانت تعشقُه وكانت تصطحبُه بالفعلِ إلى مأذونٍ عندما تأخَّرَ بهما الوقت، وهجمَ عليهما الليلُ من طولِ السفرِ عبر الصحاري إلينا.

.. فقالت بسخريةٍ وهي تضحكُ:

- وعلى فرضِ أن كلَّ هذا خالَ عليك يا زوجي يا ذو القلب الطيبَ، مستحيلٌ أن تقتلَ امرأةٌ نفسَها لأجلِ رجلٍ!

.. وصلَ الحاكمُ إلى مبتغاه وسألها:

- وماذا عنكِ لو كنتُ أنا مكانَه وأنت مكانَها؟

- بالطبعِ سأفديك يا سيدَ الروحِ !

- ما رأيُكِ دعينا نجرِّبُ الأمرَ؟

.. اضطربَ قلبُ الزوجةِ وشعرَتْ أن الجنونَ أصابَ زوجَها الحاكمَ؛ فبدأتْ بالتردُّدِ وتساءلت:

- لم نتعرَّضْ لمحنةٍ حقيقيةٍ يا سيدَ قلبي كي يكون الاختبارُ عفويًّا.

- سأخلقُ محنةً وسنجرِّبُ الأمرَ وسأجعلُه عفويًّا.

.. وأخذها الحاكمُ من يدِها وسطَ يقينِها أن هذه الفتاةُ أصابتْه بما وراء الجنون، وأيقظَ القصرَ الكبيرَ وحرَّاسَه وزوجاتِه الثلاثةَ الباقياتِ وغابَ دقيقتين في غرفةِ رامي السِّهامِ الذي فتَحَ عينيه على جنونِ سيدِه، فاستيقظَ فزعًا تحت تهدئةِ الحاكمِ له، ثم دارَ بينهما حوارٌ مقتضبٌ، وخرجَا ووقفَ الحاكمُ في مركزِ ساحةِ القصرِ الحصينِ وأوقفَ زوجاتِه بشكلٍ دائريٍ حولَه بعدَ مجيء أربعةً من رُماةِ السهامِ، وراءَ كلِّ واحدةٍ منهن ملكٌ للموتِ.

.. قال الحاكمُ في جنونٍ هادئٍ أصاب نساءَه بالهلعِ المفاجئ:

- سيرمي كلُّ واحدٍ من الرماةِ الزوجةُ التي أمامَه إذا أعطيتُ الإشارةَ بالقتلِ، فإذا حاولَتْ إحداكن إفلاتَ نفسِها فسوف يصيبُني السهم في منتصفِ قلبي، وإذا تلقَّتْ بدلًا مني السهمَ، فهذا معناه أنها تحبني للأبدِ.

.. شعر النساءُ بالرعبِ، لا سيما أن بين الرماةِ ذلك البدينُ الشهيرُ برجلِ الإعدامِ، الذي لا يخطئُ سهمُه يسارَ صدرِ ضحيَّتِه مخترقًا منتصف الصدر، ووسط انفلاتِ الحاكمِ بدأ النسوةُ اللائي في مرمى الموت بالتحديقِ في حَبَّاتِ عيونِ بعضِهن، ودار جدلٌ بينهن وبين الحاكمِ حسمَه الحاكمُ بصراخِه:

- كلُّ الشبابِ العبيدِ في كلِّ أنحاءِ هذه الأرضِ اللعينةِ يقعون في الهوى، وتدور بينهم قصصُ الحبِّ والهوى، وأنا سيدُ هذا العالم، وبإشارةٍ مني يختلُّ توازنُ هذه الأرضِ، ولا أتلذَّذُ بطعمِ قُبْلةٍ واحدةٍ، وأريدُ الليلةَ أن أعرفَ مَن منكن تعشقُني لأجدَ معها ما يجدُ كلابُ الطرقات حين يضاجعون كلبةَ الجُرْنِ، هل المشكلةُ في العسلِ أم عُطْلٌ في حاسَّةِ التذوُّقِ؟!

.. صمتَ السكونُ وسُمِعَتْ أصواتُ ضرباتِ قلوبِ الزوجاتِ بعد ارتفاع صراخِات جنونِ الحاكمِ، في الوقتِ الذي تذكَّرَتْ كلُّ واحدةٍ منهن المرارَ منه وسطَ انشغالِه بالحروبِ، وتلاشت كلُّ اللحظاتِ الحلوة.

وحانت لحظةُ اللعبِ بالأرواحِ وأعطى الحاكمُ الإشارةَ للرماةِ الأربعةِ وانطلقَتْ السهامُ في طريقِها إلى صدور النساءِ لتخترقَها، فإذا السهامُ الأربعةُ تمرُّ على خلفيةِ ابتعادهِن جميعًا عن الموتِ لتتجه بذلك ثلاثةُ سهامٍ، الأول أصاب الحاكمَ في فخذِه والثاني في يسارِ صدره والثالث في بطنِه، أمَّا السهمُ الرابعِ فقد أصابَه في الشَّفةِ العليا.

.. ضحكَ الحاكمُ ضحكةَ الجنونِ والدمُ الساخنُ يسيلُ على ذقنِه؛ وتلفَّتَتْ كلُّ امرأةٍ منهن لتملِّي عينيها من سقوطِه في مستنقعِ دمائه، إلا أنه قال لهن كأنه يكلِّمُ نفسَه:

- لقد كانت سهامًا خشبيَّةً وكلُّ واحدةٍ منكن قالت يومًا ما: سأموتُ من أجلِكَ، وأنت أقرب إليَّ من روحي وإلى الأبد. عن أي أبدٍ كنتن تتحدَّثن، كان من حقِّكن أن تخترْن الحياةَ، لكنْ من حقي أن تكنَّ معي صادقات، عُدْنَ من حيث قمتُن من نومِكن، أريد أن أنفرد بي.

.. نظر في تجاعيد السنين على كفَّيه، وكأنه يتساءلُ كيف ضاعت الأيامُ مع هؤلاء، ثم حاول البكاء لكنَّ الدموعَ المتحجِّرةَ في عينيه أبَتْ إلا أن يبقى مخنوقًا وهو يتمتم لنفسِه:

- اصرخْ كما لو أنَّك في الجحيمِ يومَ القيامةِ، وتقيَّأْ دمًا يملأُ الأرضَ، وكسِّرْ كلَّ ما يصادفُك من أشياءٍ لا تبقِ على شيءٍ أبدًا، ثم نم متعبًا وخُذْ جُرحك لتموتَ به بعيدًا وحيدًا، أو عُد إليَّ وأنت على قيد الحياةِ.

.. ثم أشارَ إلى الحراسِ كذلك وبقى وحدَه ساهرًا ينظرُ إلى السماءِ ويفكِّرُ في هذا الذي يحدثُ، وكأنَّ شيئًا يزجُّ به ربَّما إلى مجهولٍ بات مثيرًا للاهتمامِ، حتى ولو كان الموتَ، لكن لا ريبَ أنه مجهولٌ لذيذٌ.

.. ساقَت الحاكمُ قدماه مرغمًا في السكون الأخير من الليلِ إلى زنزانةِ ريسال، وهو ينظرُ إلى نفسِه كيف يُسحبُ هكذا ولا شيء بداخله يتمكن من أن يوقفه، فأخذ يهذي وهو يمشي ناظرًا إلى قدميه:

- أقدامي ترفضُ أيَّ عرضٍ للتراجعِ خطوتين، وأقولُ هيَّا لكي نفرَّ من العذابِ تقولُ أين، فوقفْتُ رغمًا عن عيوني أُشاهدُ التفَّاحَ فوق، وخشيتُ يرتفعُ الشَّهيقُ تحسُّبًا أغلقْتُ عين، لكنني ولفرْطِ رُعبي من السقوطُ تغيَّبًا، ولَّيتُ وجهي كالفقيرِ إذا اختفى وعليه دَين، يمضي أموتُ ولو أتاني أعودُ أخرى إلى الحياةِ، هلَّا تكفُّ عن الرحيلِ لكي لا أبقى في انتظارٍ بينَ بين.

.. صعد متسلِّلًا السلالمَ إلى الطابق الأعلى ثمَّ وقفَ في ركنٍ بالقربِ منها كاتمًا أنفاسَه كاللصوصِ، وبين أقفاصِ الزنازين حتى لا يلاحظُ وجودَه أحدٌ، تخفَّى قليلًا ريثما تهدأ ضربات قلبه، ووقف يتمتم:

- كيف لم يلفتْ انتباهي وأنا أراقبُ السائرين عبر مسالكِ وشعابِ الأرضِ إلى عينيكِ أنه لا يوجدُ طريقٌ للعائدين؟!

ولماذا أنا، تلك الروايةُ «أسرار التنهيدةِ الأولى» تحدثُ الآن حرفًا حرفًا، وكأن صاحبَها يبعث برسالةٍ لي من الدار الآخرةِ: «آن الأوان أن تؤمن بالحب دفعةً واحدةً»، وهذه الملائكية أنا الواقعُ وحدي فيها، وصدقَتْ الروايةُ حين قيل فيها: «يرسلُ الرحمنُ وجْهًا إلى عينيك عبرَ زاويةٍ، وحدكَ مَن تقفُ فيها مذهولًا، إن ملامحَ مِن أصحابِ الجنةِ على الأرضِ في غفلةٍ من الذين يمرون»، ما هذه الرواية وكيف لصاحبِها أن يقولَ: «وحقِّ معجزةِ تقسيمِ ملامحِك التي روَّعَتْ الصدرَ بعاصفةٍ من التَّنهيدِ أن لقاءَنا هذا ليس أولَ لقاءٍ بيننا، وأنا على يقينٍ بأنَّ هذين اليدين كانتا على ظهري ومناطقَ أخرى في جريمةِ اشتباكٍ سابقةٍ، ثمَّةَ لقاءاتٌ تحدثُ قبلَ وقوعِ اللقاءِ الأوَّلِ، فلا تسألنَّ كيف وجدْتَ بصماتي على جدارِ الروح مرَّةً أخرى». وربِّ الكعبةِ إن هذا يحدث الآن!

.. ثم نظرَ إليها في هدوءٍ فوجدَ عيونَ الكوكب الدُّرِّيِّ من بين قضبانِ الحديدِ مستيقظةً، تنظر نحو السماءِ في إيمانٍ غريبٍ، وكأنَّ ملائكةً تحتفلُ في سموات عينيها، وكانت قد قرَّرَتْ ألا تُنْزِلَ من السماءِ بصرَها إلا على أوَّل صورةٍ لعينيها بعد انقطاعِ النورِ كلَّ هذه السنين، ثم قال الحاكمُ وهو ما يزالُ يتحدَّثُ إلى نفسه:

- ما تزال تنتهك عيناكِ حقوقَ العابرين في البقاءِ بعيدًا عن الجنونِ.

- ثم استرخَتْ أعصابُه قليلًا و تنهَّدَ قائلًا:

- لم يعُدْ أمامَ فارسٍ مختطفٍ بعدَ أن وضعَ العالمُ لاصقةَ حظرٍ على الحديثِ إلا أن يتنفَّسَكِ بانتظامٍ.

هدوءُ عينيك ذلك الذي ضربَ عواصفَ الأرضِ في مقتلٍ حتى إذا جاءت غيومٌ محمَّلةً بالنبيذِ تغوي الناسَ والحجارةَ.

.. وفجأةً سمعَ الحاكمَ قرْعَ نِعالِ مرورِ الحرسِ على الزنازين فخشي أن يرَوه بهذه الهيئةِ الغريبةِ، فيضيف على إحراجاتِه إحراجًا جديدًا يقلِّلُ من هيبتِه فقال وكأنَّه أشفق على نفسِه:

- زلزالُ شهقِ جنونِ صدرِك شلَّ رأسي عن التفكير، وجهازُ أعصابي استُبيح بأحمرِ الشَّفةِ المكير، وأنا الذي نادى بكفْرِ الشاربين من النَّبيذ، اليومَ أمضي في الطرقات ينعتونني بالسِّكِّير.

.. واضطُرَّ إلى الدخولِ في أحد الزنازين الخالية، ثم أغلقَ وراءَه بابَها في هدوءٍ حذِرٍ، وكتمَ أنفاسَ قلقِه، ومِن جملةِ القدرِ أن الحرَّاسَ وقفوا كنوعٍ من تشديدِ الحراسةِ على مسافةٍ من زنزانةِ ريسال، أمامَ مدخلِ الممر الذي جاءوا منه؛ فلم يعدْ يستطيع الخروجَ، وأدخله القدرُ صدفةً السجنَ مثلما يُدخِلُ الكثيرين، مرَّتْ كثيرٌ من الدقائقِ؛ فبدأ الحاكمُ يستطلعُ نافذةَ الزنزانةِ وهو ينظرُ إلى الحراسِ بحذرٍ، ثم نظرَ إلى زنزانةِ ريسال التي شعرَتْ في الوقتِ ذاتِه أن ظلًّا يقفُ في القضبانِ الخلفيةِ لنافذةِ إحدى الزنازين؛ فالتَفَتَتْ ربَّما اعتقادًا منها أن هذا الظلَّ هو لمالك حبيبها، وبدأ ضبابُ النورُ يُزاحُ رويدًا رويدًا لتلتقطَ هذه العيونَ أوَّلَ صورةٍ بريئةٍ نقيَّةٍ لها منذ ما يزيدُ على عشرين عامًا حين كانت طفلةً، فوجدَتْ حين نظرَتْ

من نافذتِها بعد نقاءِ الصورةِ وجهًا جميلًا متعبًا يحدِّقُ سارحًا يرتاحُ في ملكوتِ براحِ بريقِ عينيها الطاغيتين تحت ظلالِ الأهداب الوارفةِ، ثم تنهَّدَتْ كأنَّ ملائكةً تنزَّلَتْ بأفراحِ السماءِ:

- سأموتُ فداكَ لكي أُبعثَ في عينيكَ مرةً أخرى.

.. لم يسمعْها لكنه ربما لمح حركةَ الشفتين فقال محدِّثًا روحَه:

- يا ويحَ روحي كيف خُفِقَ بي هكذا في ذلك اللقاءِ الذي كان هنالك في غفلةٍ من العالمين تحت الأحراشِ وقتَ مرورِ القمر.

.. ثم ابتسمَتْ في فرحٍ عجيبٍ أسقطَ الجهازَ الإداريَّ لمفاصلِ ذلك الباحثِ عن المجهولِ، وهو ما يزالُ يرتجفُ قلبُه:

- ولأني أحبُّك حبَّ مُودِّعٍ ينتفضُ بعدَ مذبحةِ فراقٍ وألقاك كلَّ يومٍ كآخِرِ يومٍ أرى فيه حبتي عينيك، فلا تسأليني لماذا أشهقُ حزنًا حين نلتقي ذات فرحٍ صدفةً لنرتِّبَ لِعناقِنا موعدًا.

ياللهولِ كيف تمَّت السيطرةُ على منطقةِ الروحِ في أقلِّ من بضعِ خفقاتِ قلب، هل كانت هذه أنثى أمْ أن تلك هي الحواراءُ التي يدَّعون؟

.. ثم عادت تنظرُ بعينيها الراهبتين نحو السماءِ، وكأنها عادت ترتلُ في حديثٍ كان بينها وبين ملائكةٍ، وتحدِّثُ قلبَها:

- كلُّ اهتمامي بأنْ أخطِّطَ إذ يمرُّ وكلُّ ما خطَّطْتُ تَمَّ، ثم مَرَّ ولم أحدِّقْ في العيونِ ولم أهتم، وكأنَّ شمسُ اللهِ غابت أو علاماتُ القيامة، ماذا سيحدثُ إن وقفْتُ لأبكي من شوقي أمامَه.

ياليت عندي من الشجاعةِ أن أُبيِّنَ حالَ عيني بعدما وجهي استدار، ولكي يرى زلزالَ روحي في الهوى والشمسُ أخرجها ارتعاشي عن المدار.

.. بينما كان الحصانُ العنيدُ تزفرُ في القفصِ عيناه:

- تتراقصُ روحي رغم بعادِك حين تغني وعيني لحزنِك قد بكَتْ، وأصابعُنا من دونِ سلامٍ بين يدينا برغمِ البُعْدِ تشابَكَتْ.

.. ثم رأى انسدالَ طوفان الليلِ في شعرِها المخيفِ سوادُه من رهبةِ الجمالِ المقدَّسِ، وكأن موجاتٍ إلهيةٍ مِن رعشةِ جسدِها تهمسُ فيه، وبينما هو يميل حين تميلُ سمع دقَّاتِ قلبِه:

- ذهب الحريرُ على العيونِ مِن النسيمِ إلى اليمين، فانهار قلبي من الصَّبابةِ زاحفًا نحو الشِّمالِ، مَن يخبرُ الشَّعْرَ الرَّهيبَ عن الفؤادِ صبابتَه، وبأنَّ أنباءَ الزلازلِ عامَّةً فوق احتمالي.

.. كانت الخطَّةُ الجديدةُ ككلِّ مخططاتِ مطابخِ عالمِنا العربيِّ قد سُرِّبَتْ إلى العامةِ في المدائن والطرقات، وما عاد بيدِ الحاكمِ إيقافُ ذلك الذي يحدثُ.

.. استغلَّ الحاكمُ وقتَ تبديلِ نوبةِ الحراسةِ وتسلَّلَ إلى غرفتِه الخاصةِ في الجناحِ العلويِّ للقصرِ، ثم ذهبَ في نومٍ عميقٍ بعدَ أن رتَّبَ مع كبيرِ الحراسِ مراسمَ جلسةِ الغدِ تمامًا، وقد كان كبيرُ الحراسِ يراقبُ الموقفَ من بعيدٍ كعادتِه؛ ليحاسبَ المقصِّرين من الحرَّاسِ وغيرَهم، ولكنه استأذنَ الحاكمَ في سؤالٍ:

- يا سيدي، هل أنت في هذه المرة على يقينٍ من ترتيب ما سيحدث في الغد دون مفاجآت؟

.. بدا الحاكم مترددًا ثم أجاب بابتسامةٍ تعكسُ تقديرَه لخوفِ كبيرِ الحراسِ عليه:

- اطمئنْ يا ذراعي اليمينِ، لا يكيدُ للمرأةِ إلا امرأةٌ مثلُها.

.. استدعى كبيرُ الحراسِ طبيبَ القصرِ البارعِ للحاكمِ؛ ليقومَ بتجميلٍ بسيطٍ لِشَفَتَي الحاكمِ .. وفي الصباحِ تجمهرَ الناسُ وبدأتْ المدينةُ تشعرُ بوجودِ وجوهٍ غريبةٍ، ممَّا يعني أن الأمرَ

أصبحَ مثيرًا للمدائنِ كلِّها، لكنْ لا توجدُ بالطبعِ وجوهٌ من شمالِ روماف بعدَ أحداثِ الاغتيالِ الدَّاميةِ قبل انفصالِ الجنوبِ، والعَداءِ الذي قسَّمَ قلبَ المدينةِ إلى نصفين.

.. استيقظَ الحاكمُ في الصباحِ فزعًا على صوتِ الحراسِ يخلعون البابَ، فلمَّا دخلوا في التوقيتِ نفسِه أخبروه أنهم كانوا يطرقون البابَ منذ ما لا يقلُّ عن ساعةٍ، وأنهم ظنوا أن مكروهًا ألمَّ به، طمأنَهم الحاكمُ بعد أن علمَ أن كلَّ الساحةِ في انتظارِه.

.. نظر كبيرُ الحراسِ إلى عيني الحاكمِ في آخر نظرةٍ له بعد انتهاء الترتيبات الأمنية المشدَّدةِ، فقرأ فيهما:

- خوفٌ كثيرٌ، خوفٌ من عينيها، وخوفٌ عليها، وخوفٌ من العامة، كاستيقاظِ أهل الكهفِ على سوقٍ غريبٍ ووجوه لم تُرَ من قبل، كان هذا اليوم في عيني حمزة، ذلك الحاكم الذي كانت تُحفرُ تحت أقدامِ جوادِه الصخورُ، ما عادت تخشى الرمالُ وقْع أقدامِه عليها، وكأنهما قدمي قطةٍ كان يدلِّلُها أصحابُها.

أمسى يمهِّدُ للقرارِ قبل أن يصدرَه؛ كي لا يبيت العامةُ ساخطين، غير أن سخطَ هؤلاء ليس كالسخط، وإنما حرائقُ كبرى، وجثثٌ مشويةٌ على فحم الانتقامِ إذا شعروا بأنه خارجٌ عن الكتابِ، ذلك الذي كان رمشُ عينيه فرمانًا أصبح حاكمًا مع وقفِ التنفيذِ بعد أن أضحى لا يملك، ولو صرخ قرارًا واحدًا ولا سيما أن ضجيجَ الطريق يحكم الآن، تجرَّأتْ الحيوانات في وقتٍ ما عاد فيه يحكم الغابةَ الأسدُ.

.. قبض كبيرُ الحراسِ قبضةً بيدِه كعلامةٍ على قوةِ الحراسةِ؛ ليطمئن الحاكمَ، ثم خرجَ الحاكمُ أخيرًا في فوضَى عارمةٍ على الناسِ فوقفوا جميعًا يردُّون عليه التحيةَ، بينما عيناه ما تزالان تبحثان عن المجهولِ في لهفةٍ، كاشتياقِ طفلٍ للحلوى التي في فمِ طفلٍ آخر يمسك في يديه سكِّينًا.

.. للقدرِ أحيانًا وقتٌ يتدخَّلُ فيه؛ ليوقفَ تدخُّلَ البشرِ في اختيارِ ما كان متاحًا للاختيارِ، على خلفيةِ سابقِ علمِ الرحمن أن البشرَ يختارون أحيانًا ما يؤذيهم وهم لا يعلمون؛ ليبدأَ اللهُ بالتحكُّمِ في مواقعِ القلوبِ وتقاطعِ الخطوطِ؛ لتلتقي الأرواحُ ربَّما لمزيدٍ من كرمِ حنانِ السمواتِ على هذا الإنسانِ العنيدِ ضدَّ نفسِه.

.. انتظرَ الحاكمُ لحظةَ دخولِ ريسال كما تنتظرُ أفراخُ الطيورِ أمَّهاتِهم بعد هجرةٍ بعيدةٍ، واقتادَ الحرَّاسُ مالكَ مقيَّدًا وجروه جَرًّا إلى ساحةِ المحاكمةِ الكبيرةِ أمام القصرِ، فبدأ يقاومُ غاضبًا فعنَّفَه الحرَّاسُ، الأمرُ الذي استغلَّه كبيرُ الحرّاسِ لتحسين صورةِ الحاكمِ؛ فتقدَّمَ وأمرَ الحراسَ أمام الحشودِ بأن يتركوه له، وقام كبيرُ الحراسِ بفكِّ قيودِ مالك وصافحَه وأتى له بمقعدٍ وأجلسَه بين صفٍّ من الضباطِ الجالسين في إحدى الصفوفِ الأولى، ثم نادى مترجمو الإشارةِ، وقال لهم أخبروه لِيفهمَ:

- هذه البلادُ لا مكانَ فيها إلا للإنسانيةِ، وأنت في عيون الحاكمِ متهمٌ، وما تزال ضيفًا عزيزًا حتى يُثْبَتَ العكسُ، وهذه تعليماتُ الحاكمِ..

.. قطعَ الحاكمُ خطبةَ كبيرَ الحراسِ، وذهب وأخذ مالك وأقعدَه بجانبِه بعدَ أن أخذ بيديه القيودَ والأغلالَ ووضعَها على مقعدٍ بينهما وقال له:

- لقد قتلْتُ بسيفي هذا مَن عذَّبَك في بلادٍ لا تعذِّبُ أحدًا، سنعلِّمُ البشريةَ جميعَها ما معنى حقوقِ الإنسانِ في بلادِنا، وأنا كحاكمٍ لبلادِ العدالةِ لك مني وعدٌ أنه لا مكانَ لك إلا بجانبي حتى تنتهي المحاكمةُ، ويقولُ القاضي كلمتَه فيك.

.. يبدو أن الحاكم كان يريد أن يُسمِعَ الناسَ، وإتقانًا لدور الأبكم توجَّه مالك إلى المترجمين ليفهم ما قيل له، بينما ارتفعَ صوتُ تصفيقِ الحشودِ الدامعةِ:

- الله أكبر، الله أكبر.. يحيا العدلُ..و..

.. واطمأنَّتْ نفسُ مالك كثيرًا جدًّا، وجلس بالفعلِ في الصفِّ الأولِ بين الحاكمِ والضباطِ، وأشار له كبيرُ الحرَّاسِ أن ينتظرَ هادئًا عزيزًا مكرَّمًا حتى يدعوه القاضي للوقوفِ.

وكان الجميعُ في انتظارِ دخولِ ريسال، وما هي إلا لحظات حتى وجدَ الحاكمُ الحرَّاسَ يقتادونها، وكاد لسانُ الحاكمِ أن ينفلتَ ليوبِّخَ الحرسَ على ما اقترفوا في حقِّ معصمَيها الناعمَين، ثم أوقفوها في منتصفِ الساحةِ استعدادًا لجلاءِ الحقِ والحقيقةِ أمامَ الناسِ أجمعين.

-8-

كانت عينا ريسال تبحثان في هدوءٍ عن ذلك الوجهِ المجهولِ الذي رأتْه ليلةَ أمسِ، الذي حسبَتْه مالك، حان موعدُ وقوفِ رامي السِّهامِ أمامَ الكفيفة التي ما تزال تبحثُ نفسُها عن ذلك الوجهِ الذي رأتْه عيناها أوَّلَ مرةٍ وابتسمَتْ له، لكنها لم تنجحْ في العثورِ فتنهَّدَتْ وانتظرَتْ ما سيفعله القدرُ.

.. توقَّفَتْ أجهزةُ أحلامِ الحاكمِ وتوقُّعاتِه، وبدأَ نورُ تسليمِ روحِه للسمواتِ يشرقُ في الروحِ ويلمعُ في العينين ومِن أنفاسِه زفيرًا للياسمين وشهيقًا للريحان، هو في عالمٍ آخر غير عالمنا الذي نحن فيه لكنْ أين، هو نفسُه لا يدري.

أشار كبيرُ الحراسِ إلى الحاكمِ ليبلغَ الناسَ بأنه سيفضحُها الآنَ أمامكم ثم إعطاء الإشارةِ حين وقفَت ريسال، لكن الحاكمَ أعطى الكلمةَ لكبيرِ الحراسِ وسطَ ذهولِ كبيرِ الحراسِ من هذا التغيير المفاجئِ، الحاكم ذلك البطل الذي استسلم كالعارفين بالله لقرارات القدرِ على حلبةِ مصارعةِ الحياةِ.

نظرتْ ريسال إلى كبيرِ الحراسِ وحسبتْه الحاكمَ، وانتظرَتْ الموتَ في صمودٍ وإيمانٍ لكنها لأولِ مرةٍ يشهدُ وجهَ القمرِ غيومًا، وترقصُ في عينيها الدموعَ وهي لا تعلمُ سرِّها، وحدَّثَتْ نفسَها:

- لقد كان يحقُّ لي أن أفرحَ بعدَ عودةِ النورِ لعينيَّ، ما هذا المجهولُ الذي يجعلني لا أفرحُ، ربَّما هذا الموتُ الذي يقفُ أمامي؟ لقد وُلِدْتُ والموتُ أمامي، لا، ليس الموت، إنما أين ذلك الرجلُ الذي رأيتُه؟ أين؟ يجوزُ أنني حزينةٌ لأنني لم أجدْه، هل أعدمه هؤلاء الجبارون؟! مالك حبيبي!!

وكان الرامي الذي سيطلقُ من القوسِ سهمًا باتِّجاهِ صدرِ ريسال قد استعدَّ، وقد كان رجلًا بدينًا غليظَ الملامحِ عبوسَ الوجه، ويبدو أنه كان رجلَ الإعدامِ في الجنوبِ، فإذا انطلقَ السهمُ باتِّجاه صدر ريسال، وخافت منه وابتعدَت فهذا يعني أنها ليست كفيفة، وتتحسَّن صورة الحاكمِ الذي راهن حسب ما يعلمه الناسُ أنها جاسوسةٌ، وأن وراءَها أنظمةً تعملُ لحسابِها، أما إذا لم ترتعدْ وأصابها السهمُ ستموت، ويكون في الوقتِ ذاتِه بين الحشودِ أتباعُ الملكِ يهتفون باسم الحاكمِ والعدلِ وتطبيقِ الشريعةِ وتلاوةِ الآياتِ؛ ليأخذوا العامةَ في مجرى سياستهم بهدوءٍ وسلام.

.. لقد أُدْرجَ اسمُ مالك في ترتيبٍ بعيدٍ لاهتماماتِ القمرِ والقمرُ لا يدري، ربَّما كاهتمامِ غريقٍ في أثناءَ بحثِه عن قشَّةٍ تنقذَه من الغرقِ باحتساءِ قدحِ خمرٍ.

.. بحسبِ آخر إحصائيةٍ للقدرِ قد تمَّ التقاطُها قبلَ الجلسةِ لملامحِ الحاضرين: العدلُ سينتصرُ، وستعودُ إلى الحاكمِ هيبتُه، والناسُ سيقتنعون أنهم أخيرًا في دولةٍ تطبِّقُ الحدودَ السماويةَ للمجرمين، ولا ريبَ أن هذه الخطَّةَ النسائيةَ المُحكمَةَ ستخلِّصُ نساءَ الحاكمِ من امرأةٍ كادت أن تخطفَ قلبَ زوجِهن، وأن نجاح الخطةِ سيكون انتصارًا كبيرًا، وكأن الدنيا في هذا اليومِ تعتمدُ في حياتِها على موتِ هذه الفتاةِ، إنها الدنيا هذه الغابةُ الكبيرة المتوحشة!

.. أوقفَ كبيرُ الحراسِ كلَّ الساحةِ بما فيهم الحاكم نفسُه، ومالك الذي يقفُ بجانبِه احترامًا لقُدسيةِ الموتِ على حدِّ قوله، ثم أخذَ الرامي ريسال من يدِها مِن موقعِ وقوفِها في منتصفِ الساحةِ وأوقفَها بحيث تكون هي ومالك على خطٍّ واحدٍ مستقيمٍ.

علمَت بسهولةٍ ريسال أنهم يمتحنونها أهي كفيفة أم لا، لكنها حين رأتْ قوَّةَ شدِّ الرامي للسهمِ في القوسِ أنها إذا تجاوزَتْه سينطلقُ وراءها في صدرِ أحدٍ بعينِه؛ فأخذتْ من عين الرامي خطًّا وهميًّا مستقيمًا، ثم نظرَتْ خلفَها لترى إلى أين سينطلقُ بعدَها فوجدَتْ ذلك الوجه الذي فتحَتْ عينيها عليه وبجانبِه قيودٌ فظَنَّتْ أنه مالك، وهذه حيلةٌ للخلاص منه، فحدَّقَت في عينيه وابتسمَتْ آخرَ ابتسامةٍ لها، فابتسمَ مالك وابتسم الحاكمُ؛ فظنَّ أحدُهما

أنها له بينما اعتقد الآخر يقينًا أنها موجهةٌ إليه، شيءٌ ما في قلبك أحيانًا يخبرُك أن طعمَ الحلوى التي في فمِك ليس لك!

واستدارت ريسال لاستقبالِ الموت الذي تعوَّدَ عليها، وحدَّقَ الرامي في صدرِ الملائكيةِ وانتظرَ الإشارةَ بإطلاقِ الموتِ في منتصفِ الروحِ حسبَ آخر أنباءٍ علمَها الناسُ في تسريبات ليلةِ أمسِ، وما هي إلا بضعُ لحظاتِ سكونٍ في المسافةِ الزمنيةِ الفاصلةِ بين إعطاءِ كبيرِ الحراسِ الإشارةَ حتى انطلاقِ الموتِ في خطٍّ مستقيمٍ باتجاه صدرِ ريسال أو مالك.

.. لم يعلمْ أحدٌ من الحاضرين في طريقِ انطلاقِ السهمِ هل هناكَ مفاجآتٌ جديدةٌ قد تحدثُ أم لا، وبحسبِ منطقِ العاقلين هناك نتيجةٌ واحدةٌ حتميةٌ، وهي ارتشاقِ السهمِ في صدرِها، إلا مع ريسال التي تعوَّدَ المترقِّبون معها بمفاجآتٍ، وهذه هي المفاجأةُ أنه لا مفاجأة في هذه المرَّةِ.

.. وشهقَتْ أنفاسُ المحتشدين، هل ستموتُ هل ستفلتُ السهمَ، هل هي كاذبة، صادقة، بعضُهم تمنى أن يُشَلَّ ذراعُ الرامي، والبعض الآخر يرجو أن يخطئ الهدفَ، ولكن كيف وهو معروفٌ باحترافه الصيدَ والإيقاعِ بثلاث عصافيرَ في رميةٍ..

.. أُطلِقَ السهمُ ونفد الموتُ من يسارِ صدرِ الملائكيةِ إلى ظهرِها، بينما ما تزال صامدةً وعيناها ما تزالان تفتِّشان عن ذلك المجهولِ الذي خدَّرَ جسدَها، ربَّما تراه وتلتقطُ له الصورةَ الثالثةَ، وبين الحراسِ المحتشدين لحمايةِ الحاكم وتأمين الجلسةِ من احتمالاتِ اندفاعِ العامةِ لم تجدْه.

.. وحسب الخطَّةِ المرسومةِ في حالِ سقوطِ ريسال ظهرتْ بين العامةِ أصواتٌ تهتفُ بآياتِ اللهِ في فرحٍ بالخلاصِ من الزانيةِ والمطالبةِ بقتلِ عشيقِها، بينما بدأتْ بعضُ الرأس تضعُ علامةَ تعجُّبٍ؛ كانت بقيةُ العامةِ قد شُحِنَتْ بهتافِ (الله أكبر)، ودوَّى الهتافُ يزلزلُ الساحةَ، وذهب العامةُ بالفعلِ حسبَ الخطةِ المرسومةِ لِدغدغةِ الساذجين؛ فصار الجميعُ يهتفون،

بينما كان يتمزَّقُ قلبُ الحاكمِ وتهطل بالقهر عيناه، وسقطَ مالك مغشيًّا عليه بعدما رآها ترقدُ في دمائها، فأعلن كبيرُ الحرَّاسِ أن جلْدَ مالك سيتمُّ في قصرِ الحاكمِ، حتى لا تعمُّ الفوضى الجنوبَ مرةً أخرى عندما يفيقُ، وأن على الناسِ ألا تأخذهم رأفةً في دين اللهِ ويتعاطفون مع الزانيةِ التي ماتت بالتطهيرِ.

لم تعطِ الهتافات الجهوريةُ لعناصرِ الحاكمِ السرِّيةِ فرصةً للسماحِ للعوامِ بالتفكيرِ في فكرةِ ضربِ النظامِ الحاكمِ للمبادئ التي قامت على أساسِها دولةُ العدالةِ.

.. كانت ريسالُ ما تزال تحتضرُ، وبدأ العدُّ التنازلي لأنفاسِها الأخيرةِ، وحملها الحراسُ بأمرِ كبيرِ الحراسِ بعد إشارةٍ من الحاكمِ إلى القصرِ وسطَ الذهولِ الذي ما يزالُ مرسومًا على ملامحِ كبيرِ الحراسِ من أوامرِ الحاكمِ الذي بدا له أنه ممسوسٌ.

وبإشارةِ كبيرِ الحراسِ للناسِ بالانصراف أُسدل الستارُ عن عيونِ العامةِ في القضيةِ، وحال بينهم وبين متابعتِهم كواليس الموتِ ذلك المسُّ الذي يسري في روحِ الحاكمِ.

.. انطلقَ الحاكمُ يأمرُ كبيرَ الحراسِ بوضعِ جثمان ريسال في غرفةٍ خاصَّةٍ، ربما أراد أن يودِّعها قبل الرحيلِ الكبيرِ بقُبلةٍ على جبينها، ثم أمرَ الجميعَ بالانصرافِ خارجَ الغرفةِ وأُغلقَ عليهما البابُ، وما هي إلا مسافةَ دقَّتي قلبٍ داخل الغرفةِ حتى فتح الحاكمُ البابَ، وكأنَّ الصرعَ أصابه وهو يصرخُ مناديًا الحرَّاسَ لاستدعاءِ الطبيبِ، في لحظةٍ توقَّعَ فيها الحرَّاسُ أن الحاكمَ قد أصيبَ بالهوسِ، وكيف له أن يستدعي الطبيبُ لجثّمان زانيةٍ فارقت روحُها جسدها النَّجس، إلا أن طريقةَ استغاثتِه جعلَت الحراسَ ينفذون الأمرَ؛ سحبوا الطبيبَ سحبًا من مضجعِه إلى غرفةِ ريسال، ثم أشار له الحاكمُ كأنما أصابتْه المفاجأةُ بالخرسِ أنها على قيد الحياةِ، وأن عليه أن ينقذَها، وعاد يطارده كابوس المرأة التي تخرج من قبرها.

.. استأذن الطبيبُ الحاكمَ على عجلٍ في أن يخرجَ حتى يقومَ بعملِه دون توتُّرٍ؛ فخرج الحاكمُ مستسلمًا للقدرِ ولذلك الشعورِ الذي تمكَّنَ منه، وحاول أمام الحراسِ في طرقات القصر أن يلملمَ ما تبقَّى من فلولِ كبريائه، حتى يبحث عن مبررٍ منطقيٍّ يفسرُ به لكل هذه

العيونِ المتنمرة المرتقبة لما يجري من ردودِ فعلٍ لم يتعوَّدوا عليها في هذه الشخصيةِ الصلبةِ التي قادت حروبًا شرسةً مع ملوكِ الشمالِ، حتى نجح في الانفصالِ وإقامةِ دولةٍ تنفِّذُ حدودَ الله.

.. فتحَ الطبيبُ البابَ بعدَ ما لا يقلُّ عن عشر دقائقَ؛ ففُزِعَ حاجِبَا الحاكمِ من غفوةِ ترقُّبِ عينيه المحلِّقتين بسوادِ تجاعيدِ الحزنِ الكبيرِ، واستسلمَ لما قد يخبرُه به وجهُ الطبيبِ في رسالةٍ صامتةٍ في خبرٍ عاجلٍ قبلَ النطقِ بالحكمِ عبرَ نظرةٍ إليه، لكن الحاكمَ فوجئ بالطبيبِ يأمرُ أحدَ الحراسِ بأنْ يذهبَ ليجلبَ له من مقرِّ غرفةِ عيادتِه الأدواتِ التي على المنضدةِ هناكَ، ويسرعُ إليه بها في حقيبةٍ، ثم دخلَ وأغلقَ البابَ بعد تشديدِه على كبيرِ الحراسِ بمنعِ الدخولِ.

.. كان المشهدُ كفيلًا بأنْ يريحَ قلبَ الحاكمِ المتمزق بعدَ عِلْمِه أنها ما تزال بذلك على قيدِ الحياةِ، وأن الطبيبَ يحاولُ جاهدًا إعادتها إلى الحياة، وقد كان هذا كفيلًا بأن يستعيدَ الحاكمُ أشلاءَ روحِه المبعثرةَ، ويلملمَ آخرَ ما تبقَّى أمامَ البلاطِ والحاشيةِ والحرسِ والخدمِ وزوجاتِه والناسِ مِن عرشِ كبريائه، الذي بني على تسليح المبادئ وخراسانات الحقِّ، وبالفعلِ أمرَ كبيرَ الحراسِ بإخلاءِ جميعِ الطرقاتِ المتجهةِ إلى غرفتِه الخاصةِ في الوقتِ الذي بدأ فيه يفكرُ كحاكمٍ في ردودِ فعلٍ دبلوماسيةٍ، وسيناريوهاتَ مختلفةٍ للردِّ على كلِّ مشهدٍ يُتوقَّعُ حدوثُه حين سيتشرِّفُ كوكبُ الأرضِ وهذا العالمُ بهذه الروحِ المجهولةِ في عينيها الطاغيتين، وكأنَّ آخَر ما توصَّلَ إليه المنطقُ في ترتيباتِه أنها ستعيشُ، وأن فكرةَ الموتِ لا يوجدُ واقعٌ في الخَيالِاتِ لها.

.. وبدأ الحاكمُ يتمتمُ بِحزنٍ مكتومٍ في الأعماقِ:

- أعاهدُ براءةَ عينيكِ أن أمشيَ أحملُك على ظهري يا طفلتي حافيًا في طرقات المدائنِ، أطعمُكِ قطعًا مني لو تأكلين في فمك، وأطحن عظامي صانعًا رغيفين، وذلك الحساء الدافئ من دمائي.

.. ركنَ الحاكمُ ظهرَه على حائط جدارِ غرفةِ الحياةِ مستسلمًا للسمواتِ، وما يمليه عليه القدرُ في الأحداثِ القادمةِ، فغفا قليلًا فجاءتْه في المنامِ تقولُ له:

- كنتُ تنتظرُني أموتُ، ثم تجري وراءَ موكبِ جنازتي لأرى في عينيك الهوى، وأنا كنتُ أرجوك في الدنيا كثيرًا جدًّا ولم تلتفِتْ؟!

وفجأةً انفتحَ بابُ الغرفةِ بعد ما لا يقلُّ عن بضعِ ساعاتٍ في أكبر عمليةٍ جراحيةٍ في تاريخِ العشاقِ، فُزِعَ الحاكمُ من غفوتِه كعادتِه وهبَّ واقفًا ينتظرُ علاماتِ وجهِ الطبيبِ من بعيدٍ، وقد ذهبَتْ كلُّ خطِطِه في التماسكِ كما يذهبُ الترابُ فوقَ الصخرِ أمام هجومِ الريحِ في يومٍ عاصفٍ، وكأنَ أمرَ اندهاشِ كبيرِ الحراسِ أصبحَ عاديًّا، فما عادَ يندهشُ لكنه حافظَ على صمتِه؛ لأنه لا يعلمُ بأي نوعٍ من الملامحِ يجبُ أن يتلوَّنَ ليرضي سيدَه، وبينما كان الحاكمُ يترقَّبُ أن تقرأَ عيناه شيئًا من ملامحِ ذلك الطبيبِ الذي أنهكتْه الجراحةُ الطويلةُ، يحاولُ أن ينقذَ عصفورةً من مخالِب الموتِ الشَّرسِ الذي أرسله ذلك الرامي، ونفد بجوارِ قلبِها، وقالَ الطبيبُ للحارسِ بينما الحاكمُ يخطو عدَّةَ خطواتٍ في الممر الطويلِ للطُّرقةِ باتِّجاههِما:

- أحضرْ لي من غرفتي المشر...

.. تلقَّفَ تنصُّتِ الحاكم على شفتي الطبيبِ نصفَ آخرِ كلمةٍ نطقَها، وقاطعَه في غضبٍ عارمٍ معجونٍ بالحزنِ الغريبِ وهو يقبضُ على قميصه من العنقِ حتى كاد أن يشنقَه:

- لأي شيء تريد المشرحة أيها المعتوه؟!

- يا سيدي، أنا أقولُ له أحضرَ المشرطَ الصغيرَ لأقطعَ الخيطَ الذي أغلقْتُ به الجرحَ.

.. رحمةُ اللهِ على الكبرياءِ الذي وضعَه الهوى تحت أقدامِ الحكايةِ، وبنصفِ عينٍ وقفَ كبيرُ الحرَّاسِ خارجَ الغرفةِ، حينما بدأتْ أقدامُ الحاكمِ تحملُه إلى حيث تنامُ ريسال؛ وكان قد

دخل الحاكمُ ونظر إلى جسدِها المتمدِّدِ على وداعِ الحياةِ، ثم تطلَّعَ إلى ملامحِ القمرِ وشهقَ نسيمَ الفرحةِ بالهوى، ثم استدار وسأل الطبيبَ الذي كان يقفُ خلفَه في فوضى:

- هذه المرأةُ أمانةٌ في عنقِكَ، ولو استدعيتُكَ لإنقاذي أنا شخصيًّا لا تطعْني؛ لأنه لا عمل لك سوى في هذه الغرفةِ مع هذه المرأةِ على هذا الجرحِ، حتى يلتئمَ وتشرقَ على العالمين عيناها مرةً أخرى.

- أمرُك سيدي، لك ما تريدُ.

- بل لك أنت ما تريدُ على ما فعلتَه اليومَ، وما سوف تفعلُ.

- لم أفعلْ شيئًا لولا رحمةُ اللهِ يا سيدي بها، فقد مرَّ السهم وبينه وبين القلبِ ما لا يسمحُ بمرورِ نملةٍ، في الوقتِ الذي مسَّ فيه الموتُ رئتَها اليسرى، ولولا أن الله أمرَ الموتَ أن يؤجِّل موعدًا كان بينهما لماتت المرأةُ.

.. استدعَى الحاكمُ مِن مكانِه رجلَ الإعدامِ، ذلك الرَّامي الذي رمى ريسال، فجاء يسعى خائفًا يقدِّمُ الاعتذار على ما حدثَ من خطأ في أن السهم لم ينفدْ مِن قلبِها، وأن الرميةَ لم تكن قاضيةً؛ فتفاجأ حين رأى ابتسامةَ الحاكمِ تملأُ روحَه وهو يسألُ:

- هل أخطأتَ رميةً من قبل يا رجلَ الإعدامِ؟

- لا يا سيدي، وأنت تعلمُ أنني لم أخطئ رميةً ولو كانت تطيرُ كالبرقِ فوق السحابِ.

- لماذا أخطأتَ الرميةَ في القلبِ هذه المرةَ على بعدَ ما لا يزيدُ عن بضعةِ أمتار؟!

- حين نظرتُ إلى قلبِها وجدْتُ وكأن سبعين ألف طفلٍ يصرخون عليَّ ويبكون ويقولون: إنها لبريئةٌ ممَّا يدَّعون، ووجدْتُ يدايَ مرغمتان على ما حدثَ وعينايَ.

- هل تريدُ أن تقولَ شيئًا يا رجلَ الإعدامِ؟

- لا يمكنُ لأحدٍ أن يقتلَ الحقيقةَ، وكلُّ ما في وسعِه هو إصابتُها فقط.

- إلى أين اتجه السَّهمُ في حساباتِك لو كانت قد أفلتَتْه في الخطِّ المستقيمِ عندما أُجبِرْتَ على التصويبِ بعيدًا عن قلبِها؟

.. تردَّدَ الرامي طويلًا وقبلَ أن ينطقَ وعدَه الحاكمُ بإلحاحٍ وأقسمَ أن له الأمانُ وأكثر؛ فقال الرَّامي وهو يضعُ عينَه في الأرضِ:

- إليك يا سيدي.

- هل كنت ستقتلُني يا رجلَ؟!

- لا يا سيدي، كنتُ على يقينٍ أنها لن تفلتَ السَّهمَ.

- ومَن أدراك؟! لا تقُلْ لي أنك بالغيبِ مِن العالِمين.

- لقد ابتسمَتْ، وابتسمْتَ لها أنت يا سيدي أيضًا.

- وابتسمَ الذي كان بجانبي أيضًا يا رجل.

- إن السهمَ وعينيها وعينيك كانوا على ذلك الخط المستقيم حينما كانت تصوِّبُ عيني.

- انصرِفْ ولك الأمانُ.

- لقد قلتَ في وعدِك «لك الأمان وأكثر» يا سيدي.

- وما «الأكثر» الذي تريدُه يا رجلَ الموتِ؟

- أن يكونَ هذا آخرُ عهدٍ لي بالموتى.

.. أعطى الحاكمُ الطبيبَ تصريحًا مفتوحًا بطلبِ أيِّ شيءٍ في أيِّ وقتٍ مِن أيِّ مكانٍ، مهما بلغَ لإنجازِ مهمِّته، ثم خرجَ إلى الممرِّ وقد استعاد كبرياؤه عافيتَه فقال لكبيرِ الحراسِ:

- ذراعُك الأيمنُ إن أُصيبَ بالسرطانِ له علاجان؛ أولهما أن يُكتشَفَ الداءُ مبكرًا فيُعالجَ، وإما أن يكون الخبيثُ قد بدأ في الانتشارِ وهنا يجبُ أن يُبترَ على قولِ جمهورِ الأمواتِ الذين قالوا بعدَ موتِهم، ما كان لنا أن نتمهَّلَ حين كان يجبُ أن نتِّخذَ قرارًا بالحياةِ.

- لم أفهم سيدي ما تقصدُ، اعذرني ولو أنني لك خادمٌ أمين.

- اختر ممَّا بين القوسين: (تظلُّ ذراعي وكاتمَ أسراري، أم تختارُ الذهابَ ولك الأمانُ)؟

- رقبتي لك يا سيدي.

- لا تعطني ما هو لي، وإنما أعطني ما هو لك.

.. فأشارَ كبيرُ الحراسِ إلى عينيه كإشارةٍ منه أن أعطيك نور عيني، فقال الحاكمُ في شدةٍ:

- كتم أسرارِ مسرحِ عودةِ هذه المجهولةِ إلى الحياةِ وفقط.

- أمرُكَ سيِّدي، ولكن تذكَّرْ أنني لستُ الوحيدُ الذي يحملُ السرَّ، فالطبيبُ معنا وآخرون ربَّما، وكذلك لا تنسَ بأيِّ سيناريو سوف نردُّ على تساؤلاتِ الناسِ حولَ موتِها أو حياتِها أو عشيقِها مالك لحظةَ رميِ السهمِ.

- انظرْ يا خالد، ليس لدى استيعابي الآنَ معلوماتٌ مؤكَّدةٌ أخبرُ بها نفسي عن سرِّ اهتمامي بهذه المرأةِ المجهولةِ، لكنْ ما أستطيعُ أن أخبرَني به هو أن الأمرَ خارجٌ عن يا صاحبي السيطرةِ.

- تقصدُ يا سيدي «خارج عن السيطرة يا صاحبي».

.. ضحكًا ضحكةً عاليةً خرجَ معها همٌّ كبيرٌ من جوفِ الروحِ، وخرجَ معها من أعماقِ حمزةَ قهرٌ مكتومٌ، وعندما لاحظ كبيرُ الحراسِ الأمرَ، قال حمزة:

- ذات ضحكٍ صاخبٍ لم أخبرْك يا صاحبي أنني كنتُ أبكي واللهِ ذات ضحكٍ صاخبٍ

.. شَكَّلَ حديثُ الحاكمِ لكبيرِ الحراسِ فرقًا جوهريًّا مفاجئًا في التفافِ مشاعرِه حولَ الحاكمِ الذي ناداه لأول مرةٍ باسمِه، وقد كان يناديه من قبلِ بِكبير الحراسِ الذي قال:

- يا سيدي..

.. فاعترض الحاكمُ في عطفٍ غريبٍ:

- عندما نكون معًا ولا أحدَ معنا لا تَقُلْ يا سيدي فقط باسمي حمزة، قالوا لي: لا تتّخذْ كلبًا إذا كان مسعورًا حارسًا، فلربَّما لم يجدْ مَن يعضُّه غيرَك وقت الغدرِ، لكنك كنت دائمًا إنسانًا يا صاحبي.

.. ابتسمَ كبيرُ الحراسِ (خالد) وعانقَ الحاكمَ (حمزة) ثم جلسَا في مقرِّ البلاطِ جلسةً مغلقةً يتدبران أمرَ ما سيصدرونه للعامةِ وسكانِ القصرِ، لكن خالد قال له قبل أن يفترقَا:

- هل معظم القمصانِ حمرٌ للنساءِ ولا تعي، ويغيبنَّك في الحكايةِ أنَّ تحتَه مرمرُ، بل والكثيرُ من الشَّفاهِ أمامَ عينِك لونهم، ونسيتَ شُرْبَها للدماءِ وأن لونَها أحمرُ.

.. أغلقَ الممرُّ الذي يأخذُ إلى الغرفةِ الخاصةِ بالحاكمِ في الطابقِ العلوي للقصرِ نهائيًّا، وأقامَ الطبيبُ في إحدى غرفِه وانتهى الاجتماعُ المغلقُ على تسريبِ خبرٍ عن الانتهاءِ مِن مراسمَ جَلدِ مالك، والاستعدادِ لإرسالِه آمنًا إلى ذويه في الشمالِ، بينما في الحقيقةِ أنه لم يحدثْ كلُّ هذا، ونُقِلَ مالك إلى إحدى غرفِ الجناحِ المغلقِ، وكأن الأمر أشبه بجثَّةٍ لا يدري أين يخفيها القاتل.

.. لابدَّ أن يمضغَ العامةُ كلَّ يومٍ خبرًا مثيرًا ينشغلون به عن تردِّي الأوضاعِ، وبما أن كلَّ الأوضاعِ تخطَّتْ حاجزَ ما بعدَ التردِّي، فكان على المطبخِ أن يقدِّمَ للجائعين وجبةً حارَّةً كلَّ يومٍ يملئون بها أفواهَ جماجمِهم.

.. طلعَتْ الشمسُ على الأرضِ الشَّرهةِ للنميمةِ وتداولِ خبرِ جَلْدِ مالك، وما حَلَّ المساءُ إلا وقد تطوَّرتْ الرواياتُ، وتم تداول الإشاعات، حتى قيلَ إنه قد مات أثناءَ الجَلدِ، وقيل إنه كان يعومُ في بِركةٍ من دمائه، وفي الحقيقةِ أن مالك لم يُجْلَدْ وإنما كان في أمانٍ مِن تلهُّفِ الغاضبين لدينِ اللهِ على الفتكِ به، وكان الاجتماعُ السريُّ الثاني بين الحاكمِ وكبيرِ الحراسِ في اليومِ التالي قد دامَ لأكثر من سبعِ ساعاتٍ، يحاولُ فيهم الصديقان التوصلَ إلى أيِّ حلٍّ للخروجِ مِن أزمةِ انتظارِ الناسِ لسماعِ خبرٍ عن جثمانِ ريسال، التي أُشيعَ أن روحَها فارقَت الدنيا، ومن بين آلافِ الورقِ الذي مُزِّقَ اختارَ الحاكمُ اقتراحَ كبيرِ الحراسِ خالد أن يعلنَ خبرَ وفاتِها، وأن جثمانَها سيرسَلُ في تابوتٍ إلى مقابرِ الصدقاتِ.

كلُّ هذا وما تزال ريسال فاقدةً للوعيَ، بينما كان مالك محبوسًا في إحدى غرفِ الجناحِ يأتي له عن طريقِ كبيرِ الحراسِ الطعامُ والشرابُ وسطَ حراسةٍ أمنيةٍ مشدَّدةٍ لأبوابِ الجناحِ الذي حُرِّمَ الدخولُ فيه إلا على كبيرِ الحراسِ، وكم كان مالك حزينًا حين أدركَ حبيبتَه الموتُ، وكان يعلمُ أنها ما تزال كفيفة وأن رؤيتَها له وابتسامتَها حولَ محيطِ عينيه في الساحةِ قبل الرَّمي كانت من قَبيلِ فراسَتِها في تحديدِ موقعِه، وأن لديه يقينٌ أنها ضحَّتْ بنفسِها حتى لا يتجاوزُها السَّهمُ طائرًا إليه.

كان من الطبيعيِّ ألا يكونَ هذا الجناحُ وما يحدثُ فيه من غموضٍ بمعزلٍ عن إثارةِ التساؤلات ومحاولاتِ استنتاجِ الأمرِ مِن قِبَلِ زوجاتِه، ولا سيما أنهن علمن باقترابِ نهايةِ مصيرهن جميعًا في القصرِ، بعدَ يومِ السهامِ الخشبيَّةِ إيَّاه، فباءت جميعُ محاولاتهن بالفشلِ الذريعِ بعدَ إحكامِ القبضةِ على السرِّ الكبيرِ.

وفي صباحِ اليومِ الثالثِ بينما كان الحاكمُ يجتمعُ بزوجاتِه في محاولةٍ منه لسَدِّ أفواهِهن عن التشهيرِ به، وعودةِ الأمورِ إلى مجرياتِها لاحتواءِ الأزمةِ قال محدِّثًا نفسَه:

- أنتِ الهدوءُ ولو صرخْتِ، وإنهن إذا سكتْنَ بذاتِ صمتٍ مزعجات، وإذا تشنَّجَ عظمُ وجهِكِ في عيوني تضحكين، وإذا ضحكْنَ فلا أرى سوى أعراضِ تشنُّجاتْ.

.. ثم انتبه لهن حمزةُ وكأنه يعزيهن في حالهن:

- مساء العسل النقي عليكن.

.. فقالت إحداهن - وهي الأحدث - بينما تلوي شفتيها ضجرًا:

- لم تعد تفرقُ بين الصباحِ والمساءِ، وعلى أيةِ حالٍ لا يمكن بعدَ أن اختلطَتْ بإناءِ العسلِ كميةٌ من القطرانِ أن تقولَ على ما في الإناءِ أنه عسلٌ، ذلك أن الطعمَ الجديدَ قد فرضَ نفسَه.

.. وكأن العاشق لم يتحمَّلْ على معشوقتِه كلمةً، فقال ببعضِ الغضبِ:

- ولماذا لا نقولُ أنَّ إناءً من العسلِ، قد سُكِبَ في قعْرِ إناءٍ به أربعُ قطراتٍ من القطرانِ، فبات الذي يتناولُ قطرانًا خالصًا يتناولُ عسلًا ملوَّثًا.

ابتعدَتْ إحداهن وكأنها توبِّخُه:

- لماذا ستفتح مجالًا بيننا للشورى في أمرٍ قد بات مفروضًا علينا؟

.. تفاجأَ الحاكمُ باقتحامِ كبيرِ الحراسِ حُرْمةَ المكانِ الذي لم يكن يُسمحُ لأحدٍ بدخولِه، وهو يقولُ للحاكمِ بوجهٍ مملوءٍ بالفرحِ:

- سيدي!

- ما بك يا خالد؟

- هناك أخبارٌ، اطمئنْ..

.. اندفع الحاكمُ قبلَ أن يكملَ كبيرَ الحراسِ جملتَه باتِّجاهِ الجناحِ، وتركَ زوجاتِه وسطَ دهشتِهن، وإحداهنَّ قد شعرت بِرائحةِ حالةِ الوَلَهِ التي وصلَ إليها زوجُها، وهي تقولُ بِسخريةٍ لإحدى ضُرَّاتِها المفزوعةِ عليه عندما انصرفَ في هلعٍ:

- قد كان يبكي عليكِ ولقد كانت جنازةٌ باذخةَ الحزنِ.

.. ردَّتْ وهي تفكِّرُ وقد استنتجَتْ:

- لا يُخْرِجُ الزِّيرَ عن العطشِ لنهرٍ من النساءِ يجري إلا ارتواؤه بعشقِ أنثى في عمقِ جوفِه.

.. فقالت إحداهن (الزوجةُ الثالثةُ) في تلقائيةٍ غيرِ محسوبةٍ:

-.. تَتَعَجَّبُ مِن قِصَرِ نَظَرِ الذُّكورِ حينَ لا يرونَ مِن المرأةِ إلا الجسد فقط، ولو ناولناهم في الحُلْمِ فُرَشاةً وزَيتًا ولَوحَةً، لَرَسَمَ كلٌّ منهم تضاريسَ المرأةِ مِن الخَلْفِ ثمَّ مِن الأمامِ في شَكْلِ جسد مقطوعُ الرَّأْسِ بِتَوقِيعِ العُرْيِ على النِّصْفِ الأسْفَلِ.

.. فأسرعَتْ الزوجةُ الرابعةُ تردُّ على الثالثةِ بقولِها:

- هذه الجملةِ التي نطقْتِ بها مِن رواية «أسرار التنهيدةِ الأولى» يا مجرمة!

.. فقالت الزوجةُ الأولى وكانت عجوزًا:

- ما أدراكِ أنها مِن الكتابِ إلا أنه لديكِ كتابٌ، وإني لأظنُّ أنَّه تحت وسادة كلُّ سكانِ الجنوبِ ذلك الكتاب المحرَّم، ففيها تجدُ كلُّ نفسٍ نفسَها، إن أسوأَ أنواعِ التخلِّي وأقبحُها هو تخلِّيك عن نفسِك.

- لكن كيف لرجلٍ في هيبةِ الفرسانِ أن يعشقَ امرأة وراءها كل هذا الدمار؟!

.. فقالت أقدمهن وأكثرهن خبرةً بالجروحِ:

- قد لا نطيقُ نسيمَ وردٍ إذْ ما حاولَ أن يهُبْ، مهما تفنَّنْ كي يمرَّ وكيما يوفي بالوعود، لكننا نجري نشمُّ مِن الدُّخانِ إذا نُحبْ، وتطربْ الآذانُ جدًّا مهما تندلعْ الرُّعود.

- اطمئنوا سيحترقان ذات يومٍ في جحيم الوداعِ؛ أوَ لم تنظروا في الحبِّ كيف كانت عواقبُ الذين عشقوا؟!

.. وفي الجناحِ الممنوعِ وقفَ الحاكمُ أمامَ بابِ ريسال حتى وصلَ كبيرُ الحراسِ فقال له الحاكم:

- فتحَتْ عينيها يا خالد؟!

- لا يا سيدي، وإنَّما سمعها الطبيبُ تدعو أحدًا.

- على مَن كانت تنادي يا خالد؟

- لقد كانت تقولُ «يا صاحبَ اللوحةِ» يا سيدي.

- ومَن صاحبُ اللوحةِ هذا؟

- لا أعلمُ يا سيدي.

.. فتحَ الحاكمُ البابَ في وَجَلٍ ومشى باتِّجاهها ليتلصَّصَ فيها، ربَّما يتنصَّتُ على شيءٍ يدلُّه على طريقِ هدوءٍ يخرجُه من ذلك التشويشِ، وكان الطبيبُ قد وقفَ عندما دخل الحاكمُ الباحثُ عن الحقيقةِ، ومن خلفِه كبيرُ الحراسِ، لكن الحاكمُ أشار لهما بالجلوسِ في الاستراحةِ خارجَ الغرفةِ، وأُغلقَ وراءَهما البابُ وانفردَ الحاكمُ بالقمرِ كأنَّ القدرَ قد أخْلى له العالمَ ليجدَ ذلك الفارسُ الذي ينتمي لسكانِ الأرضِ تلك المُهْرةَ التي هبطَتْ مِن قصورِ الجنةِ.

تأمَّلَ وجهَها الحورائيَّ الملامحِ المليءِ بالقُدْسِ والبراءة، كلُّ تقسيمةٍ في وجهِها فردوسٌ وحكايةٌ، وكل التقاسيمِ فردوسٌ وحكايةٌ أخرى لا تشبه في وَهَجِها الحكايات، ولماذا أصبح هذا الوجه يشبه الكعبةَ يدور من حلوِه العالمُ؟!

وبينما هو يحدِّقُ في الجنةِ من قريبٍ فتحَتْ الملائكيةُ عينيها فجأةً في هدوءٍ، ثم ابتسمَت، ثم أغلقَتْهما على ابتسامةٍ سحَبَتْ روحَه وسطَ اصطدامِ شبكةِ أعصابِ عينيه بصاعقةٍ من الهدوءِ النورانيِّ الغريبِ.

.. تَفاجأَ الحاكمُ بِعينيه تدمعان لا يعرفُ سببًا واضحًا للدموعِ، لكنه جلسَ ووجدَ نفسَه يقولُ في فرحٍ كبيرٍ:

- الحمد لله الذي رزقني مع الحزنِ الدموعَ، وكثيرٌ مِن الناسِ بلا دمعٍ يحزنون.

.. طالت المدةُ التي مكثَ فيها الحاكمُ يبكي بصمتٍ في حجرةِ ريسال حتى سمعَ مِن عالَمِ الحقيقةِ كبيرَ الحراسِ يناديه مِن الحلمِ، ويدقُّ البابَ، ففتحَ له الحاكمُ بعدَ أن جفَّفَ الدمعَ وخرجَ معه فاقدًا القدرةَ على القرارِ مستسلمًا للسمواتِ جدًّا وأكثر وكثيرًا؛ فتساءل كبيرُ الجندِ وأمينُ أسرارِه خالد متعجبًا:

- ما بك يا حمزة؟!

- لو كنتُ أدري ما بي لكنتُ قد أخبرتُ نفسي التي تسألُني عني.

- الأمرُ جدُّ خطيرٌ يا حمزة، ولن أخفي عنك خطورةَ ما يحدثُ على الشَّيبِ الذي يحومُ حولَ شبابِ حلمِك وحلمِ الذين كانوا معك، وقُتلوا من أجلِ فكرتِكَ وحلمِ الذين ما يزالون يقاتلون معك في إقامةِ هذه الدولةِ الوليدةِ، شيءٌ كهذا قد يحطِّمُ أحلامَ ،الشُّهداءِ لكنْ ليس قبلَ أن يحطِّمَ ذلك الكابوسُ حياتَك يا صاحبي القديمَ!

- لم يكن في حساباتي يومًا أن أكون إلهًا، ولكنني رأيتُ الناسَ جميعًا يركعون، ونحن نحاصرُ الأمرَ يا خالد بقبضةٍ مِن حديدٍ.

- هذا كابوسٌ حَلَّ عليك يا حمزة ولا تنسَ أنَّك أنتَ الحاكمُ وهذه كاذبة.

- حتى ولو كاذبةً، يصدِّقُ المرءُ مَن يعشقُ، فلا تجتهدْ في إثباتِ الحقيقةِ، فلكلٍّ منا كذابٌ يصدِّقه، مع شديدِ احترامي لأطباءِ وعلماءِ العالمِ، فما تزال لديَّ علامةُ استفهامٍ حولَ نتائجِ أبحاثهم الغريبةِ، وإنني مثلًا لا أعلمُ إن كان الذين ليسوا على قيد الهوى من الكائنات الحيَّةِ أم لا.

- ويحَكَ يا حمزة!!

- لقد تم تحويلُ أوراقي إلى فضيلةِ عينيها الكافرتين بالمنطقِ، وانتهى أمري بعد توقيعِها أنه لا مانع من موتي فيها، ولقد قطعْتُ القِفارَ والغُبارَ ووضعْتُ كفَّيَّ على جدارِ الكعبةِ ودعوْتُ اللهَ أن أنسى هذا الهوى، فلماذا ما أزالُ أذكرُه وكأنَّ القدرَ متورِّطٌ في الأمرِ.

- هوِّنْ عليك يا صاحبي القديمَ إني أتقطَّعُ ألمًا عليك.

- ذلك الثلج الذي يغلي في درجة حرارة تصل إلى حدِّ التجمُّد، إنه الحب الأكثر فزعًا في تاريخ الآمنين؛ كيف أشعر بطمأنينة الملائكة حدَّ الهلع وينزل خلفَ ضلوعي الرعدُ مسجِّلًا الهدوء، كيف يبشِّرك وجهه بالجنةِ وتجدك من أكابر المجرمين في العذاب، وذلك الحريق الذي إذا شَبَّ فيك تدعو الله ألا ينزِّل عليك المطر.

- إنها ما تزال بعيدة عن ال..

- تالله إني أشعر بها يا خالد مختبئة من حولي في مكان قريب.

- اطمئن، إنها هناك في ال..

- يجوز أن تكون هناك إنما لا تنفي في الوقت نفسه أنها هنا.

- هذه أعراض الحمى يا حمزة.

- عن أي حمى تتحدث يا رجل؟!

- حمى الهوى يا صاحبي!

- تبًّا لك وللهوى يا خالد.

- لماذا تقاطعني كلما تحدَّثت فلم أكمل جملة مفيدة؟!

.. شرد حمزة بعيدًا عن صاحبه وهو يهذي:

- خُلخالُها مثلُ الأساورِ في أيادي المجرمين، مِن لفَّةِ السَّاقَين تأسرُ بالهوى عنقَ الحوار، وترى لسانَك راكعًا وبرغْمِ أنفِ مهابتِك، وتصيبُ رأسَك حين تنظرُ مِن بعيدٍ بالدُّوار، يُغمَى عليَّ إذا تُخَرْبِشُ بالأظافرِ لهفتي، أهوالُ معصمِ كفِّها وسُوارِها غيرُ السُّوار.

.. علم الصاحب الأمين أن حمزة قد اختُطِفتْ رأسُه؛ فحاول أن يلعبَ لعبةً نفسيةً عليه فقال:

- يا حمزة يا صديق الروحِ، دَعْنا نفصِّلُ أكثرَ من عمودٍ فقريٍّ للروحِ، دعْنا نمتلئ بالحياةِ، دعْنا لا نرفعُ سقفَ الدنيا على بشرٍ مثلِنا، يتغيَّرُ بين طرفةِ عينٍ وأخرى، دعْنا نعشقُ عملًا دعْنا نعشقُ هوايةً، دعْنا نعشقُ حلمًا لكي لا يسقط على رؤوسِنا سقف كابوسٍ ذا خيالٍ.

- أجُنِنْتَ يا رجلًا، أأُحدِّثُكَ عنها وتقولُ لي بشرٌ مثلنا؟!

- لا إله إلا الله، أتقصدُ أنها إلهٌ ولا حول ولا قوَّةَ إلا بالله؟!

- ليست إلَهًا يا خالد، ولكنها أيضًا ليست بشر.

- كيف سيكون هناك احتمالٌ غيرَ الموتِ إذا هدَّدَك الحُبُّ بالانسحابِ ذات يومٍ بعدَ أن جعلْتَه السِرَّ الوحيدَ لِوجودِك في الحياةِ؟

- يا أيها الأحمقُ، تتحدَّثُ عن علاقتي بها وكأنَّ بيدي الأمرَ!!

.. بينما كان يحتضنُ خالد صديقَه حمزة كان حمزة يقولُ في حزنٍ عظيمٍ يغيِّمُ على صفاءِ عينيه العميقتين:

- التحديقُ في عينيها ورطةٌ لا يمكنُ الخروجُ منها إلا بِإغماءٍ لا إفاقةَ منه.

.. وقف حمزةُ ذلك الرجلُ العنيدُ طفلًا يقولُ ويبوحُ حين كان يراقبُ زنزانتِها في الأيامِ الماضيةِ:

- من خلْفِ قضبان الحديدِ لمحتُها بقميصِ نوم؛ فوقفْتُ أبكي من الذنوبِ ودمعُ عيني قد استجابْ، صادفتُها في شرفةِ الصبحِ ارتدَتْ جلبابَها، وأشدُّ فتكًا من فواكِه عودِها عجبٌ عجابْ، بالأمسِ كنت حصدتُ عمدًا بعضَ ذنبٍ من قميص، واليومَ يصدفُ أن أسافرَ في جهنَّمَ مِن حجاب.

- أصابتْكَ جِنِّيَّةُ الشِّعرِ يا صاحبي، أنتَ لستَ في حالتِكَ، ولا بدَّ أن نساءَك والناسَ يتساءلون.

.. وكأنَّ حمزة لا يريدُ أن يبدِّلَ خالد الموضوعَ فقال لخالد متعجِّبًا:

- لن أسألَكَ عمَّ يتساءلون، لكن.. ألمْ ترَ ذلك الفتحَ الربَّانيَّ لِهذا الوهجِ الغريبِ الذي في حبَّتي عينيها الطاغيتين؛ إذ يأخذُ بالمهاجرين إلى براحِ عينيها نحو اللاعودةِ؟!

وما الأمطارُ التي تسقطُ على هذه الأرضِ إلا بخارُ أنفاسِ العشَّاقِ التي تصاعدَت وكوَّنَت سحبًا يحرُكَها النسيمُ؛ لتسقطَ فرحًا على قلوبِ الكفارِ الذين اختارهم الرحمن لينطقوا الشهادتين قبل الموت.

.. أحَسَّ خالد أن صاحبَه يحتاجُ للبوحِ، فتأدَّبَ ينصتُ ويستمع في صمتٍ لعلَّ صديقَه يرتاحُ.. فقال حمزة في ذهولٍ:

- أنا لا أمشي في طريقٍ يا صاحبي، وإنَّما يمشي بي الطريقُ، وكأنِّي أسمعُ أعماقي ترعدُ في همسٍ: لا شيءَ إلا هي سأفعلُه، وكلُّ الطرقاتِ تؤدِّي إليها، وكأن اللهَ قالَ للنور كن في عينيها، فما كان للنورِ إلا أن يكون، يا صاحبي إن اللهَ يرسلُ الحبَّ إلى الصدورِ كما يرسلُ إلى الأرواحِ الموتَ وينزلُ على الأرضِ المطرَ.

.. قاطعه خالد وكأنه غضِبَ:

- أصبحتَ تردِّدُ يا حمزةُ كلَّ الذي كنا نعتبرُه كفرًا، وقتلنا كلَّ الذين اتبعوه وما نزالُ نقاتلُ!

.. فقال حمزة وهو يضغطُ على فَكَّيه مقاطعًا خالد:

- هل تعلمُ سِرَّ تفاهتِنا، بِتفاهةِ ما بعدَ التَّثْفِيه، أنَّا حرَّمنا الحبَ علينا، فوجدْنا حكيمَ القومِ سفيهْ، الحضن بِحُضْنِ الحضنِ يخون، في حضنٍ آخَرَ يعشقُ فيه، فدعونا نحضنُ مَن نعشقْ، الجرحُ ينادي مَن يشفيه.

- يا حمزة هذا كلامُ الكفارِ الذين سفكنا دماءَهم!

- حاولْ أن تشعرَ بي يا صاحبي، صدِّقْ أن الأمرَ خارج السيطرةِ، إنها تلك الارتعاشاتُ التي تخرجُ الرأس عن قضبانِ المنطقِ، لكن اصبرْ وسنرى ماذا سيحدثُ.

- أَسَنَقِفُ مكتوفي الأيدي لنرى ماذا سيحدثُ في جغرافيا الحبِّ الوعرةِ لينقلبَ بنا جميعًا الرَّكْبُ يا حمزة؟

- وماذا بيدِنا لنفعلَه غير الصبرِ وإحكامِ القبضِ على ذلك السرِّ يا خالد؟

- لا تذكرْ لي كلمةَ الحبِّ هذه على لسانِك ولا اسمِها.

.. ثم انتفض غاضبًا في وجه حمزة:

- تتألمُ روحُك مثل طيورٍ تُذْبَحُ، ثم تعودُ لتُذْبَحَ، ثم تعودُ لتُذْبَحَ، لا سكينًا فوق رقابٍ أو في صدرِك يوجدُ سَهْمْ، ما أنت ببحرٍ وقتَ صراخِك حتى ملابسَ روحِك لم تبتلَّ، وما إغراقُك إلا وَهمْ.

.. فقال حمزة غاضبًا:

- وَهْم؟!! تاللهِ لولا خوفي من الرحمنِ لجعلْتُ الحبَّ صلاةً سادسةً في الدينِ على صلواتِ اليومِ الخمسِ.

ما قولُك يا خالد؟؟

- لا شيءَ يا سيدي الحاكم، لن تغرق السَّفينةُ التي تشقُّ أمواجَ الطريقِ إلى اللهِ في الوصولَ إلى شواطئ الجنةِ.

- !

.. سادَ الصمْتُ المرعبِ لحظةً حين أحسَّ خالد أن الحاكمَ عندما قال جُملًا بين ثنايا حديثِه مِن الكتابِ المُحرَّمِ «أسرار التنهيدةِ الأولى» أخذ يردُّ عليه ويوبِّخُه أنه يقولُ هذا الكلامَ، ولو انتبه الحاكمُ قليلًا لعلِمَ مِن ردود خالد عليه أن لدى خالد كبير حراسِه نسخةً منه هو الآخر، وإلا كيف عرف خالد بأمرِ كلِّ هذه الجُمَلِ، ولا سيما وقد أُحرِقَتْ كلُّ النسخِ القليلةِ التي طُبِعَتْ، كما أُحرقَتْ النسخةُ الأصليةُ ولم يبقَ منها إلا الرمادِ.

.. انتهى الحوارُ المحتدُّ بين الصديقين كما ينتهي كلَّ مرةٍ بين التوبيخِ وطاعةِ الأوامرِ، لكن هذه المرةَ كانَ خالد كبيرُ الحراسِ قد شعرَ بالخوفِ عليه وبالخوفِ منه، لكن شعورَ الخوفِ عليه كان أشدَّ وطأةً، وقال خالد لنفسِه مرتابًا في أمرِها:

- في هذا الزمانِ الغريبةِ كائناتُه، في كلِّ فراش للحبِّ يجمعُ عاشقَين، لو رفعَ أحدُهما وسادةَ ضميرِ الآخَرَ لوجدَ تحتَها خنجرًا.

.. وفي المساءِ استغلَّ خالد غفوةَ صديقِه حمزة، واستأذنَ الطبيبَ في أن يدخلَ وحدَه غرفتَها، فخرجَ الطبيبُ وأغلقَ كبيرُ الحراسِ البابَ مِن وراءِ ظهرِه، وكأنه كان على عجلٍ فأمسى البابُ مُوارَبًا وكان قد أحضرَ في جيبِه حَبْلًا وقميصًا، ولمَّا رآها غائبةً عن الوعي وضع القميصَ حولَ عنقها ثم لفَّ الحبلَ فوق القميصِ حتى لا يكتشفُ الحاكمُ أنه تمَّ شنقُها بوجودِ آثارٍ في العنق، وإنَّما يظهرُ للذي يتحقَّقُ أنها ماتت متأثرةً بِجراحِها.

.. وبدأ كبيرُ الحراسِ في تنفيذِ ما اعتاد عليه في القبضِ على أرواحِ الذين كانوا على مذهبِ الهوى، وما إن تمكَّنَ من الحبلِ بكلتا يديه حتى قالت له ريسال في هدوءٍ غريبٍ:

- لقد نسيت أن تكتمَ فمي يا سيدي؛ ألا تخافُ أن أصرخَ الآنَ في سكون الليلِ القادمِ؟!

.. فقال مذهولًا من ثباتِ سَمْتِها:

- المرأةُ هي ذلك الشيطانُ المختفي تحتَ لقبِ أنثى.

.. ابتسمَتْ وقالت غير مباليةٍ بالأمرِ:

- تبًّا لهذا العالمِ كيف بات يعجُّ بالحمقى هكذا.

.. صُدِمَ كبيرُ الحراسِ من استيقاظِها وانتباهِها ومما سمعَ منها ومن وجهِها المرعبِ جمالُه حدَّ الشمسَ التي ملأت الغرفةَ بالنورِ، وبدَّلَ الليلَ غير الليل، فقال حين فُزِع من هولِ جبروتِ عينيها في لحظةِ اندهاشٍ هَمَّتْ بها نفسُه:

- تستيقظُ النساء تبعدُ في الغِطاء لكي تقوم، لكن إذا جاء الصباح كوردةٍ تتفتحين، الصبحُ في وجهٍ كوجهِك ليس يشبه أي صُبح، وعيوني أعماها الجمالُ ولن تَرى سِوىَ بعد حين.

.. فازدادَت إرادتُه بقتلِها ضعفين بخوفِه على صاحبِه وخوفِه على نفسِه إذا عاشت وافتضحَتْ أمرَه، فأخذ القميصَ الذي كان على عنقها وبينما هو يعصبُ فمَها قالت في هدوئها المعهودِ:

- كم عددَ الذين قتلتَهم قبلي بهذه العقيدةِ التي في عينيك؟

.. شعرَ كبيرُ الجندِ أنها دعوةٌ منها لكسبِ مزيدٍ من الأنفاسِ في الدنيا لكنه استمرَّ قويًّا عاقدًا العزمَ على شنقِها بعدَ أن يُخْرِسَ فمَها، وبالفعلِ كمَّمَ فمَ القمرِ وبدأ الظلامُ يضربُ العالمين، وانخفضَ يلتقطُ الحبلَ الذي كان قد سقطَ، وبينما هو يرفعُ رأسَه أشارت إلى البابِ، ففهم أنها تقصدُ أن يغلقَ البابَ حتى لا يراه أحدٌ، وكأنَّه سلَّمَ نفسَه لها، فذهبَ في سمعٍ وطاعةٍ وأحكمَ غلقَ البابِ وعادَ مسرعًا، وفي أولِ دقَّةِ قلبٍ له في أولِ خطوةٍ لقدميه بجانبِ فراشِها أشارت وهي تفتحُ عينيها بشدَّةٍ كعلامةٍ على أن شيئًا خلفَه؛ فنظرَ خلفَه كما عهدَ منها أنها تحذِّرُه، وبينما هو يلتفتُ كانت قد أخرجَتْ مِن تحت غطائها قدحَ طعامٍ كبيرٍ من الفخارِ، كانت قد جلبتْه من المنضدةِ التي بجانبِ فراشِها في المسافةِ الزمنيةِ التي وقعت ما بين ذهابِه لإحكامِ غلقِ البابِ وانتهائه من الغلقِ، ثم ضربتْه خلفَ رأسِه ضربةً قاضيةً سقطَ على إثرِها فاقدًا الوعيِ.

وخرجت يملأُ المكانَ نورُها، ربَّما لأنَّ الأشياءَ والأماكن تستمدُّ الجمالَ الذي تظهرُ لنا به من خلالِ حجمِ الهوى الذي بداخلِنا، وربَّما لأنَّ اللهَ يحبُّ أن نفرحَ بما منحنا مِن هدايا، وهي الآنَّ تطيرُ من الفرحِ لعودةِ النورِ إلى عينيها، ربَّما هذا هو حالُ العشَّاقِ إذا انعدمَتْ في الهوى جاذبيةُ المنطقِ، وشَفَّتْ الروحُ، فطارت فوقَ مرتفعاتِ الجنونِ، ربما وربَّما..

-9-

استمرَّتْ في السير واثقةً تهزُّ كوكبَ الأرضِ بجاذبيَّتُها، وكأنَّ لا شيءَ يستحقُّ الرُّعبَ؛ إذ كانت تمشي مطمئنَّةً، وما نظرَتْ خلفَها كأن لا موتَ يلاحقُ الروحَ، وبينما هي في طريقِ الممرِّ الخاصِ بالحاكمِ شعرَتْ أن شيئًا لا تعلمُه يأخذُها إلى المجهول، من الضروري حين تفتِّشَ عن جملة أسبابِ الفرحِ أن تعثرَ على لا شيءٍ لكي لا يحزنك شيءٌ إذا فُقِدَ.

ربما هي فرحتُها بأنها سترى حبيبَها، وربما لأنها تستمتع برؤية جمالَ الدنيا والموجودات بعد عودةِ النورِ إلى عينيها، تفاجأتْ بأسوارٍ من الجندِ أمامَ بابَ الجناحِ الذي تمشي في ممرِّه، فوقفَت تستوعبُ ما يحدثُ وتحاولُ أن تتوقَّعَ تصوُّرًا، لعلَّها بذلك تتخذُ قرارًا بالاتجاهِ حسب ما تشيرُ إليه بوصلةُ إدراكِها، وبالفعلِ تراجعَتْ ونظرَتْ على امتدادِ الممرِّ المملوءِ بالغرفِ، وهي لا تعرفُ ما بداخلِ الغرفِ إلا تلك التي فيها ذلك المغشيِّ عليه من ضربتِها له بالقدحِ، التي تظنُّ أنه الحاكمُ على آخر تصوراتِها للمشهدِ، أما باقي الغرفِ لا تعلم بالطبعِ ما بداخلِها، دفعها الفضولُ وفتحَتْ أولَ غرفةٍ قابلتْها فوجدَت فيها الطبيبُ بِزِيِّ الأطباءِ، وكان مستلقيًا غارقًا في سباتِ الموتى من فرطِ السَّهرِ عليها بأوامرِ الحاكمِ، فأغلقَتْ البابَ بهدوءٍ ولم ينتبه، ثم استمرَّت في السَّيرِ حتى أمسكتْ مقبضَ بابِ إحدى الغرفِ وفتحتْه، فإذا به مالك قامَ متهلِّلًا فرحًا حين صُعِقَ برؤيتِها، لكنه كان مقيَّدًا في الأغلالِ ويداه فيها أساورُ المجرمين، وعلى فمِه لاصقةٌ تمنعُه من الصُّراخِ لكنها لم تعرفْه؛ وتفاجأَ أنها تتجاهلُه وتخرجُ كأنه غريبٌ وتقول له:

- أعتذرُ..

.. ياللهولِ قد كانت هذه الكلمةُ أولَ كلمةٍ يسمعها كاملةً بعد عودةِ سمعِه إليه في تمام الشفاءِ! وأحسَّتْ تجاهَه بالشفقةِ، ففكَّتْ اللاصقةُ وتركتْه مقيَّدًا، ربما لضيق الوقتِ، وبينما هي تمضي مسرعةً قال لها:

- أنتِ على قيد الحياةِ!

.. لم تهتم ولكنها علمَتْ أنها سمعَتْ شيئًا له علاقة بشفائها ونجاتِها من الموتِ، وانطلقت في سبيلِها.... انتابتْه لحظةٌ من التعجُّبِ، وهو يفكرُ ناظرًا إلى ضوءِ المصباحِ:

- هل عاد لها نورُ عينيها؟ هل فقدَتْ ذاكرةَ الحكايةِ؟ هل هي هي وليست فتاة تشبهها، هل هي هي وقد نَجَتْ من القتلِ؟ لماذا لم تعرفْني وقد عرفتْني وابتسمَتْ لي من قبل في السَّاحةِ، وكانت على وشكِ أن تضحي بحياتِها من أجل ألا يفلتَ السَّهمُ نحوَ صدري!

.. ثم تذكَّرَ أدبَه معها وحفاظَه عليها حين كانا في الصحاري وحدهما وقال لنفسِه نادمًا:

- يا ليتني عانقتُكِ قبلَ هذا وكنتُ مِن المتبجِّحين.

هل يُعقلُ أنها تعرف رجلًا غيري؟! كلُّ الذي كان لديه خياراتٌ استخدمَها إلا أنتَ، أخرجْتَ الندالةَ مِن بين الأقواسِ وعشْتَ رجلًا غبيًّا، اليومَ حين صادفَتْ سؤالُ الاختيارِ من متعدِّدٍ أخرجتْكَ من بين الأقواسِ، وألقَتْ بك خارج القوسين.

.. كيف لسؤالٍ واحدٍ أن يحتملَ عشرات الآلافِ من الإجابات المختلفةِ، وكل إجابةٍ بحدِّ ذاتِها نسبةُ احتمالِ صحَّتِها تساوي مائة بالمائة، واحتمال خطئها يساوي مائة بالمائةِ أيضًا، واستمرَّ طوفانُ الاستفهامِ التعجبيِّ في رأسِ مالك، فلا أقلعَتْ الدهشةُ ولا غِيضَ الذهولُ ولا قيل بُعْدًا لهذا الحنين الذي يفتكُ بعقل الروحِ ... وكأنه أحسَّ بأنَّ احتمالَ انسحابِها كبيرٌ، قال محدِّثًا نفسَه المرتجفةِ:

-كان انسحابُكِ يا عميد الظالمين كصريخِ رعدٍ وحرائقَ برقٍ، وغيومٍ حجبَتْ القمرَ، وسمواتٌ غاضبةٌ تقذفُ على الأرضِ كُتلًا من الثلجِ ذات ليلِ صيفٍ كان هادئًا جدًّا على صدرِ طفلٍ يتيمٍ كان يلتحفُ الطرقات فرحًا ببعضِ دفءٍ؛ فبات لا يدري أين سيختبئ.

.. ثم أكملتْ ريسال المسيرَ بعد أن أغلقَت على مالك غرفةَ محبسِه ولم تعرفْه، وقد بدأَ ينتابُها شعورٌ أن هذا سجنٌ، وأن الجنوبَ قد أصبح بلدًا متحضرًا وهذا هو السِّجنُ الذي يليقُ بإعادةِ تأهيلِ الإنسانِ لإعادةِ عودتِه طبيعيًّا منتجًا في الحياةِ، ومن بابِ الفضولِ أحبَّتْ أن تتعرفَ على آخرِ غرفِ الجناحِ؛ ففتحتْها ودخلَتْ فوجدَت الحاكمَ نائمًا مستلقيًا على الفراش، فدخلَتْ لتوقظَه ظنًّا منها أنه مالك، فاستيقظَ الحاكمُ فسحبَتْه برفقٍ وأخذَتْه في حضنِها، فأفاقَ الحاكمُ وهو على صدرِها بين ذراعيها تمسحُ على رأسِه، فوجدَ ذراعيه تحاصران خصرها وتلتفان حولَ العودِ الطاغيةِ في حضنٍ دامَ طويلًا جدًّا، وبينما كانت أصوات التنهيد تضربُ سجون جناحَ الليلِ شعرت ريسال صوتَ قرعِ نعلين، فأطفأت المصباحَ لاحتمال اقتحام أحدهم، فأضاء الغرفةَ وجهُها، ثم أشارت له على حين سُكْرٍ من عينيه المتجوِّلتين في براحِ ملكوتِ الجمالِ الغريبِ:

- أنا أراكَ، لقد أعاد الرحمنُ إلى عينيَّ النورَ؛ دعنا نبحثُ عن طريقٍ للهربِ بعيدًا عن هذا السجنِ وعن هؤلاء الجبَّارين.

.. تعجَّبَ الحاكمُ حينما انتبه وهو لا يدري ما يجري، إنها تخاطبُه بلغةِ الإشارةِ فأعجبتْه اللعبةَ، وربَّما فهم أنها توشوشه على خلفيةِ خوفِها مِن أن ينكشفَ أمرُها، فأشار لها بنفسِ إشاراتِها بينما لا تدري أنه هو الحاكمُ شخصيًّا ثم أشارت له:

- هيَّا بنا لنهربَ بعيدًا أيها الوغدُ.

.. لم يهتم عقلُ الحاكمِ الباطنِ بما جرى ولا بما يجري ولا ماذا تراه أو تعتقده، ربما أن اندفاعَ العشَّاقِ يشبه اندفاعَ الطيبين الذين لا يعلمون كيف ارتكبوا جرائمَ شنعاءَ في لحظةِ تهوُّرٍ زجَّتْ بهم في أنفاقِ غياباتِ السجونِ ومشانقِ القانون، الذي لا يحمي الغائبين عن الوعي بذلك الشيء المجهول الذي لا صلةَ له بالخمرِ والمخدَّراتِ.

وأمسكَ المتهوِّرُ يدَ الساحرةِ وهو يبتسمُ ثم سحبَ قناعَها الملتصقَ في ياقةِ ردائها الذي كانت ترتديه حتى غطَّى رأسَها، الذي انسدل منه شعرُها الليليُّ الغزيرُ فاضحًا الجمالَ معلنًا

بذلك عن مهرةٍ حَرون.

حضنَتْ يداه يدَها في عمقٍ يشبه عناقَ الغائبين العائدين بعد مواسم الهجرةِ، وأخذها وخرجَا يتسلَّلان من الممرِّ الرئيسيِّ للجناحِ وفي آخر الممرِّ؛ حيث تقفُ أسوارَ الجنودِ ضغطَتْ بأناملِها على يدِه لينتبَه إلى وقوفِ الجنودِ لكنه أكملَ المسيرَ فشدَّتْه وأوقفته، وهي ما تزال تحدِّثُه بلغةِ الإشارةِ على اعتقادِها القديمِ أنه مالك.

واستمرَّ يأخذُها من يدِها وكأنهما يطيران في السماءِ كعصفورين إلى بابٍ سريٍّ يأخذُهما إلى سُلَّمٍ، ربَّما كان قد أُعِدَّ للطوارئِ، يؤدي إلى الطابقِ الأرضيِّ الذي فيه الزنازين، وممرٌّ به غرفٌ للحرَّاسِ، وهو يعلمُ أن بعضَهم نائمٌ وبعضَهم في مقرِّ حراستِه؛ فدخلَ إحدى الغرفِ الخاليةِ وارتدي زيَّ كبارِ الضبَّاطِ ثمَ انطلقَ نحو ممرٍّ آخرَ للعمَّالِ، ومنه إلى حظيرةِ الخيولِ حيث وقف الحاكمُ مترقِّبًا الفرصةَ لدخولِ الإسطبلِ دون أن يراه أحدٌ من حرسِ نوبات الليلِ.

وبالفعلِ لأنَّ الوقتَ كان متأخِّرًا فقد سحبَ زمامَ جوادِه الذي تفاجأ به، فصهلَ صهيلًا عاليًا الأمرَ الذي دعاهما للاختباءِ قليلًا ربَّما قد يأتي أحدُ الحرَّاسِ ليكشفَ عن سببِ احتفالِ الجوادِ، وحدثَ ما توقَّعَه الحاكمُ فقد قدِمَ أحدُ الحرَّاسِ حاملًا سيفَه، وهو يخطو خطواتٍ محسوبةً، بينما كان يترقَّبُ بكلِّ حواسِه جميعَ أنفاسِ المكانِ، فأخذَ الحاكمُ ريسال في حضنِه تحت لوحٍ من الخشبِ في ركنٍ مظلمٍ كان العمَّالُ يضعون عليه علفَ الفرسِ، وكان العاشقان يسمعان دقَّاتِ قلبَيهما وملتصقان حدَّ التوحُّدِ، وألقى الحاكمُ نظرةً على وجهِ القمرِ من مكانٍ قريبٍ، وكانت تتأمَّلُ ملامحَه أيضًا؛ فتناولت من الحاكمِ قبلةً لأولِ مرةٍ تستسلمُ فيها ريسال لشفتي رجلٍ، ويروي الشهدُ أعماقها بهذا العمقِ العميقِ، وكانت القبلةُ قد أطاحتْ بذراعيه الملتفَّان حولَها فسقطت على ظهرِها، ثم أشارت له لينامَ على فراشِ جسدِها خوفًا مِن ظهورِ رأسِه للحارسِ، وكأنه استغلَّ الثغرةَ الأمنيةَ في لحظةٍ ازدرد فيها لعابه، وهو ينظرُ إلى طغيانِ وحشيةِ فاكهتِها ولا يصدِّقُ أنه سيسقطُ فوق غاباتِ التفَّاحِ

الآن، وبالفعلِ سقطَ دونَ حساباتٍ مرتميًا فوق بطنِها، فسحبت جسدَها فجأةً فارتطَمَ الحاكمُ بأرضِ الحظيرةِ، فابتسمَت تكتم ضحكتِها حين اعتدلَ وأشارت له:

- ليس قبل الزواجِ أيها الوغدُ.

.. لم يفهمْ شيئًا، لكن الصمتَ كان أمرًا مفروضًا، وكلُّ ما خطرَ بباله أنها تداعبُه، حتى في هذه الظروفِ الحرجةِ والخطيرةِ العشاقُ غيرُ البشرِ دائمًا، فلا شيء يساوي شيئًا؛ هما لديهما هُمَا، وهُمَا كلَّ شيءٍ فإن ذهبَ شيءٌ غيرهُما فلا شيءَ ذهبَ من الحياة، ولو لم يبقَ في الحياةِ على قيدِ الحياةِ إلا هما.

.. جلستْ كقنينةِ خمرٍ وقد أعطَت ظهرَها لذلك الرجل السكِّيرِ المدمن لها؛ فجلس يضفِّرُ شَعْرَها ويتأمّلُ ذلك الظهرَ العريضَ المثيرَ، الذي يشبه مسارًا إجباريًّا للانزلاقِ مِن فوقِ مرتفعاتِ الجليدِ للسقوطِ في سُكْرٍ عميقٍ، حتى انصرف الحارسُ حينما لم يعثرْ على شيءٍ؛ فاتجَه الحاكمُ إلى الجوادِ ورفعَ على صهوتِه العودَ الطويلَ الملفوفَ للعاشقةِ المجهولةِ، ثم نظرَ إليها فوجدَ جدائل شعرِها الطويلِ يلمسُ ظهرَ الجوادِ، ثم سحبَ الزمامَ إلى خارجِ الحظيرةِ وركبَ مرتديًّا زيَّ كبيرِ الضبَّاطِ، ولثَّمَ وجْهَه ووضعَ على وجهِها القناعُ الذي يلاصقُ ياقةَ ردائها، وانطلقَ نحو بوابةِ القصرِ؛ ففتحَ الحراسُ البوابةَ في هدوءٍ، ذلك الهدوءُ الذي لم يمنع تعجُّبَ الحراسِ من ظهورِ الريبةِ على وجوهِهما، لكن ما لبثَ أن نجحَ الأمرُ وانطلقَ العاشقان حتى انتهت مساكنُ الجنوبِ إلى مشارفِ الصحاري، فأشارت له ريسالُ بيدِها ليتَّجَه بنفسِ سرعتِه للتوغُّلِ في الصحاري، فانطلقَ تحت ضوء القمرِ إلى حيث أشارت إلى أن انتهى بهما السفرُ إلى مقرِّ كوخ ريسال القديمِ؛ فنزلتْ وهي ما تزال تشير له وهي تصرخُ:

- عميقٌ فيَّا أنتَ بالكمالِ والتمامِ والجنونِ.

.. وقف مذهولًا بما تقولُ وبما لا يستطيعُ أن يقولَ، وهي ما تزال تصرخُ وتشير له:

- تلصَّصْ وباغِتْني في موضعٍ لا أتوقَّعُ أن تصلَ بك الجرأةُ إلى هذا العمقِ.

.. فتقدَّمَ وهو يرتجفُ وتناولَ الشَّهدَ الممنوعَ من العرضِ وقال لِنفسِه:

- مِن أزمنةِ المستحيلاتِ المنسيَّةِ ذلك الطعمُ القديم.

.. وانفكَّتْ جدائلُها وهي بين يديه فتراجعت ضاحكةً في دلالٍ وقالت له:

- لا تنفكُّ الجدائلُ مِن تلقاءِ نفسِها في أنثى إلا لرجلٍ في عمقِها تعشقُه، فما بالُك وقد انفكَّتْ أشياءٌ أُخرى.

.. وراحت تسرحُ في ليلِ السمواتِ والسحابِ والمدى وترابِ الأرضِ وكوخها، التي لم ترَها منذ رحل النورُ من عينيها قبل ما لا يقل عن عشرين عامًا في هذا المكانِ الذي آوت فيها نفسها من فوضى اغتيالاتِ أتباعِ أبيها وتلامذتِه على خلفيةِ روايتِه المحظورةِ مِن التداولِ.

ثم عادت إلى وجه الحاكمِ تتأملُ فيه وتتفحَّصُ تفاصيلَه التي طالما حلمُت بها كأنه كان مكشوفًا عنها الحِجابَ، ثم أشارت فجأةً في دعابةِ المجانين:

- أريد أن أرى هل كنت صادقًا أم لا أيها الأبكم بعدَ أن عاد النورُ إلى عينيَّ.

.. كلُّ ما فهمه الحاكمُ من الإشارةِ أنه أبكم وأنها كانت كفيفة، فسكتَ ليحاولَ أن يربطَ بين جميعِ الأحداثِ وما يحدثُ هنا، ثم أشارت له لينزلَ وهي تسحبُه لِيدخلَ الكوخ الكبير بعد أن أشعلت المصابيح، ثم اصطحبته إلى مقرِّ غرفةِ نومِها ودخلت لتُخرجَ اللوحةَ مِن مخبئها، وفتحتْها حدَّقَت فيها بجنونٍ ورعبٍ، ثمَّ حدَّقَتْ في وجهه فإذا به هو بكلِّ تفاصيلِه، فألقَتْها في الهواءِ وقفزَتْ تحتضنُه في جنونٍ، وهي تبكي كطفلةٍ أعادوا لها أُمَّها من الغيابِ.

.. مَرَّ على عقل حمزة عدة علامات استفهامٍ لم يهتم لها، هو الآن غارقٌ لكن بعض الدهشة أصابتْه من رؤيتِه لها، وكأنها تستكشف المكان مثله، وهل تحسبه مالك فعلًا، لا يعقل أن يكون كل هذا مزحًا، وكأنه على متن حبلٍ بين جبلين في وقت فيه احتمالُ اتخاذ قرارٍ واحدٍ خاطئ سيؤدي حتمًا إلى السقوطِ موتًا.

لم يقاومْ الحاكمُ الأحضانَ التي انهالت عليه بعدها القبلُ تِباعًا، فلا حاكمَ اليومَ إلا الهوى على الحركاتِ والسكونِ، ثمَّ هرولَتْ إلى المكتبةِ وتركتْه جالسًا، وأحضرت كلَّ ما كتبته هي ومالك، ثم جلست تقرأُ من جديدٍ وهي ما تزال تحسبُ أنه مالك الذي لا يسمعُ ولا ينطقُ، وفي تلك الورقةِ:

«ليس شرطًا أن تشتبكَ الأيادي لنكون معًا، فلقد كنت تعانقُني رغمًا عن تلك التي يدَّعون أنها المسافاتِ، وكنتُ أشعرُ بذراعيك حول خصري.

- كيف؟

- هذه ليست صدفة، وأخْبِرْ الذين قالوا إنَّ الأمرَ عفويًّا إنهم كاذبون، فلقد رُتِّبَ لنا أن نلتقي، ولكننا لم نكن نعلم فقط.

- كيف؟

- هل تحسبُ أن لقاءَنا في هذا العالمِ هو اللقاءُ الأول؟

- وهل التقَينا من قبل؟!

- لقد تعارف أيها الأحمقُ العشَّاقُ على العشَّاقِ أمامَ اللهِ قبل أن يخلقَ العالمين، ثم فُرِّقَ بينهما ليلتقي منهم فقط على هذه الأرضِ الصادقون بالصادقات».

.. وما هي إلا بضعُ دقائق من قرائتها للورقِ حتى أدركَ الحاكمُ الأمرَ واتَّضحَتْ له الرؤيةُ، وفهم أن مالك التقى ذات سفرٍ بها في العمى حين كان أبكمًا وأصمًّا، فعشقَتْه في خيالِها ورسمتْه، فكان أنا ذلك الخيالُ الذي فَتحَتْ عيناها عليه، فأصبحتُ أنا هو حقيقةُ الخيالِ، وكذب مالك عليها ليفوزَ بعشقِها الأعمى بأيَّةِ طريقةٍ، فكان هو الحقُّ الذي تحوَّلَ إلى باطلٍ فبات خيالَ الحقيقة.

.. وما بين خيالِ الحقيقةِ وحقيقةِ الخيالِ يدور البشر على كوكب الأرض تائهين، كلنا يمسك حقيقةً ويتمنى خيالًا!

ذهبَتْ لتجمعَ التِّينَ والرمَّانَ وكأنها تكتشف المكان لأول مرةٍ، والحاكمُ يركنُ ظهره على حائطِ الكوخ ليفكِّرَ ماذا سيقولُ لها بعدَ أن صار يشفقُ عليها، هل يصدمُها بالحقيقةِ كاملةً ويرى ردَّ فعلِ الأمرِ وليكن ما يكون؟ هل يرتِّبُ للأمرِ ليحكي لها رويدًا رويدًا.

وممَّا زاد الأمرَ مشقةً عليه أن حوارًا كان قد دار بينها وبين مالك احتفظَت به ريسال في وثيقةٍ كانت مطويةً مع اللوحةِ تناولَها الحاكمُ وقرأها، وعلمَ كَمْ كذب مالك عليها، وضلَّلَها بأنْ أقسم لها أنه هو بروحِه وملامحه الذي في اللوحة طبقَ الأصلِ، وراح الحاكمُ يدقِّقُ بين سطورِ الوثيقةَ وحروفِها، والوثيقة مكتوبٌ فيها:

.....

«أردْتَ أن تقولَ «هو أنا» أَم تقولَ «كأنَّه أنا»».

- عاهدْني أن تقولَ الحقيقةَ إن كنتُ قد نجحْتُ في رسمِك أم لا.

- هو أنا، نجحْتِ بامتيازٍ يا عصفورتي لكن كيف وصلَتْ لأعماقِك ملامحي؟

- ما رسمتُكَ إذْ رسمتُكَ لكن اللهَ أراني إيَّاكَ قبل أن أراكَ بِبضعِ سنين.

- أخشى أن يكون الصيادُ قاطعَ طريقٍ قد استولى على صيدِ غيرِه.

- لا أدري كيف جمَّعتِ الملامحَ بكل هذه الدقَّةِ.

- لماذا أشعر بك تدفعُني نحو اللاشيءِ بقوَّةٍ على خلفيةِ إرسالِكِ لي الوهمِ صورًا مزيفةً مِن منطقةِ الخداعِ، في أكبرِ كمينٍ للوقوعِ في شَرَكِ السَّرابِ مستغلًّا امرأةً ليس لها على هذه الأرضِ إلا أنتَ؟!».

.....

.. قطعَتْ ريسال حبلَ شرودِه في الوثيقةِ وقالت له في دلالٍ:

- اترك عقد زواجِنا الابتدائيَّ.

.. فنظر لها وكأنه يريدُ أن يفهمَ معنى ما قالت، فقالت بشفتيها همسًا وإشارةً بإغراءٍ:

- زواج مع إيقاف التنفيذ، حين كنتَ تعرف أن أنا أنا، ولكنني لم أكنْ على يقينٍ أن أنتَ أنتَ.

.. ولمَّا ازداد صمتُه قالت:

- اليومَ بات من اليقينِ أنَّ كلَّك يعشقُ، لكن روحَك لم تزلْ في هذه الفوضى خجولة، يا ليت قومي يعلمون عن الرجلِ حقيقةً، بعض الخضوعِ إلى النساءِ من البطولةِ والرجولة.

.. استمر الليلُ تحت وطأةِ القُبلِ، وكاقتلاع كبدٍ من بطنِ طفلٍ انفلتَتْ الساحرةُ من قبضةِ الحصانِ العنيدِ، ثم أرشدتْه لفراشه لينام، فاضطُر أن يعاملَها معاملةِ النبلاءِ رغمَ أنفِ الجحيم، لا سيما وأنها تحجَّجَت بجرح صدرِها كي لا يقاوم، بينما كان الجنوبُ تحت وطأةِ الدهشةِ والشمال تحت وطأة الفساد، وكأنما حُملَ الكوكبُ على كفِّ الساعات القادمةِ.

.. تناولا الفطورَ معًا وهي تضحكُ على طبيعتِها بينما هو يتجوّلُ بين ملامحِ الحوراءِ الغريبةِ، ثم ناولتْه الماءَ ليشربَ، واقتربَتْ من حبيبِها ونامت على صدرِه ورفعَت وجهَها وتناولتْه في قبلةٍ هي الأشدُّ رغمَ أنها ليست الأولى، ثم انتفضَت بجنونٍ كعادتِها معه لتشير له:

- لأولِ مرةٍ ينسيني رجلٌ في هذا العالمِ الرجلَ الأولَ.

.. ففهم أن هناك رجلًا في المكانِ غيرهَ فأشار لها:

- مَن تقصدين؟

- أنسيتَ أبي أيها الوغدُ الكبيرُ؟!

.. لم يفهمْ لكنه أشار لها وهو يمضي معها:

- أين هو؟

.. وعادَ الحاكمُ ليلتقطَ سيفَه من الكوخ وخرجَ به، فغضبَتْ وأشارت له:

- ماذا تفعلُ بهذا في حضرةِ أبي وأمي؟!

.. ألقى السيفَ على الأرضِ أمام البحيرةِ حرصًا على رضاها، ومضى كعادتِه مستسلمًا كالسكارى، ما يجري، فوجدَها تقرأُ الفاتحةَ على قبرٍ فقرأ معها في سَرِّه، ثم عادَا يجلسان على حافةِ البحيرةِ وسطَ أصواتِ الطيورِ، وهي تتذكَّرُ ما كان يعلِّمها من لغاتِ الدنيا، حتى أنه علَّمها لغةَ الإشارةِ والفروسيةَ وتأثيرَ تلاوةِ كتبِ السمواتِ في نفوسِ المجرمين، وعلمَ المواقفِ الصعبةِ وتحدي الأهوالِ، وذهب خيالُها حين كان يقول لها أبوها عندما كان قد هرب بهم إلى الكهف من جبروت الملك آنذاك:

- تعالي أعلِّمُكِ كيف تشربين دمَكِ إذا هاجمَكِ العطشُ، وكيف تطفو الروحَ على أمواجِ الموتِ وتعالي أعلِّمُك كيف تقبضُ أناملَكَ الرقيقةُ على مَقاتلِ الوحوشِ، ولأني أكبرُ منك يا صغيرتي بجرحٍ وفي الأمثالِ يقولون: «الأكبرُ منك بغدرٍ يعرفُ أكثر منك بطعنةٍ». خذي هذه المظلَّةَ وخبِّئيها بيني وبينِكِ، ولا تسأليني عن السببِ وارتفعي كما تشائين معه، ولا تفزعي إن نظرْتِ لأسفلَ ورأيتِ بحارًا وأخذكِ الهوى فوق الصحاري أو طلبَ منك قبلةً بين السحابِ والغابات.

.. وراحت تنظر إلى الحاكم (حمزة) الذي ما يزال في اعتقادِها أنه مالك، وهي تذكر سلسلة ذكريات ماضيها مع أبيها:

- إذا نجوتِ من السقوطِ عاملي الحكايةَ كما يعاملُ النبلاءُ الأسرى؛ أحضري مقصًّا من ذاكرتِكِ وقومي بقصِّ يومِ الخيبةِ من أعوامِ الحكايةِ، وابتسمي وضعيها في درجِ الهدايا، أمَّا القصاصةَ فشيعيها في سلالِ النسيان، وأعيدي المقصَّ إلى حقيبتِه لاحتمالاتِ أخرى لأناسٍ آخرين يستحقُّون أن تحتفظَ ذاكرتُكِ بحكاياتِهم.

.. ثم دخلَتْ فدخلَ الحاكمُ (حمزة) وراءَها غرفتَها وأمسكَ يدَها يقبِّلُهما واحتضنَها، ثم تراجع ربَّما خوفًا من ردِّ فعلِها وتفاجأ بها تقع، وكأن روحَها صعدَت إلى السماء، فالتقطَها قبل أن تقع على ظهرِها وحملَها فأمسكَتْ فجأةً برقبتِه ثم ضحكَتْ وقالت:

- هرولتُ أحضنُ في اللقاءِ معربِدًا، كي لا تصيبَ الجسد شهقًا نارُ حمَّى، وشعرْتُ في كتفي اليمين بفَكٍّ حَبْل، فنظرْتُ في كتفي الشِّمالِ وقلتُ ثمَّ، بل قلتُ حين تخفُّ نار حرارتي، سأكونُ أحرص ... لن يمسَّ لطرْفي كُمًّا، لكنني ازددْتُ ارتعابًا أن تقلَّ حرارتُه، أُغمَى عليَّ بنصفِ عينٍ كي يضُمَّ.

وكأنها كسرت حاجز جرأتَه فتفاجأتْ به يمضي فيها نحوَ الجنونِ فأوقفَتْه ونزلت عن ذراعيه وهي تشيرُ في تنهيدٍ:

- ليس قبل أن نتزوجَ، ليس قبل الحلال، ولعلَّك نسيت مَن هي ريسال ومَن أبيها أيها الوغدُ الكبيرُ..

.. فما استطاعَ أن يتمالَك جموحَه وانطلقَ يرفعُها ويلقي بها على الفراشِ وهو يخلعُ نصفَ ملابسِه العلويِّ، وصهل الحصانُ لينقضَّ على مهرتِه فوجدَها تبكي وهي تنظرُ إليه فأشارت:

- ما بكِ؟

- لا أريدُ أن أعصي اللهَ ربَّ العالمين لقد كانت وصيَّةُ أبي.

.. ثم هرولت ترتدي على قميصِها شيئًا لتحُولَ دون تحويلِ ضلوعِه إلى كومٍ من الحطبِ على على طولِ امتدادِ لهبِ جسدِها، ثم استدارت له وهو يفكِّرُ في اندهاشٍ عارمٍ:

- يجبُ أن نغضَّ البصرِ عن غضِّ البصرِ إذا مرَّتْ امرأةٌ في قمَّةِ احتشامِها، وكانت رغمَ ذلك في قمَّةِ الإثارةِ لأفهمَ كيف تحدثُ الأشياءَ ومضادَّاتِها في الوقت نفسِه بنفسِ الجمالِ؛ لتنهي بذلك أسطورةِ قوانين الوجودِ وسنن الكونِ ومنطقَ الفلاسفة.

.. فتذكَّرتْ يوم غرقَ مالك في اختبارِ الموتِ وأشارت:

- هنا غرقْتَ يومًا ما من أجلي.

.. فأشار لها وكأنه يريدُ أن يقولَ:

- أنا لا أغرقُ مِن أجلكِ في لعبةٍ فقط، وإنما أحاربُ الموتَ.

.. فأشارت تستفزُّه، ولا سيما وأنها شعرَتْ كأنه نسي لغةَ الإشارةَ التي علَّمتْها له:

- على الأقلِّ يجبُ أن تسترُ عورةَ جُبْنِكَ، وأن تمتنعَ عيناك عن الدَّجلِ في زمنٍ مات فيه الفرسانُ، وما عادَ رجلٌ يحاربُ لأجلِ امرأةٍ.

.. ربما أراد أن يقع فيها قبل اكتشافِ أمرِه، فلا أحدَ يستطيع أن يتكهَّنَ بمصيرِ الدقائقِ القادمةِ كيف ستكون؛ لا سيما وأنها بدأتْ مِن دقيقةٍ لأخرى تضعُ علامةَ تعجُّبٍ على صمتِه، ذلك الذي كان ثرثارًا في الصمتِ كيف يصمتُ حين يتكلَّمَ؛ فاقتربَ منها مرغمًا تحت تهديدِ جاذبيةِ عودِها الدوَّامةِ؛ فهرولت تجري منه إلى خارجِ الكوخ وقفزت تسحبُه في البحيرةِ كدعوةٍ منها له إلى السباحةِ في القُبَلِ الجحيمِ المبلَّلِ، وهي تُدَنْدِنُ وتغني في دلالٍ:

- لو تأخذُ من حبَّات رمالِ صحاري العالمَ حبَّةَ رملٍ حتمًا يومًا ينتهي، والشوقُ إليك صباحَ مساءَ بحجمِ جبالِ الدنيا يزيدُ وبين يديَّ وأشتهي.

-10-

نزلَ وراءَها سابحًا بعد أن خلعَ قميصَه حتى لحقَ بها، فاحتضنَها برجولةِ صدرِه العريضِ، فانفلَتَتْ وهما بالإشارة يتحدَّثان:

- ستُفْقِدُ اللقاءَ الأولَ طعمَه يا جوادي الجموحَ.

- ياللهول!! يكاد يصيبني الجنون يا فتاة!

- وما رمتك الرمشُ عمدًا في ضلوعِك إذ رمى، لكن رمشي هكذا يرمي الخلائقَ جُمْلَةً، لا تحسبنَّ ولو خيالًا أنَّ أمركَ همَّني، بل كُن حريصًا إن رأيتَ ترابَ رجْلي تُفْتَتَن.

.. فاختلطَ العرقُ الذي يُصَبُّ من جبينِه بماءِ البحيرةِ الذي كأنما ارتفعَتْ درجةُ سخونتِه، وانطلقَ فوقفَتْ تنتظرُ ارتفاعَ رأسِه وأشارت بثباتٍ أفزعَه:

- أحبُّكَ وأخافُ الله في آن واحد، فانظرْ ماذا ترى يا أقرب إليَّ من ذاتي.

.. فارتعشَ قلبُ الحصانِ الجامحِ في الصحاري المظلمةِ فجأةً، وتساءلَ كيف لرجلٍ في قوَّتي أن تقيِّدَه امرأةٌ هكذا بالإيمانِ، وسألها كيف هذا بإشارةٍ منه وهو يمسكُ رأسَه تَعَجُّبًا؛ فقالت تشيرُ إلى حلاوةِ لسانِها بدعابةٍ:

- الله فصَّلَ في آياتِه أخلاقًا بمقاساتٍ تناسبُ جغرافيا الأماكنِ وتاريخِ الأزمنةِ.

.. فعاد يمسكُ دماغَه وكأنه أراد أن يقولَ:

- أتعجَّبُ كيف التقَينا!

.. قالت له وقد التصقَ الرداء بالعودِ الطويلِ السارحِ في أعماقِه وهي تخرجُ من الماءِ وتلتقطُ قميصَه لتعطِه إياه:

- لم يكنْ لقاؤنا صدفةً، ولم يكنْ أيضًا مرتَّبًا؛ ذلك لأنَّنا لم نلتقِ وإنَّما فقط كنَّا معًا، ولم نكنْ ندركُ.

.. سادَ جوٌّ من الصَّمتِ قطعتْه، بينما كان يرتدي قميصَه بقولِها وهي تشيرُ إلى شفتِه المجروحةِ عندما وصلا إلى الشاطئِ:

- شكرًا لك لأنك قاومْت ولم ترشدْهم إلى شيءٍ وتحمَّلْتَ لأجلِ حبيبتِك العذابَ.

.. فترك الحاكم أزرار قميصَه فجأةً ووضعَ يدَه على شفتِه وتذكَّرَ أنها مجروحةٌ منذ أصابها السهمُ الخشبيُّ، ثم جلسَ بنصفِه عاريًا مُرتابًا بعدَ أن قالت له بالصوتِ والإشارةِ الجملةَ الخطيرةَ السابقةَ: «شكرًا لك لأنك قاومْت ولم ترشدْهم إلى شيءٍ، وتحمَّلْتَ لأجلِ حبيبتِك العذابَ»، ازداد الموقف غموضًا وتعقيدًا، وخطرَتْ في بالِه فكرةٌ ربما تكون ساذجة لكنها انطلقت منه بعفويةٍ؛ أن تحكي عن أبيها ومذهبِه في الحبِّ لهذه الدنيا، ربَّما تقنعُه بشيء وربَّما أراد أن يقتنع، فأشارت وهي تقول وتحرك شفتيها:

- يا عيني، إن براحَ عينِكِ قد أُنيرَ به الفضاء، قل كيف يمكن إن أراد الله نورًا أن يُضاء فلا يُضاء؟! الحب مثل نزولِ غيثٍ فوق أرض، الحبُّ مثلُ الموتِ يأتي على البرايا في الحياةِ الدنيا فرضْ، ومن اليقينِ أنَّ عطرَك في السماءِ وكيف ستُخْتَرَقُ السموات؟ وإذا قُتِلْنا بِذاتِ يومٍ سوف أحبُّكِ بعد موتي أليس هناك بتلك الدار إلهٌ يحتضنُ الأموات، ومن اليقين بكلِّ وقتٍ سوف يأتي سنبقى نهوى وإن هذا من اليقين، ولأن يقولوا إنَّا نسرقُ ليس هذا حقًّا يا سيِّدي إني زعيمُ السارقين، بل سوف نمضي نعلِّمُ الأطفالَ حِفْظًا كيف تَعْشَقُ حين تَكْبُرُ بالتلقين، ولسوف نُهْرِقُ في الخمورِ على القلوبِ على الجماحمِ في البيوت، ولسوف نمضي على الطريقِ نفك أسْرَ العالقين.

.. ارتجَّتْ جمجمتُه رَجًّا وزُلْزِلَتْ أضلاعُه زلزالًا شديدًا، ثم قامَ الحصانُ العنيدُ بدهاءٍ مسرعًا وأحضرَ ورقةً وقلمًا وطلبَ منها أن تكتبَ اسمَها كاملًا، في دعابةٍ منه ليأخذَ الاسمَ في حضنِه كحجابٍ منها وينامُ ببردٍ وسلامٍ، فأخذَت الورقةَ والقلمَ وقالت له بلا إشارةٍ وكأنها أدركَتْ أنه ليس هو مالك منذ أن ارتابت منه حين كان جالسًا أمام قبرِ أبيها، وكأنه لم يسمع من قبلُ عن هذا القبرِ:

- اكتب اسمكَ كاملًا.

.. نظرَ في عينيها طويلًا وأمسكَ القلمَ وهو يرتعشُ وكتب اسمَه الحقيقيَّ كاملًا.

- حمزة حاكم الجنوبِ..

.. فقال لها بلا إشارةٍ -وقد بدأت تلاحظُ ارتجافَه الشديدَ- والآنَ اكتبي اسمَكِ كاملًا فكتبت:

- ريسال ابنةُ سيد الآسرين، آسر صاحب الرواية المحرمة «أسرار التنهيدة الأولى»، ومؤسس علم (الحب)، وأمي هي لامار، ابنة إيلين ابنةُ الملوكِ، فانظر ماذا ترى يا حاكمَ المتشدِّدين، ولا تنسَ أن السيفَ خلفَكَ إن كنتَ تريدُ أن تلتقطَه لتقتلَني كما أمرتَ بالموتِ على كلِّ الذين كانوا على مذهبِ سيدِ الآسرين في الحياةِ والهوى.

.. فقال وقد انكشف الأمرُ كلُّه واكتملَتْ أجزاءُ الصورةِ التي كانت متناثرةً..

- أنا ومَن معي نقيمُ دولةً والناسُ...

.. قاطعتْه وقد بدأتْ المبارزةُ تشتدُّ:

- لا تحسبنَّ الناسَ آمنت بكم إذْ لا يقاومون، وإنما لمَّا قتلتم الإثارةَ فما عادوا يصرخون، فإذا دارت الأيامُ وطفَتْ على الماءِ جثامينُكم، فلا تندهشوا وتقولوا لماذا يلتقطون لنا الصورَ ولا ينتشلون الجثثَ قبلَ أن يأكلَنا السمكُ، عفوًا هذا سبقٌ صحفيٌ! وتبًّا لإنسانيَّتِنا القبيحةِ.

- السلامُ الشاملُ والع..

.. قاطعتْه مرةً أخرى وهي تكادُ تبصقُ في وجهه:

- تبًّا لكم ولسلامِكم اللعين.

.. بدا معجبًا بعِنادِها وهو يحاولُ أن يجمعَ مفرداتِ جملةٍ واحدةٍ قبل أن تعود للثرثرةِ، ولكنها عادت تصرخُ:

- على علماءِ اللغةِ الاجتهادُ للحولِ دون وقوعِ حوادثَ هلعٍ على أثرِ الرعبِ الذي تبثُّه مفردات الحكامِ حين ينطقون الجُملَ، فما إن تسمعْ الأمُّ حديثَكم عن السلامِ حتى تهرول تفتشُ عن أطفالِها، ثم تنظرُ للسقفِ الذي سوف يُدكُّ فوق أرواحِ أفراخِها، ذلك العشُّ الذي سيلتقطُ فيه الصحفيون الصورَ كي يعربَ العالمُ عن أسفِه ويدين الواقعةَ بأشدِّ العبارات، ابحثوا للأمانِ وللسلامِ عن كلماتٍ بديلةٍ رفقًا باليتامى والثكالى، وإني لأخشى أن تظهرَ بين أسنانكم وأنتم تضحكون لحومَهم وعلى شفتيكم الدماءُ.

.. ابتسم الحاكمُ وقال وهو ما يزالُ يقفُ على أعتابِ أفكارِه:

- هذا حديث آسر!

- آسر هذا أنت لا ترقى إلى مقامه ومكانته، قل «سيد الآسرين» يا هذا، ما كان السعيُ إلا للتصالحِ بينك وبينك، وما ذلك الطوافُ إلا أشواطًا تقطعُها في العودةِ إلى النورِ تاركًا خلفَكَ ذلك الظلامَ القديم؛ لتعرف من فوق مرتفعاتِ الروحِ كيف ستحجُّ حولَ المتألِّمين في هذا العالمِ، وكيف برفقٍ سوف تمسحُ الوجعَ من وجنات الورود؛ فإن ما في عيني من حزنٍ على طريقةِ فهمِ الإنسانِ العربيِّ للدِّينِ لا يكفي أن نحفرَ بجانبِ كلِّ بحرٍ بِحارًا حتى لا يغرقَ كوكبُ الأرضِ إذا اندفَعَتْ دموعي.

.. بدا على وجهِه شيئًا من السخريةِ فصرخَتْ:

- ذلك الفارسُ الرابضُ في مقبرتِه لم تستطعْ الجيوشُ قبلَك أن تهزمَه ميتًا؛ فما عساك أن تفعلَ وحدك بسيفٍ يتيمٍ؟!

.. رفع الحاكمُ حاجبيه مندهشًا فلاحقَتْه قائلةً:

- والله إنك لتعجزُ أن تحملَ السيفَ وتصلَ إلى هناك حيث يرقدُ.

- وما الذي يمنعني يا ريسال؟

- «إن الله يدافع عن الذين آمنوا» أيها الوغد، وعلى قدرِ يقينِنا باللهِ يقينا، وهو كان يقينًا يمشي على الأرضِ.

- دقَّ قلبُ الحاكمِ رهبةً وهو يزدرد لعابه:

- رفقًا بنفسِك من الألمِ يا ريسال والحزن و..

.. عادت لتقاطعَه والدموعُ تجري:

- ومَن ذا الذي يرفقُ بكل هؤلاء الموتى الذين يتألمون.

- وهل يتألَّمُ الموتى يا ريسال؟!

- يتألَّمُ الموتى مِن بقاءِ أمثالِك على قيدِ الحياةِ.

- يا ريسال أظنُّ أنه يجبُ أن نتوقَّفَ عن الحزنِ ل..

- لا تتَّضحُ الرؤيةُ إلا بعدَ كثيرٍ مِن الدموعِ يا هذا.

- لكنني أنقذْتُ الكثير من الفقراء وصنعْتُ وطنًا عظيمًا و....

.. قاطعتْه وقد احمرَّ وجهها:

- ليلًا يضاجعُ أثرياءَ الأرضِ لحمَ العاهرات، وفي الصباحِ يطالبونك بالتقشفِ والتَّنظيم، وبالتبرعِ مِن عظامِ المعدمين بعظمةٍ، هلَّا فهمْتَ الآنَ معنى أنه وطنٌ عظيم.

- نحن في مرحلةٍ انتقاليةٍ.

- قُلْ لي متى كان الفقراءُ في مرحلةٍ غير انتقاليةٍ منذ خلق اللهُ الأرضَ ومن عليها، تبًّا لكم؟!

.. نظر إلى ملامحِها وقد أثَّرَ فيه حزنُها، وقال وقد لمعَت عيناه بالعبرات أيضًا:

- يا أيتها الروحُ التي أنقذَتْ عميدَ المجرمين مِن الضلالِ.

.. فقالت بصوتٍ ما أبقى منه الحزنُ إلا بَحَّةً وشهقاتٍ:

- مَن قتَلَ كلَّ طيورِ السماء، وأحلَّ القتلَ وسفْكَ الدماء، لا ظلمَ اليومَ وأنت الإله، ولديك فتاوى كل الأئمة، وحلالٌ أكلُ لحومِ الضحايا، كي تلهوَ حتى امتدادِ الظلام، لا ندري أين الحبُّ اليتيم، هل سقفٌ لديه وبعضُ الدموع، هل مات بجوعٍ تحت السنين، أم صار بكفِّه خبزٌ وماء.

.. بكى كثيرًا وقال:

- لم يكنْ الأمرُ مفاجأةً يا ريسال فمنذ رأيتُ عينيك هاتين، وأنا أعلمُ أن وراءَكِ سرًا عظيمًا، لكن كيف كنتُ على الباطلِ كلَّ هذه السنين، وكيف كان أبوكِ على الحقِّ؟ وكيف سُفِكَتْ كلُّ هذه الدماءِ؟ وكيف يغفرُ اللهُ لرجلٍ قتلَ حاصلَ ضربِ قتلى فرعونِ في مائةِ وأدخلَه اللهُ أشدَّ العذابِ يومَ القيامةِ؟ فأين سيدخلُني ربي؟!

هل يغفرُ اللهُ لي يا ريسال؟

- يا حمزة ... كلُّ مَن مُنِحَ نعمةُ امتدادِ بقائه على ظهرِ الأرضِ، اللهُ يقولُ له بذلك ما أزالُ أعطيكَ الفرصةَ للرجوعِ إليَّ..

أتعلمُ يا حمزة؟

- ماذا؟

.. أكملت بسخريةٍ وكأنها تداعبُه:

- لو كنتَ قُتِلْتَ لأدخلك الرحمنُ الجنةَ.

.. فسألها بابتسامةٍ:

- كيف يا ريسال؟!

- لأنك تعتقدُ أنَّك على الحقِّ، وهذه هي الكارثةِ، أن كلَّ فصيلٍ من المسلمين يعتقد أنه على الحقِّ، وللحقِّ، ومن الحقِّ، وبالحقِّ، وإلى الحقِّ، وعن الحقِّ يدافعون، وبالأدلةِ الصحيحةِ علميًّا وتاريخيًّا ليدخلوا الجنةَ وليرضى اللهُ عنهم والرسولُ والمؤمنون تمامًا، مثلما تعتقدُ باقي المذاهبُ والجماعاتُ والفصائلُ والأحزابُ، وكل اثنين اتَّفقا على الاختلافِ مع الآخرين، وكل واحدٍ اتَّفق على الاختلافِ مع الآخرين، وكل واحدٍ اتفق على الاختلاف مع نفسِه، وتقسَّمنا وتقزَّمنا، وما يزالُ الغباءُ مفرطًا، وسيأتي يومٌ نُرْبَطُ فيه من رقابِنا بالسلاسلِ كوحوشٍ غير أليفةٍ؛ لخشيةِ المنظمات العالمية من تزايدِ عدد الأغبياء.

- ياللهولِ!!

- بل يا للغباءِ.

- وما العملُ يا أنا؟

- الأمرُ يحتاجُ إلى تفكيرٍ عميقٍ، لكن ما رأيُكَ أن تقرأ الفاتحةَ على الذين قتلتَ أتباعَهم جميعًا.

.. فابتسمَ في رهبةٍ وقال:

- لقد قرأتُ مرةً.

- بل تعالى واقرأ، فإنك لم تقرأ.

.. ذهبت به ريسال إلى قبرِ أبويها، وفي هذه المرةَ بدا المشهدُ في عينيه مهيبًا، وبكى كطفلٍ سقطَت أمُّه من المركبِ في عرضِ البحرِ وتركتْه وحيدًا؛ ولمَّا نظرَ بجانبِه ووجدَ ريسال سقطَ مغشيًّا عليه حين تذكَّرَ استغاثاتِ من قتلَهم حين قتلَهم؛ فجلسَتْ ووضعَت رأسَه على صدرِها واحتضنَتْه وابتسمَت الدنيا بالدموعِ، وأغرقَ المطرُ العاشقان، فلمَّا أفاقَ ذهب معها إلى غرفتِها، فذهب في نومٍ على شفا حلمٍ كانت فيه معه توقظُه من نومٍ آخر، فلمَّا استيقظَ قالت له: استيقظْ إن حريقًا في أعماقي يجبُ أن يُطفَأَ الآنَ، فاستيقظَ حقيقةً ووجدها نائمةً نصفَ عاريةٍ، وكان القميصُ ما يزالُ ملتصقًا بالجسدِ المتلفِّ الفارهةِ فاكهتُه على طولِ التفافِ العودِ المثيرِ لصخورِ الجبالِ، فالتصقَ بها حدَّ أنهما صارَا جسدًا واحدًا، فلمَّا أفاقت قالت:

- ليس قبلَ أن تدفع مهري يا حمزة.

- لي سؤالٌ قبلَ أن نخوضَ في المهرِ يا ريسال.

- اسألْ يا حمزة.

- علمْتُ من خلالِ أحاديثِنا أنه قد عاد إلى عينيك في السجنِ النورُ، وما وصلَكِ عني في الميدانِ إلا صوتي فهل...

.. قاطعتْه قائلةً:

- لقد قلتُ لنفسي منذ أوَّلِ حرفٍ سمعتْه أُذنايَ: هذا الذي يضاجعُكِ صوتُه حين لا يتكلم أجمل من الذين يتكلمون.

.. لمعَتْ عيون العاشقِ المُصابُ بِها، فقالت لتزيلَ دهشتَه:

- شتَّانَ بين ذلك الذي يجعلك تَراك وهؤلاء الذين يجعلوننا نراهم.

.. ثمَ أمسكَت بكفِّيها نحرَه، ووضعَتْ على أنفِه أنفَها وشهقَتْ مِن أنفاسِه زفيرين، فلمَّا أُصيبَ بالدُوارِ قالت له:

- ليست غريبةً عليَّ عيناك، لقد رأيتُك مِن قبلُ أن أراك.

.. شعرَ بالدوران الجارفِ بينما قامت تستعرضُ الماءَ الباردَ على الهالكِ من العطشِ في صحاري الهوى، فأخرجَ لسانَه يلهثُ طالبًا قطرةً فقالت:

- في الحبِّ لا يمكنُ أن تلمسَني إلا بالحلالِ، وما يحدثُ غير ذلك هو أيُّ شيءٍ آخرَ غيرَ الحبِّ، ولكن الناس يستعجلون فيضيِّعون طعمَ اللقاءِ الأوَّلِ في الهوى.

- كيف يا ريسال؟

- الحلالُ هو الجزيرةُ الوحيدةُ التي إن وصلَ إليها العشَّاقُ نَجَوا، وإن كثيرًا من الناسِ لغارقين بحكاياتِهم بعد أن مارَسوا فيها الحرامَ، الحرامُ ذلك الذي ينشرُ الظلامَ في وجوهِ الذين عشقوا، ولو علموا أن النورَ في الامتناعِ عنه ما جعلوا القصَّةَ بهذا الحجمِ من الخرابِ.

.. فاندفعَ في عطشٍ:

- هيا بنا نبحثَ عمَّن يكتبُ علينا يا ريسال.

- ليس قبلَ أن تدفعَ المهرَ يا حمزة.

- مهما كان مهركِ سأدفعُه، ولو كان يساوي عمري، فإني لا أضمنُ قدرتي على صدِّ جموحِ اندفاع ارتعاشاتي نحوَ دوَّامةِ الانزلاقِ في أعماقِكِ.

- أخبرني أولًا كم يتقاضَى الجندُ في الجنوبِ؟

- ألف دينارٍ يا هِرَّتي.

- وكم يتقاضَى المعلمون الذين يعلِّمون الناسَ؟

- خمسون دينارًا.

- يا هذا.. ماذا سيحدث للعجين إذا كانت يدا الخبَّاز ملطَّختين بالسَّواد؟ سيكرهك المعلم وسيجعل الأجيال الذين بين يديه يكرهونك تلقائيًّا بقصدٍ أو بدون، شِئتَ أم أبيتَ، وستُضطرُّ في كلِّ عامٍ أن تزيد رواتبَ الجندِ الذين يتصدَّون للعامةِ، وستبني السجون وستنفق على المعتقلين ومَن يقومون عليهم، أعطِ المعلم ثلاثةَ أضعاف ما يتقاضاه القاضي بدون أن تنقصَ مِن أجرِ القاضي شيئًا.

الوطن في أيدي حفنة من اللصوص يأكلونه في بطونهم لحمًا، بينما يطعمون الناس حديثًا في الوطنية معسولًا، عندما أمسى يقينًا أن الشعوب لا تمتلك في بلادها شيئًا إلا الأغاني الوطنية، باتت هذه الشعوب تعدُّ الوطن سلَّةَ قمامةٍ كبيرةٍ، مَن مِنَّا يرمي ورقةً في صندوق قمامتِها؟! وبما أن الناس يعدون على أموالهم الخاصة مصحفًا لا يمكن العبث به، فعلينا أن نجعلهم يشعرون بامتلاكهم لوطنهم وسترى ماذا سيفعلون، قُل لي .. كم عدد زوجاتِك؟

- أربع زوجات يا حبيبتي.

- أرفضُ أن يشاركني فيك طرف رمش عين امرأة ولو كانت كفيفة!

- كم عدد الشبابِ الذين لم يتزوَّجوا؟

- كثيرون.

- أما تزالون تأمرونهم بالصيامِ والعفَّةِ وأنتم تتزوجون بالأربعةِ؟!

- يا ريسال نحن ن....

- أجبني فقط بِنعم أو بلا.

- نعم.

- هل تحاربُ مع الجيشِ أم تجلسُ في غرفةِ القيادة وتلتقطُ صورًا تتصدَّرُ بعد الحربِ العناوين كزعيمٍ؟

- هذا نصُّ سؤالِ أبيك في روايته يا ريسال! ولكن الإسلامَ...

.. قاطعتْه غاضبةً:

- عليك أن تعودَ إلى قصرِكَ وتصرفُ ذلك العفريتَ الذي حضَّرْتُه وأسكنته في عقول العوامِ السُّذَّجِ، وأنت تعلمُ أن الإسلامَ قائمٌ بك، وقائمٌ بدونك، ولو استقيظتَ من نومِك متأخِّرًا لعلمْتَ أن العالمَ لم ينقصْه غيابُك وأن الشمسَ تجري لمستقرٍّ لها.

.. فقال منفعلًا:

- لقد بنيت أكثر من سبعمائة مسجدٍ و..

.. اشتدَ الغضبُ وقامت ريسال تزأرُ:

- لقد كان اسمه الجامع؛ لأنه كان يجمع الناس، فإن كان في كل مائة مترٍ جامع فلتبحثوا له عن اسمٍ غير الجامعِ بعد أن أصبح أكبر عددٍ في أيَّةِ صلاةٍ لا يكمل خلف الإمامِ صفًّا واحدًا، وكأنكم تريدون أن تشتتوا الجمعَ، وتفرقوا القلوبَ خشيةَ أن يجتمعوا يومًا عليكم، هناك دائمًا حلٌّ آخر غير ذلك الحلِّ الأمنيِّ.

.. صمتَتْ لحظةً ثم ابتسم فاستغلَّت ثغرةَ ضعفِه، وقالت في مرحٍ لا يخلو من تلميح ثقيلٍ:

- عليك أيها المعتوه أن تبني مسجدًا لكل خمسةِ آلافِ رجلٍ، وتحوِّلَ باقي المساجد إلى مساكن للذين يتخذون من أسفلت الطرقات بيوتًا، تبًّا لكم، تغلقون الجوامع خاليةً طوالَ الليلِ، وطوال الليل ينشِّفُ البردُ عشرات الألوف من المساكين والمشرَّدين!

.. ثم عادت إلى نبرةِ السخرية تسألُ:

- هل توجدُ في الجنوبِ كنيسةٌ؟

- لا يا ريسال وأنت تعلمين ال..

- إنهم يبنون للمسلمين مساجد في بلادِهم يا حمزة!

.. قال بدبلوماسيةٍ:

- دعينا من الحديثِ في السياسةِ يا ريسال وأخبريني عن المَهْرِ الذي تريدين؟

- كم عدد المسلمين في الكرة الأرضيةِ؟

- مليار يا ريسال.

- ماذا لو زرع كل واحدٍ من المليار نخلةً؟

.. ضحك الحاكمُ سخريةً وأجاب:

- لأصبح عندنا مليار نخلة.

- ماذا لو اجتمع المسلمون على هذا كل صباح لمدة عام واحد فقط، من الممكن أن نكفي جوعى سكان الأرضِ من الجوعِ، لكن هذا العدد لا يمكن أن يجتمع على فكرة زراعة نخلةٍ، ستقولُ طائفةٌ آنذاك إن التمرَ حرام، هل تعلم لماذا؟ لأن العدوَ يعلمُ أن اجتماعَنا قوَّةٌ، ولهذا

هو لن يتركَنا نتَّحد، وللأسف هو ينجح في تفريقِنا بنا، الجهلُ الذي يحاربون من أجله التعليم.

تلك العربةُ التي يصورونها تقف عندما يمر فأرٌ في طريقِها حتى لا تدهسُه الإطاراتُ باسم الرحمةِ، إذا تجاوزت حدود العرب تدهسُ البشرَ، ولكن لا أدري بأيِّ اسم يدهسون.

إن كنت تظنُّ أن عصورَ الرومانِ وآكلي لحوم البشر انتهت، فأنت واهمٌ، فهذه الحضارات التي بنيت على جثةِ الإنسانيةِ، وما تزال تمارسُ ساديتَها كعجوزٍ راقية، في الماضي كان يستعبدُك وفي الحاضرِ تستأذُنه في طلبِ العبوديةِ، كيف تقولُ إن لعبةَ المصارعةِ حتى الموتِ انتهت وهو يدرِّبُ أخيك على قتلِك، ويعطيك السلاحُ لتقتلَه في مصارعةٍ للموتِ في حلبة الوطن والحَكَمُ هو الحرية.

- خطبة جميلة يا ريسال لكن ما علاقة هذا بالمهر أو بي.

- مهري أيها الأحمقُ هو إعادة الجنوب إلى الشمال تحت حكم الملك الذي لن يكون إلا شرفيًّا، ولكن سيعيِّنُ مِن الشعبِ وزيرًا للحكم.

- تطلبين المستحيل يا ريسال، طريقٌ شاقٌ ذلك الذي تريدينني أن أعتنقَه!

- مهري هو المستحيل، أقسمُ أن بقايا كسرِ الزجاجِ المفروشِ على طولِ امتدادِ الطريقِ إلى الله حين تزحفُ الروحُ عليه أكثر نعومةً من ملمسِ الحريرِ في الطريقِ بعيدًا عنه.

أصحاب الهِممِ الجَبَليَّةِ لا يسألون اللهَ الوهَّابَ إلا المستحيلاتِ في مرتفعاتِ أحلامِهم التي لا تنبغي لأحدٍ مِن العالمين.

- حسبتُك ستطلبين مالًا مثل كل النساء!

- لست ككل النساءِ ليس لشيءٍ فيَّ أكثر جمالًا، وإنَّما لأنك لست ككل الرجالِ، أنا أنثى تليق بك إذا كنت رجلًا يليقُ بي، وأنا هنا بانتظارك ولو ألف عامٍ، عُد إلى حيث كنت قبل غروب

العالم يا سيد الرجال.

.. ركب جوادَه وحدَّقَ في عينيها وكأنَّ عيناه تقولان:

- ماذا لو أغفو فقط على صدرِكِ قليلًا، ربَّما لم يُكتبْ لي أن أعودَ إلينا.

.. فقالت له عيناها:

- قد يحملُ مشهدُ الغروبِ مبرِّرًا لرعبِ طائفةٍ مِن الناسِ على خلفيةِ أنه يذكِّرُهم بطعناتِ الرحيلِ، إنما لماذا يصيبُكَ الهلعُ مِن مطلعِ الفجرِ، غروبُنا هذا المساءُ لا يعني إلا شروقنا في نهارٍ آخر، ألا ترى أنه لا يسري علينا ما يسري على العالمين؟

- كيف تجلسين على طاولةِ المفاوضاتِ وتضعين على المائدةِ الموتَ الإجباريَّ، وتقولين لماذا لا تبتسمُ؟

- بل ستبتسمُ.

- إني أرى في الوداعِ أنَّكِ تذبحينني وسأبتسم لتنامَي مرتاحةَ الضمير بعدَ غسيل يديكِ من الدماءِ.

- سنعبدُ اللهَ كما يريدُ هو لا كما تهوى أنفسُنا يا حمزة.

..فأجهشَ بالبكاءِ حتى اغْرورِقَتْ عيناه بالعبرات، وهَمْهَمَتا مطرًا يجري في فوقَ خشونةِ الخدَّينِ وصار يَنْحَبُ وهو يقولُ:

- لا تقُولي إن هذا مِن أمرِ الرحمن، أنت لا تملكين سكِّينَ إبراهيمَ ولا تعرفين الرحمةَ؛ اللهُ لم يأمرْكَ بِذَبْحي.

.. هرولت تبكي في أعماقِه وهي تسعى بحبَّتيِّ عينيها بين حبَّتيِّ عينيه وتوقِّعُ آخرَ قبلةٍ قبلَ الرحيلِ وهي تكتمُ فمَه حتى قال لها بعد أن ركبَ جوادَه:

- السلامُ عليك يا ريسال.

- وعليك السلامُ يا سيدَ حبيبتِك.

فقالت وهو يختفي بعيدًا:

- إن روحي تخرجُ حين تخرجُ، فكيف أجلسُ هنا بلا روحٍ يأكلني الدودُ ولا غُسلَ ولا كفنَ ولا أنتَ مِن المشيعين.

ثم صرخَتْ العاشقة وقالت:

- لم تكنْ أبي ولم تكنْ أمي، فلماذا أشعر حين تغيبُ باليُتْمِ.

.. ومشى الحاكم وقلبه في يديها فلمَّا اختفى على مدِّ البصرِ شهقَت بانقطاعِ أنفاسٍ، فصرخَتْ باختناقٍ وأشارت إليه، فعاد يقطعُ السفرَ إليها فقالت بعد أن عانقَها وردَّت الروحُ فيها:

- الدقيقةُ حين يغيبُ العشَّاقُ عن العشَّاقِ ستون ألف موتٍ على أقلِّ تقديرٍ.

.. تنهَّدَ متعجبًا:

- ما كان غيابي إلا بضعَ دقائقَ فقط!

فقاطعتْه بجنون وهي تبكي:

- إذا كانت كلُّ دقةِ قلب في غيابِك موجعةٌ بحجمِ عدةِ طعناتٍ في مناطقَ متفرقةٍ بين ضلوعِ الروحِ، فكم عددُ الطعناتِ برأيك في البِضْعِ دقائق هذه أيها الأحمق؟!

.. فابتسم مدعيًا الهدوءَ الواثقَ:

- لقد شرَعْتُ في قتلِك إذن؟!

- لو كان غيابُك مجردَ شروعٍ في قتلي، فما هو القتلُ إذن برأيكَ؟

.. وقفزَت المُهرةُ على صدر حصانِها قائلةً وهي تضربُه على وجهِه:

- سأموتُ إن توقفتَ عن القُبَلِ؛ فإن كنت ستخافُ رؤيةَ الناسِ لاشتباكِنا، فحاول أن تلقّنني الشهادتين، وعند موتِك في يومٍ ما تذَكَّرْ أن تكتبَ لمن سيشيعونك وصيةً أن ترقدَ بجانبي.

.. فتخلَّى عنه الهدوءَ وانسحبَتْ الثقةُ فانفرطَ قائلًا:

-كنت بعيدًا أشمُّ رائحةَ جسدِك كما لو أننا في عناقٍ وأنفي مدفونةٌ في صدرِك.

ولمَّا أحسَّتْ برعشةِ صوتِه الخافتِ ... وكأنه رغم الصحاري ما يزالُ خائفًا ... قالت بتهوُّرٍ:

- تاللهِ لن أبرح الدنيا حتى تراني يومًا عاريةً أمامك تمامًا من الخوفِ، دَينٌ في رقبتي لَتعانقَنّني يومًا وتلفُّ ذراعيك الشديدين حولَ خصري هذا، ولأصفعنَّكَ على وجهِكَ بكلتا كَفَّيَّ إن لم أسمع صوتَ تكسيرَ عظام روحي بين يدي ضمِّتِك، فلا تلومنَّ يومئذٍ إلا رجولتَك، إني في الحبِّ لا أعرفُ الرحمةَ.

ثم تراجعَت الفاتنةُ عن العناقِ العنيفِ، وأشارت إليه ليذهب حيث أمرَتْه وهي تقولُ في بكاءٍ جارفٍ:

- كنتُ أتساءلُ؛ لماذا الناسُ حين تغيبُ أحبَّتُهم يصابون بالجنونِ؟ أو بما يسمَّى بالحنين، فلماذا حين تغيبُ يدقُّ على الروحِ الموتُ، اعلمْ أنَّك إذا جئتَني يومًا ورأيتَ أُناسًا يشيِّعون أنَّك تأخرتَ كثيرًا جدًّا.

.. وعاد للانطلاق الحاكمُ راكبًا جوادَه وهو يعزِّي نفسَه:

- معالمُ الجغرافيا لا تشكِّلُ حاجزًا إلا لهؤلاء الذين لا يملكون أجنحةً.

.. ووضع دستور حديثِها بين ضلوعِه ورئتيه، ودخلت كوخها لتحضر أوراقًا وقلمًا لترسم الخطط وتعدَّ العدَّةَ للأيامِ القادمةِ.

وكان كبيرُ الحراس قد أُصيب بالذعر بعد أن أُفيق على هروبِ ريسال، وكأن الإغماء أنقذَه من الارتجاف، فتمدَّدَ مكانَه خارج نطاق الدنيا إلى أن جاءه الطبيبُ.

ودخل الجنوبَ فأعطاه الجنودَ التحيَّةَ باعتبارِ أنه يرتدي لباسَ كبيرِ الضبَّاطِ، ثم دخل القصرَ على حين وجلٍ منه؛ فوجدَ صاحبَه خالدًا كبيرَ الحراسِ على نفسِ فراشِ ريسال يقفُ بجانبِه الطبيبُ ليضمِّدَ جراحِ رأسِه، فحاولَ كبيرُ الحراسِ أن يقومَ لكن الحاكمَ ابتسمَ له، ثم ذهبَ ليطمئنَّ على مالك وكأنه من رائحةِ ريسال وقال له:

- لماذا كذبْتَ عليها يا مالك، وقلت لها إنك مَن في اللوحةِ؟

.. فأجاب مالك وقد بدأ يرتاب من ملامحِ الحاكمِ في السؤالِ:

- هذا التجلِّي لفتوحاتِ الجمالِ المشهودِ في هذا الوجهِ يجعلُ مَردَةَ الجنِّ يؤمنون بالرحمن، فكيف برجلٍ مثلي؟!

.. أصبحت مهابة الحاكم على المحك ووقفت على حافة الذل كرامته، ذلك الهوى يقوم بفصل إمكانات التحكُّم اليدوي في الأعصاب ويملك آليًّا كل خيارات الروح!

.. أخذ مالك يلتقطُ من ذاكرةِ رسمِ لوحتِها القديمةِ الصورَ، وتعجَّبَ حين اقترب الحاكمُ منه على هذا الشَّبهِ الكبيرِ حدَّ التطابقِ.

.. فقال بتلقائيةٍ للحاكمِ:

- لقد سمعْتُ صوتَ غطيطك حين كنتَ نائمًا في الغرفةِ التي بجانبي.

- فابتسم الحاكمُ بهدوءٍ وقال:

- أما وقد رقصَتْ على إيقاعِ غطيطي يا صاحبي، فإنَّ الأمرَ لا يتعلَّقُ بالموسيقى ولا يتعلَّقُ بالأسبابِ.

.. صمت مالك لحظاتٍ وهو ينظرُ دافئًا في نواياه سخريةً، فتابعَ الحاكمُ حديثَه قائلًا:

- ما كان لرجلٍ أن يكونَ رجلًا حتى تحتاجَ إليه امرأةٌ؛ فحذارِ ألا يكونَ لديك ما يجعلُها في حاجةٍ إلى رجلٍ.

.. فسأله مالك وقد استجاب لاستفزازِ حمزة له:

- وما ذلك الذي تحتاج إليه النساء؟!

.. أجاب الحاكم:

- الصدق.

.. فتنهَّدَ مالك وعلم بتأثيرِها عليه:

- كيف علَّمتْكَ الهدوءَ بعنفٍ والعنفَ بهدوءٍ يا هذا؟

- لم تعلِّمْني يا مالك، وإنما علَّمني الذي جعلَك اليومَ غاضبًا.

.. ثم دخلَ الحاكمُ وبدَّل ملابسَه ووجدَ في جيبِه ورقةً كُتب فيها ثلاثةَ أسطرٍ قرأهم ودقَّقَ فيهم؛ وتنهَّدَ ثم استدعى مجموعةً من الحرسِ الخاصِّ، وأمرَهم أن ينادوا في الناسِ جميعًا ولا يتركوا أحدًا في بيتِه كبيرًا كان أو صغيرًا ذكرًا كان أو أنثى ليجتمعَ بهم في ساحةِ الجنوبِ الكبرى.

.. وقبلَ أن يذهبَ الحاكمُ إلى الساحةِ اجتمع بنسائه الأربعةِ ثم قالَ لهم:

- «يرزقُ اللهُ كلًّا مِن سِعَتِه» و..

.. فقاطعتْه إحداهن بالسخريةِ عندما شمَّتْ رائحة الانفصالِ:

- اذكروا محاسنَ العشَّاقِ، فإنه لا يجوزُ على العاشقين إلا الرحمةُ.

.. شعر الحاكمُ أن أمرَه مع ريسال لم يعد سِرًّا فقالت الزوجةُ القديمةُ:

- أنت رجلٌ معه آلاتُه التي يعذِّبُ بها البشر في كل الحكايا، فلماذا تريدُ أن تستخدمَ المنشار؟

.. فقال بتحضُّرٍ:

- عندما نبني بيتًا ونكتشف أن ما بُني كان مقبرةً، لا لأن الرسم الهندسيَّ للبيتِ يشبه المقابر، وإنما لأن الذين يسكنون البيت يشبهون الموتى، يبقى سؤالٌ لماذا يستمر الناسُ في الاختناقِ؟ لنطالع كلَّ صباحٍ أخبار الذين أُعْدَموا شنقًا في الليلِ؟ في بيوتٍ أذِنَ اللهُ ألا يُقامَ فيها إلا الحبُّ؛ دعونا نختار الحياة جميعًا.

قد كانت لي أخطاءٌ أقامت بين قلبي وقلوبكن مسافةً، تلك المسافةُ سحبَتْ مِن اللقاءات طعمَها؛ فباتت كلُّ اللقاءاتِ بيننا كرجلٍ جائعٍ ليس أمامه إلا السُّم، سأعطيكن حقوقكن وستعودنَّ إلى بيوتكن لتبدءوا في حياةٍ جديدةٍ، أنا فيها أخٌ كريمٌ وأبٌ وأمٌ وجارٌ وصديقٌ في حضارةٍ، دعونا نكون على قوائمِ الإنسانيةِ، فإن الذي نحن عليه هذا جاهليةً.

قالت إحداهن في وجعٍ:

- لقد كان اختبارُك فوق طاقةِ البشرِ يا سيدي، ويومًا ما قد يثأرُ لي القدرُ من عنقِ روحك.

فقال حمزة غاضبًا:

- لا نعرفُ العاشقَ الأحمقَ الذي ضيَّع نصفَ الأعوامِ في عشقٍ من طرفٍ واحدٍ إلا بعدَ أن تراه في النصفِ الباقي من عمرِه ينتظرُ أن يثأرَ له القدرُ.

فقالت أخرى:

- طلِّقْنا، لا تبتلعْ ما ليس قابلًا للهضمِ حتى لا تُضطرُّ إلى التقيُّؤ ذات ضيقٍ.

فعادت الزوجةُ الأقدمُ تبكي:

- نملكُ القدرةَ على جرحِ ألفِ روحٍ مع عدمِ الإحساسِ بها في آنٍ معًا، وهذه موهبةٌ لم يسبقْ الإنسانَ العربيَّ فيها أحدٌ، في الوقتِ الذي يستطيعُ أن يملأُ الأرضَ عويلًا إذا خُدِشَ؛ ولذلك ترانا نشتكي مِن الناسِ وترى الناسَ يشتكون في الوقتِ نفسِه منَّا، في المدينةِ لإحساسِ العازلِ للصوتِ بتقنيةٍ لا يَسمعُ فيها أحدُنا إلا وجعَه.

.. تذكَّرَ الحاكمُ جملةً مما يحفظُه من الرواية المحرَّمةِ، فقال وهو يظنُّ أنهن لا يعلمن بما كان في الروايةِ:

- مَن يخبرُني عن سر فتاوى الخلقِ بأن الحبَّ مِن الجُحَّادِ، إن كان هناك إلهٌ حرَّم دقَّ القلبِ سأعلن في مَلإٍ إلحادي، قد نِمْنا بِنفسِ فراش الليلِ وكلٌّ مِنَّا كان بعيدًا، ما معنى أن الضحكةَ فرضٌ لكنْ قلبَكَ ليس سعيدًا.

.. نظرْنَ إلى بعضهِن في دهشةٍ مما يقولُه الحاكمُ الأولُ بنفسِه مِن الروايةِ المحرَّمةِ!

.. أدرك الحاكمُ ألا اجتماعًا سينتهي إلى وثيقةِ سلامٍ مع الأطرافِ الأربعةِ على طاولةِ المفاوضات؛ طلَّقَ الحاكمُ نساءَه الأربعةَ وقال لهن:

- بحقِّ الذي كان بيني وبينكن أنا في تجربةٍ كلِّ مَن كان قريبًا مني سيتحوَّلُ فيها إلى ثعبانٍ كبيرٍ، وأنا لا أريدُ أن أراكم كذلك، في الوقت الذي لن يعلمَ مَن لا يعرفُني أني فرخٌ صغيرٌ؛ فلا تنتظروا حتى أقولَ لإحداكن إن سألَتْني حين أهاجرُ: «كيف يمكنك اللومُ على الطيور حين تهاجرُ تاركةً موطنَها إذا شعرَتْ بالثعابين تحومُ حولَ فراخِها؟!».

ثم قال في نفسِه وهو يتذكرُ وجهَ حبيبتِه:

- لم يدقُّوا بابَ قبري حين كنتُ على قيد الموتى، وبعد أن عشقْتُك يسألونني لماذا أنت على قيدِ الحياةِ.

أعطاهن فوق ما يحلمون مِن أموالٍ وبيوتٍ، ثم ذهبَ إلى السَّاحةِ بعد ازدحامِ الجميعِ، فسلَّمَ عليهم ثم بدأ كلمتَه بصوتٍ فيه ثقةٍ وفرحٍ كَطِفلٍ بريء، وهو يمسك ورقةَ ريسال التي كانت قد دسَّتْها له في جَيبِه:

- هناك خارطةٌ تُرْسَمُ الآنَ على جدارِ بيتٍ في الطريق الذي فيه قصري فيها الجنوبُ الجديدُ، وما يتعلَّقُ بكم فيها هو أنه مَن سيزرعُ نخلةً منكم أو رمانة أو زيتونة أو شجرة تين أو ليمون في الخطِّ المرسومِ في الخارطةِ حسب نوعِ الشجرةِ سيتقاضى مني بعد طلوعِها مائتي دينار، وستنتهي علاقتُه بالشجرةِ بتقاضيه المائتي دينار، وكلُّ عشرةٍ من نوعٍ مختلفٍ بحيث من يزرع عشرة نخلاتٍ عليه أن يزرعَ عشرةً من الزيتون وهكذا، ومَن سيزرعُ وردةً سيتقاضى مني خمسةَ دنانير مع أول زهرةٍ تتفتَّح فيها، والمعلمون سيتقاضون من هذا الشهر ثلاثةَ آلاف دينار، وليروني ماذا سيصنعون بالأجيالِ، وسأحفرُ في الصحراءِ ترعةً تمتد من شمالِ الجنوبِ إلى جنوبِه، متجهةً إلى عمقِ الصحراءِ لا أحدَ يسألُ من أين سيأتي إليها الماءُ ولا ماذا ستروي، وكل أملاكي معروضةٌ للبيعِ بما فيها القصرُ، وأنا من اليومِ بيتي كأقلِّ بيتٍ في بيوتِكم.

انفضَّ خطابُ الحاكم وكأنَّ على رؤوسِ القومِ صاعقةً من فرط جنون ما سمعوا، وذهبوا ليستكشفوا البيتَ الجديدَ الذي سيقيمُ فيه الحاكمُ والخريطةَ المرسومةَ على جدرانِه،

وهرولوا يبحثون ويسألون كيف سيُزرعُ النخلُ والزيتونُ والرُّمانُ وسافروا في مختلف المدائن كالمجانين يشترون الشتلات والبذورَ، ولم تغربْ شمسُ اليومِ الأول للخطابِ إلا وقد عاد كثيرون يهرولون نحو الخريطة ليرسموا على الخطوط المحددةِ للزراعةِ بنفس المسافات المحددةِ بين الشجرةِ والتي تليها، واجتمع المعلمون مع طلابِهم وعلى وجوههم نضرةُ الوطنِ.

وما تزال ريسال هناك تفتقدُ جوادها العنيدَ وتهيمُ بحثًا عن رائحتِه في كلِّ مكانٍ وتقولُ:

- بل رغمًا عني تذكرُ عيني عينُكَ حين أنامُ وحين أقومُ وحين أُمَدِّدُ غافيَا، بل ليس بجملةِ تهديداتِ العالمِ كلِّه حين تغيبُ تجافيَا، وحبيبي كفُّك في كفيَّ على ذِكْرانا لبضعِ سنينٍ مرَّتْ منَّا أعيش عليها كافيَا، وأهيمُ بوجهي في الطرقاتِ وحين أصادفُ أيَّ طريقٍ كنَّا عليه حبيبي أنزعُ من قدميَّ حذائي وأمشي مكانَ مرورِكَ حافيَا.

.. لكنها كانت كعادتِها تزرعُ الأملَ في نفسِها وهي تهمسُ لنفسِها:

- ما كان غيابًا مؤلمًا كالألمِ إذ يهجرُ العشاقُ العشَّاقَ، وإنما هو ذاك الموتُ المؤقَّتُ لحين عودتِك مرةً أخرى.

وإلى الجنوبِ اجتمع الحاكم بحرَّاسه وقال لهم:

- لا أحدَ مشغولٌ بقتلي اليومَ والناسُ هكذا كما ترون؛ سأبقي بجانبي كبيرَ الحراسِ، وعددًا من معاونيه فقط، أمَّا الباقي سيشقُّ الترعةَ على أن يتقاضى كل واحدٍ منكم في المتر الواحدِ خمسمائة دينار وهذا خلاف راتبِه، ولا يُشغَلُ بالُه بما يزرع الناسُ.

وكان الحاكمُ قد طلب من كبير الحراسِ قائمةً بأسماءِ الشبابِ الذين بلغوا الثلاثين ولم يتزوجوا بعد؛ فبلغ العدد ما يزيد عن عشرة آلاف شاب ما بين فقرٍ وعدم وجود بناتٍ؛ لأن معظم الجنوبِ كانوا من المقاتلين فقط.

.. سأل وزير بيت المالِ حاكمَ الجنوبِ:

- مِن أين سندفعُ لكل هؤلاء يا سيدي إنها ورطةٌ كبيرةٌ؟!

- ألم أذكرْ لك أنني سأبيعُ ممتلكاتي؟

-!!

- أعْلِنْ بيعَها قطعةً قطعةً على حسبِ المطلوبِ منك من رواتب إلى أن تنتهي الممتلكات أخبرْني، وبالفعل بيعت كل الممتكات بما فيها القصر بما فيه، والذي فُتِح له مزادٌ كبيرٌ وباعه الوزيرُ بمبلغٍ فاق حدود الخيالِ.

وخلالِ أقلِّ من شهرٍ كان الجنوبُ قد تم تخطيطُه بالأشجار كلوحةٍ للجمال فوقَ الرائعةٍ، وتقاضى الناس رواتبَهم وانتهى الحراسُ من حفر الترعةِ، لكن وقف الجنودُ يطالبون برواتبِهم في الحفر التي بلغت رقمًا فوق ممتلكاتِ الحاكمِ التي بيعَتْ في زراعة الأشجارِ، وما تبقَّى منها إلا ما يكمل خريطةَ الأشجارِ المحددةَ للجنوبِ؛ فطلب وزيرُ بيتِ المالِ الإذنَ من الحاكمِ للتشاورِ فيما في أمر رواتبِ الحراسِ الذين بدءوا في المطالبةِ بما وُعِدوا به لكن الحاكمَ أجَّلَ اللقاءَ وسطَ حرجٍ شديدٍ وُضِعَ فيه الوزيرُ أمام مطالبِ الحراسِ الذي بلغ حدَّ الغضبِ.

مرَّتْ فترةٌ عصيبةٌ على الحاكمِ لولا يقينُه من دستورِ ريسال في الطريقِ المستقيمِ إلى الرحمن لكان لحالتِه النفسيةِ حالٌ آخر، لا سيَّما وأنه بدأتْ تعلو نبراتُ السُّخريةِ ضدَّه بعدَ أن أصبح بينهم رجلًا عاديًّا، فتجرَّأ عليه البعضُ وبدأ البعضُ الآخَرُ في رفعِ الصوتِ بحضْرتِه؛ الحريةُ أمرٌ بالغُ الخطورةِ في بلادٍ لَحْمُ أكتافِها من خيرات الجهلِ على مدارِ قرونٍ.

حتى إن أحدُ العامةِ تجرَّأ على حمزة ذات يوم وناداه قائلًا:

- تريدون من الناسِ (الكثير) فتطلبون (الكثير جدًّا) حتى إذا ضاق الناس حذفتم من جملةِ (الكثير جدًّا) كلمة (جدًّا)، فتطلبون (الكثير) فقط فيقول العامة والله ما طلب الحاكم إلا (القليل).

ثم صرخ على حمزة قائلًا ليسمع الناسَ:

- قل كيف يمكن أن نقول على لسانِ الفُحْشِ عَف، أو كيف يمكن أنَّ نقولَ الجرحُ في عمقٍ أخف، إن أصدروا بترًا لكَفِّكَ ثمَّ خُفِّفَ إصبعٌ، ستقولُ شكرًا للعدالةِ إنَّهم أهدوني كَفْ.

.. وذات ليلةٍ نام في ريبٍ مِن أمرِه وممَّا وصلَ إليه حالُه فجاءتْه في المنامِ حزينةً وهو يقولُ لها:

- في عينيك حدادٌ كبيرٌ؟!

فأجابتْه:

- لا تحسبْ بوحي المقتضَبَ مِن حمَّى سكوتٍ أو غَضَبَ، قد كنت أحاولُ أن أحزنْ، لكن بكائي قد نضب.

.. فسألها متوسلًا:

- لقد فعلْتُ كلَّ ما في الورقةِ فما الذي يحزنُكِ.

.. فقالت له وقد بدأتْ الدموعُ في الجريان:

- أخشى عليك مذابحَ السَّطرِ الأخير؛ فاحضنْ وقَبِّلْ طعمَ خمرٍ قد أفاض، وتوقَّعوا في أيِّ حضنٍ للهوى، تسديدَ طعنٍ في الضلوعِ على افتراض، لولا الكلابُ على الحياةِ لَهُدِّدَتْ، أحلامُ قلبي في الوفاءِ بالانقراض.

فقال لها وقد بلغَتْ توسلاتِه حدَّ البكاءِ:

- أنا على العهدِ يا ريسال باقٍ!

فقالت وكأنها ما تزال تصرُّ على نبرةِ العتابِ:

- أرأيتَ الأرضَ وكلَّ كواكبِ هذا العالمِ والسمواتِ وكم بلغَتْ دربُ التبَّانةْ، سيضيقُ عليك العالمُ بعدي وسوف تسافرُ تقرأُ فوقَ رخامِ الموتى نعيًا باسمي على الجبَّانةْ.

- ما الذي يدعوك إلى عِتابي وأنا ما أزال يا سيدتي على العهدِ؟!

- هل سمعْت عن إنسانٍ على شفا هلاكٍ من الجوعِ ووجدَ دجاجةً مشويةً فوقف يبكي حين تذكَّرَ آلامَها وقتَ الذَّبحِ؟ ذلك هو أنت، وتلك الدجاجةُ هي أنا، وهذا أمرٌ في عالمٍ ماتت فيه الإثارةُ ما عاد فادحًا.

استيقظ مندهشًا من ذلك الحلمِ الرهيبِ مستدعيًا خالد، فلما قَصَّ عليه الحلمَ قال:

- هي تعاتبُك على ريبتِك في أمرِها ... ولكن ... كيف أمسَتْ عينيك بهذا البراحِ المفتوحِ الذي ما عاد يعد السموات سقفًا؟!

- هل تعلمُ كيف تتسعُ مساحاتُ روحِك فتمسي ذلك الملكُ الكبيرُ الذي لا ينبغي لأحدٍ من العالمين ولو جرى فيه الوحوشُ سبعين ألف عامٍ ما قطعوه، إنه بالحب يا صاحبي الذي يضيق دونه الملكوتُ في عيون التائهين ... خالد؟

- نعم سيدي؟

- دفعةً واحدةً عليك الإجابةَ ما شعورُك نحو حبيبتي؟

- اذكرْها ستشعرُ أنك لو مشلولًا ترقصُ أنَّ الملحَ تحوَّلَ سكَّرًا إن سوادُ القبْحِ تزيَّنْ، وبأنَّ الجِنَّ توضَّأ صلَّى في عينيها، وآمنَ أهلُ الكفرِ جميعًا والشيطانُ رآها تَدَيَّنْ.

تبسَّمَ حمزة فقال خالد:

- لقد نجوْتُ بأعجوبةٍ من محاولةِ اغتيالِ عينيها.

فتجرَّأ خالد عندما ابتسم له حمزة ثم سأل حمزةَ قائلًا:

- دفعةً واحدةً عليك الإجابةَ ... كم من الوقتِ تستطيع أن تبقى كاتمًا أنفاسِك حين تغيبُ عنك؟!

أجاب حمزة دفعةً واحدةً:

- قد كنا نُفْزَعُ إن غفونا ذات حبٍّ بعدَ عنفٍ في اللقاء، فبغير شفاهِها في شفاهي كيف سيمكنُنا الحياةُ وكيف سيمكنُنا البقاء، قُل كيف يمكنُ أن يعيشَ نباتُ حُبٍّ دونَ خمرٍ للسِّقاءِ ودونَ شدٍّ للحديثِ ودونِ كسرٍ للقواعدِ دونَ فتحٍ للجنونِ ودونَ ضَمٍّ وارتقاء.

وعندما ضحك خالد ضاربًا كفًّا على كفٍّ قال حمزة بتنهيدةٍ شديدةٍ وهو يبتسمُ:

- لقد تجاوزَتْ المدى عيناها الظالمتان.

- كنتُ أتساءلُ يا حمزةُ: ما بالُ حديث صاحبي قد أصبح فاتنًا ... الآن لم أعد أتعجَّبُ! لكنني لم أسألْك كيف كان شعورُها بأولِ مرةٍ قلت لها أحبُّك!

- الأنثى بعد سماعِها أوَّلُ كلمةِ أحبُّكِ انتظرتْها منك لا تشبه نهائيًّا ما كانت عليه طوالِ مدَّةِ الانتظارِ.

- وما الفارقُ يا صديقي ما بين قبلُ وبعدُ؟!

- لن تدركَ الفارقُ يا صديقي قبلَ أن تفقدَ بصرَك أربعين سنةً، ثم تفرحُ حين يرتدُّ إليك.

سأل حمزة مداعبًا خالد:

- أليس لك قلبٌ أيها الأسدُ؟

أجاب خالد مازحًا لكن الأمرَ لا يخلو من لمعان عينٍ وتنهيد مختبئ:

- عند انتهائي من الصلاةِ وعند باب المسجدِ استوقفْتُ سائلًا الإمام، هل يفسدُ الفكرُ الوضوءَ إذا الدِّماغُ انْقَدَّ في وقتِ السجودِ من الوراءِ إلى الأمام.

أجابَ إن وصلَتْ فتاةٌ للدماغِ يعدُّ لَهو، لكنْ إذا عمَّ البلاءُ يجوزُ إنهاءُ الصلاةِ، فإنني أيضًا فُتِنْتُ سجدْتُ سهوًا ثم في هذا السجودِ سهوْتُ أخرى، وهكذا قد قمْتُ ليلي سجودَ سهو..

ابتسم حمزة وقال لصاحبِه وهو يعانقُه:

- المحنةُ أجملُ زاويةٍ من الممكنِ أن يرى الإنسانُ مِن خلالِها العالمُ دون ضبابٍ، لا يتعلَّقُ الأمرُ فيها بمن خذلوك، وإنما بالذين رأيتَهم بجانبِك وما كنتَ ترى.

بكى خالد وعانق صاحبَه بشدةٍ وقال بكل إيمانٍ:

- اجعلْ بينَك وبين الذين لا يؤمنون بك حاجزًا.

وما هي إلا أيامٌ حتى بدأَتْ رائحةُ الوردِ تتَّخذُ طريقَها في الصُّدورِ طربًا، ورأى المارون خطوطَ النخلِ الصغيرِ بدأتْ في الظهورِ خضراءَ واكتملَتْ قائمةُ الشبابِ الذين لم يتزوَّجوا، ومضى الحاكمُ في طرقات الجنوبِ وهو يبتسمُ؛ إذْ احتضن المعلمون تلاميذَهم فقال محدِّثًا نفسَه:

- مِن خطابٍ صادقٍ واحدٍ صار العامةُ في الطرقات يرقصون؛ بأيِّ خطابٍ كانوا يحدِّثوننا إذا كنا من قبل في حِدادٍ كبيرٍ؟

وسطَ كلِّ هذا الذي يحدثُ هرب مالك من غرفتِه بالجناحِ بعدَ أن وعد أحدَ الحراسِ برشوةٍ وبيتٍ في الشمالِ حين لم يفِ الحاكمُ بما وعدَ الحرَّاسَ به من رواتبٍ، وانطلقَ مالك صوبَ ريسال قاطعًا الصحراءَ وقد جفَّ حلْقَ روحِه من فتكِ الحنينِ إليها.

فاجأها وهي بغرفةِ نومِها في صباحِ خوفٍ وقال لها بعد أن انتبهَتْ على صوتِه:

- في مرافئِ سواحلِ عينيكِ وصلَتْ الروحُ المتعبةِ مِن الغرقِ.

فاعتدلت من نومِها وهي ما تزال بقميصِها وقالت وهي وهي تدقِّقُ في التفاصيلِ:

- مَن أنتَ..؟ تذكَّرتُك، أنت ذلك الرجل الذي كان مقيَّدًا في غرفة جناح الحاكم ... لا بدَّ وأنَّك بائع العطورِ مالك؛ هذا صوتُك الذي ما دام توقَّعْتُه ناعمًا، ولن أرتدي شيئًا على قميصي لأواري ما كان يومًا عاريًا أمام عينيك وكنت أمينًا.

فقدَّمت له الماء وبعضَ الطعامِ وهي تحكي له ويحكي لها قصةَ عودةِ النور واستئنافِ العملِ بحنجرتِه وأذنيه في فاصلٍ من المزحِ والجدِ، ثم فاجأَها بقولِه بعد أن شعرَ أنها تكبِّلُه بالذوقِ فقال بذوقٍ أشدِّ:

- لا أزال أحبُّكِ يا ريسال.

.. قاطعتْه قبلَ أن يكملَ البوحَ:

- يا مالك..

فقاطعَها بارتعاشٍ حين تيقَّنَ من نواياها في تكفين الغرامِ ووأْدِه حيًّا:

- حضنُك هذا أم كان تابوتًا للموتى يا ريسال؟

- لماذا تحاولُ أن..

- سأقطعُ أحبالَ حنجرة روحي كي لا يصلَ إليكِ صوتي حين أموتُ فيك عطشًا وأحتاجُ إليك.

.. صرخَتْ في وجهه:

- لقد فقدَتْ بلاغتُكَ الزهوَ بعدَ أن كان الصمتُ على شفتيك بلاغةً، اتركني أكمل لك جملةً واحدةً يا مالك.

.. سادت لحظاتٌ من الصمتِ تذكَّر فيها مالك الفتاة التي دعتْه إلى اللقاء بها في الحرامِ، ورسمَتْ له الطريقَ (طريق الضباب) إلى مدينة الرايات الحمر؛ ليقعَ بعدَها في بئر حب ريسال التي تعيش في منتصف طريق الضباب الرابط بين جنوب روماف ومدينة الرايات وقال يتمتمُ:

- لو كنتُ أعلمُ مَن ذا الذي لقَّني في كفنِ حكايتِكَ ودفنني في مقبرةِ الحنينِ إليكَ لقطَّعْتُ ضلوعَ صدرِه مِن خلافٍ، ومنعْتُ عن جسدِه الموتَ حتى يرى العذابَ، بعضُ البشرِ ما كان ليحملك براحتيه فوق رأسِه بهذا الارتفاعِ الشَّاهقِ إلى ذلك المقامِ الرفيعِ إلا ليضمنَ لك سقوطًا لا تقوم لك بعدَه حياة.

.. لكنه عاد يستعطفُ ريسال بمزيدٍ من موتِه:

- عيناك المقدَّستان تهدداني بالهبوطِ من الجنةِ.

.. وضعَتْ كفيها على وجنتيها وهو ما يزال يبوحُ بالدموعِ:

- لو كنتِ قد أخبرتيني أن التي خلفَ ظهرِك ليست وردة ما كنتُ أتعبتُ أناملك الرقيقة في القبضِ على السكِّين.

كل امرةٍ تخبِّئُ تحت لسانِها ساطورًا حين تتحدَّثُ عن الحبِّ ليس لاستعمالِه، وإنما لتجعلَ شريكَها يقتلُ نفسَه به منتحرًا.

.. فقالت بهدوءٍ:

- تحاولُ أن تهشِّمَ كلَّ المرايا لكي لا تظلُّ تطاردُ عينيك ملامحُ وجهِكَ إذا نظرْتَ صدفةً نحو الحقيقةِ.

.. بِنَدَمٍ عارمٍ قال:

- هي لن تدعوك إليها وإنما ستبتسمُ، وما كانت الابتسامةُ في المعمل الجنائيِّ للجرائمِ دليلًا يؤخذُ ضدَّها في العَضِّ، وهي لن تدعوك إلى التفاحِ وإنما فقط ستواربُ بابَ الحديقةَ، وصوتُ مواربةِ البابِ لا تسجُّله الأدلَّةُ.

..بدأ يخطو خطواتٍ نحو الذهابِ؛ فوقفَتْ ثابتةً لترى هل يقدمُ على الرحيلِ حقًّا أمْ أنه يلعبُ دورَ الراحلِ:

.. واستمر يقولُ وهو يدعي الرحيلَ:

- هنالك في مكانٍ غيرِ قريبٍ سأذهبُ طويلًا جدًّا، فربَّما تزعجُكِ ذكرى رجلٍ مات مِن أجلِ عينيك.

.. ثم عادَ في براءةٍ ربما لأنه ينتظرُ أن تمسكَ بملابسِه ليبقى، فقالت وقامت تحتضنُه كطفلٍ:

- لا تحسبْ أنه هيِّنٌ عليَّ أن أراكَ في العذابِ يا مالك.

- إن زيَنتِ النعشَ بالزُّمرِّدِ فهو في النهايةِ نعشٌ، فلا تخترعي مفرداتٍ للموتِ أخرى فثمَّةَ ألمٌ في كلِّ الدروبِ المؤدِّيةِ إليه.

.. ثم أكمل وهو يدَّعي الموتَ التدريجيَّ:

- العتمةُ سوف تحلُّ رويدًا وانسَي ضوءَ نهارَ الأمسِ، وإنِّي لأخشى أن يأتي يومٌ يُحجَبُ فيه شعاعُ الشمسِ، وسوف نعيشُ الموتَ بفقدِ الطعمِ وفقدِ السمعِ وفقدِ اللمس.

.. أحسَّ مالك أن وسيلتَه بالاستعطافِ جعلت قلبَها يرقُّ، ولكنها فجأةً دفعتْه من حضنِها وسألتْه:

- ألن تضعَ على كتفِ أختِكَ ملابسَها؟!

- أقصى ما يمكنك فعله هو انتشال الجثثِ بعدَ أن أعلنت وجوهُنا القبيحةُ مسئوليتِها عن بناءِ أحضانٍ وعرةٍ لاستقبالِ الضحايا؛ وأمسى حلم العثور على ناجِين في حوادثِ السقوطِ من مرتفعات الهوى هراءً بعد تدميرِ كلِّ مطاراتِ الإنسانيةِ على هذه الأرضِ.

- ولماذا تصرُّ على اعتباره سقوطًا ولماذا لا يكون هبوطًا بأقلِّ..

- وما الفارق بين السقوطِ والهبوطِ إذا أمسى كوكبُ الأرضِ قبرًا كبيرًا؟

- أنا في غايةِ الشفقة عليك والخوف، والزمنُ قادرٌ على إثباتِ وجهةِ نظ..

.. ارتعش ممَّا قالت، وقال مقاطعًا إياها لِيبعدَ عن عقلِها تثبيتَ الفكرةِ:

- شكرًا لك جزيلًا، لقد التزمْت بآدابِ الذَّبحِ الرحيم؛ أنا لم أعلمْ أنك ستغدرين حتى لا أتألَّمَ، وجئتِ بالمنشارِ من الخلفِ، ياللرحمةِ والحضارةِ والسموِّ الإنسانيِّ.

وعلى الذين يشعرون بالحبِّ من أول دقةٍ أن يهرولوا فزعًا إلى أماكن بيعِ الإسعافات الأولية؛ ليشتروا مطفأة حريقٍ لاحتمالِ اندلاعِ الخيباتِ في أيِّ زمنٍ للحكايةِ.

.. أحسَّ مالك أنه مجبورٌ على أن يحشرَ في أعماق قلبِه مشاعرَ جديدةً، فوضع على القميصِ الذي ترتديه ملابسَ، ثم قال بهزيمةٍ في نفسِه وهو يمضي:

- يا قلبي هيا نموت بعيدًا، واتركْ من عاش يعيشُ سعيدًا، قد عشت وحيدًا بين الخَلقِ، والليلة سوف تموت وحيدًا.

.. شعرَت ريسال أن مالك في قلبِه مشاعر أكبر من أن تنتهي بالحوارِ الرقيقِ، فقامت غاضبةً تلوِّحُ في وجهِه:

- لقد ارتكبتُ من الذنب ما هو أشدُّ غباءً من البغي، ولو رآه جنٌ سُفْلِيٌّ لَفزعَ مِن خشيةِ اللهِ.

-!

- لقد أخذْتَ ما ليس لك، وكذبْتَ على امرأةٍ كانت كفيفة وخدعْتَها.

- ما كذبْتُ إلا لأني صادقٌ.

- وما كنتُ أريدُ أن أسمعَ يومئذٍ إلا كذبَكَ لأحبَّكَ.

- كيف؟

- لأنني كنت سأراك قويًّا بما يكفي لاختطافي بين ذراعيك.

.. فبكى آسفًا وحاول أن يتكلَّم فقالت:

- من الممكنِ أن أتركك تبكي مثلما يفعل العشَّاقُ في جاهليةِ حكايا زمانِنا الآن، لكنني بمشاعرِ الصديقةِ لن أتركك تهيمُ في الصحاري.

لا داعي لدمعِك في الطرقات، بزمانٍ فيه الحبُّ يهون، لم تبكِ الدنيا لأنك تبكي، ما عاد أناسٌ ينتبهون.

- أنا لن أتلصَّصُ نظرةً من بعيدٍ، وإنما سأحومُ حولَ النسيمِ القادمِ مِن أنفاسِكِ.

كنت دائمًا أقولُ لنفسي: إنك لا تدري إن غفوتَ قليلًا في حضنِ أحدِهم ذات مساءٍ هل ستستيقظُ مرةً أخرى في الصباحِ، أمْ أن هذا الليلُ كان آخرَ عهدِكَ بالحياةِ.

- لماذا يا مالك؟

- أنام منذ أن عشقتك خائفًا هل سأستيقظُ وأجدُكِ في جسدي أم سأجدني ميِّتًا.

.. ثم استكملَ مسلسلَ نحيبَه قائلًا:

- قالت بنفسِ اللفظِ يومًا «جهِّزْ الأكفانَ لي»، ففتحْتُ صدري للعِناقِ دعوتُها لترتمي، وكسرْتُ ضلعًا من ضلوعي كي تمرَّ إلى الفؤاد، ولكي تعيش بجوفِ روحي وفوقَ نبضي وترتمي، فكيف بالأكفانِ جاءت كي تلفَّ على السنين، واليومَ تنصبُ في الرحيلِ لكي تجهزَ مأتمي.

.. فتذكَّرت من رواية أبيها قولَه: «إذا رأيتَ قلبًا في أيةِ عُمْرٍ شغوفًا بحكايةٍ يمسكُها، فأعطِه حكايةً آمنةً غير التي في قبضتِه أكثر شغفًا، إذا كانت الحكايةُ الأولى موتًا عليه؛ فإن القلوب تحتاجُ إلى جرعاتٍ من غفوةٍ حتى لا تموت منتحرةً بالحقيقةِ دفعةً واحدةً.

.. فابتسمَ ضاحكًا ضحكةً معجونةً بالسخريةِ وقال لها:

- سأُذَكِّرُكِ بحديثِ أبيك في روايتِه المحرَّمةِ حين قال: «لا يمكنُنا أن نُنْقِذَ قِصَصَ الحُبِّ؛ لأنَّها لا تَغْرَقُ إنّما تتلاشَى، وكل الذين قالوا إنَّها أُغْرِقَتْ كانَ أحدُهم يريدُ لها كلَّ شيءٍ إلا النَّجاةَ، لا حُبَّ يغرقُ من تِلقاءِ نفسِهِ، أحدُ الأطرافِ وَشْوَشَ الشُّطآنَ والزَّوارقَ جميعًا ألا تقتربَ في لَحَظاتِ الاحتضارِ، ربما لم يعدْ شيءٌ بداخلِه يحفِّزُه على الاستمرار في قصة

نجاةِ الحُبِّ المزعومِ، بل ربَّما هناك شيءٌ بالفعلِ في داخلِه لكنها لطرفٍ ثالثٍ، كيف حدث هذا ولماذا وأين؟ هؤلاء هم البشرا!».

.. وتركتْه يثرثر لعل الثرثرةَ تخفِّف من هولِ فاجعةِ أنها ليست له وهو يقول موبِّخًا إياها:

- لا تجحدْ المطرَ الجميل على السنين إذا انهمرْ، واذكرْه إذ ما تستظلُّ وحين تأكلُ في الثمر، الشمسُ تمنحُنا الحياةَ وتعطي للأقمارِ ضوءًا، والناس تختزلُ الشموسَ وتمضي تمدحُ في القمرا!

.. ابتسمَتْ ريسال ردًّا على ابتسامتِه وعلمَتْ أنه لا مجال للجدلِ مع عاشق كهذا، لاسيما أنه يحاصرُها بدهاءٍ، وبدأتْ تغيرُ خطَّتَها في الهجومِ على عاشقِها، وقد علمَتْ أن الأمر لن ينفضَّ في جلسةٍ فبدأتْ تشركُه معها فيما ستفعل، وقالت له وهي تمسح حزنَه وما يزال الفارسُ المذبوحُ يرقصُ من الألمِ:

- ولقد ضمنْتِ بأنني أهوى بقلبٍ جارفٍ، والناسُ مهما تُحَبُّ جدًّا يأتِهم جِلْدُ البرود، واليوم أرحلُ عن جنوني في الهوى كي تعرفي، أن المياهَ إذا تغيبُ ستنتهي كلُّ الورود، وبأنَّ بعضًا من زماني بكلِّ أزمنةِ الزمانْ، وبأنَّ حبًّا مثل حبِّي ليس يوجدُ في الوجود..

.. قاطعتْه في ضجرٍ:

- لا بأسَ بقليلٍ من الدموعِ فإنها تغسلُ كثيرًا من الوجعِ.

.. وعاد الثرثارُ المذبوحُ وكأنه أصيب بالجنونِ حقيقةً:

- لا أريد منك إلا أنت فقط، كان من الغباءِ أنني لم أحبَّك بغباء، أسعى للتصالحِ بيني وبيني، ولستُ مخاصمُني، وكلُّ ما في الأمرِ أنني كنتُ غاضبًا مني على خلفيةِ اختلافي معي، فجزءٌ مني يأمرني بالموتِ فيك والآخرُ بالموتِ أيضًا.

.. ضحكَت ريسال وقالت:

- أين الاختلافُ إذن؟

- بالعكسِ يوجدُ اختلافٌ وواضحٌ جدًّا ألا تميِّزين؟

- لا في الحقيقةِ أيها المعتوه.

.. قال في صرامةٍ معجونةً بخفَّةِ الروحِ:

- الأولُ يريدُكِ أن تبتسمي، فهو يحبُّكِ أكثر وأنت تبتسمين، والآخرُ يريدُكِ غاضبةً فملامحُكِ في الغضبِ أجمل.

- معتوه!! لطالما حافظْت على أسراري يا مالك واليومَ أثقُ بك حدَّ أنني سأعطيك أسرارَ الأرضِ جميعِها.

- أسرارَ الأرضِ؟!

- نعم، نحن أنا وأنت سنغيرُ وجهَ العالمِ القبيحَ، لكن كن أنت مالك الذي أعرفه لا تكن غيرَه، وبالمناسبة المرأةُ التي جاءتك لتدعوك إلى الحرامِ سنفتِّشُ عنها عندما نعود إلى الجنوبِ.

.. فزع مالك وقام منتفضًا عندما سمع كلمة (الجنوب):

- لقد فَرَرْنا مِن الموتِ، وما أظنَّني سأتركُك تعودين، ولن أعودَ..

- ليس الآنَ، وإنما أولًا ستسافر معي إلى شمالِ المدينةِ، وأظن أنني أحتاجُ لرجلٍ يحميني من تحرشِ المتحررين هناك ويكون بجانب أخته ريسال.

.. ابتسم مالك ربما لأنه ضَمِنَ الصُّحْبةَ، وربما لأنه أحسَّ بقيمتِه وبأنه سيعملُ عملًا عظيمًا كما قالت ريسال.

وبالفعلِ تحرَّكا نحوَ الشمالِ، ووصلا إلى القصرِ ثم استأذنَتْ مالك أن يبقى بعيدًا، واستأذنت الجنودَ أن يبلِّغوا الملكَ أن امرأةً تريدُه؛ ضحكَ الجنودُ سخريةً من جرأةِ طلبِها؛ الملكُ ليس لديه وقتٌ لأحدٍ، قالت للجندي بصرامة:

- اذهبْ وقلْ له إن (أسرار التنهيدة الأولى) تريدُه، وإن لم يأتِ معك عند عودتِك اقطع رقبتي.

.. فقال الجندي وهو يقلِّبُ عينيه في فتنتِها:

- لا بل تكوني لي ليلةً أو ليلتين.

- موافقة.

-11-

ذهب الجندي للاستئذان من كبار الضباط لأخذ السماح من الملك، وبقيت ريسال وسط الجنودِ ينظرون إليها في نهم، وينتظرون عودة زميلِهم للانقضاض عليها، وما هي إلا لحظات وقد بدءوا يلمسون جسدَها فسمعوا صوتًا من خلفِهم:

- ملاكُ الأرضِ، لقد كنتُ أنتظرُك منذ ما يزيد على عشرين عامًا.

.. احتضن الملك ريسال وانفرد بها ليسمع قصَّتَها وليحكي كم اشتاق لها ولأخبارِها، ثم عرَّفتْه على مالك وأنه صديقُها الصدوقُ، وطلبت من الملكِ أن يتخفَّى ليتجوَّل معها في الشمالِ بحريةٍ، وهناك حيث أكوام القمامةِ وطوابيرِ العاطلين وبيوتِ الدعارةِ والخماراتِ أحسَّ الملكُ بالحرجِ حين قالت:

- حفلُ الزِّفافِ لِم يطولُ وأين لهفةُ الاشتباك، ولِما المآذن في ارتفاعٍ والرِّقابُ بَدَتْ قصيرة، بمراسمِ الدَّفنِ انشغلْنا فلا دعاءَ ولا بكاء، لا نَعْمَى إذ تُعمى العيونُ بل العمى جهلُ البصيرة.

.. بدأ الملك في الثرثرةِ وقد بدا في عينيه الحزنُ:

- انشغل الناسُ بعرقلةِ الذي اندفع أمامهم بدلًا من أن يفكروا في خطةٍ لإحرازِ هدفٍ، والكلُّ يريدُ ألا يسمع؛ لأنه مشغولٌ بتقيُّؤِ الكلمات، فأمسينا في ضجةٍ لا معنى لها، علاقةُ الناسِ بإصدارِ ديوانِ شعرٍ كعلاقةِ المؤمنين بجنازةِ عبدِ الله بن أُبَيٍّ بن سلولٍ رأسُ المنافقين في المدينةِ في عهدِ محمدٍ رسولِ الله، لا حاكم يريد لنفسِه هذه النهايات الحقيرة التي يصل إليها كل الحكام، لكن الناسَ يشبهون الموجَ يدفعون الطوفان في شلالٍ فتجدين الحكام مجبرين على السقوطِ وأقول لنفسي: «قد أخرجوا مِن بعدِ ذوقِك أسوأَ الألفاظِ منك، ثم استداروا تبجُّحًا كي يسألوك: لِما الغضب؟ يا صاحِ كن إذ ما غضبْتَ بلا لسانٍ ينطقُ، وإذا نطقْتَ فقُل سلامًا في حديثٍ مُقتضَب».

.. جلسَتْ به ريسال تحت ظلِّ شجرةٍ وقالت:

- قُلْ كيف يكونُ لديك يديك وتبقي دمعًا في وجنتيك؟

.. لمعَت عيون الملك فباغتته ريسال بشفقةٍ:

- ألا ترى إن كان لونُ البحرِ في عينيك أسودَ كيف يعجزك تلوينُه، كلُّ حديثٍ عن الجمالِ ليس بدايته أعماقنا هو هراءٌ كبيرٌ.

.. فقال الملك وكأن ريسال قد وخزَتْ الجرحَ المعبَّأ بالصديد:

- وترى العقولَ إذا رأيتَ بحجمِ عصفورٍ وليد، والجسد يمشي في الطرقات مثل لحمِ كبيرِ دُبْ، وترى الشبابَ لأتفهِ الأسبابِ سَبُّوا دينَهم، وترى الجميعَ لكي يجاملَ جاءَ أيضًا كي يسُبْ.

.. ضحكَتْ ريسال في دهشةٍ:

- لا أصدق ما يحدث!! أيكون الملك مظلومًا؟ أشعرُ بال..

.. ظلَّت ريسال تضحك حتى ضحك الملكُ ثم قال:

- هل علمْتِ بقصيدةِ ذلك الشاعرِ الحقيرِ الذي شتمني فيها علنًا في أبيات عدَّ فيها الجنوب قريش، وأطلق على الشمال الذي أحكمه تغْلِب وقال فيها: «هجمَتْ قريشُ لكي تؤدِّبَ في القبائلَ تغلبَ، لكنَ تغلبَ ما استعانت بالرجالِ لتغلبَ، ولسوف، تحبلُ بالحرامِ نساءُ تغلب كلُّهن، ولسوف نمضي إلى الشذوذِ إذا أردْنا مَطالبَا، إني أشكِّكُ في الملوكِ إذا يكونوا من الذكور، وإذا كشفْتَ عن الحقيقةِ سوف تخرجُ سالبَا».

.. شعرَتْ ريسال بالخجلِ منه وبالشفقةِ عليه واحتضَنت الملك حضنًا أبويًّا، وقالت غاضبةً مما سمعَت من ألفاظٍ بذيئةٍ:

- قل كيف يمكنُ أن يكون الظلمُ وغْدًا هكذا؟ قل كيف يمكنُ أن نعيشَ على شرائعَ مِن دَجل؟ ولسوف نعلن أنَّنا ضدَّ القبائلِ كلِّها، ولسوف نمضي كي نحارب دون خوفٍ أو وجَل، مَن قال إن الموتَ يأتي للذين يحاربون، دعْنا نعانقُنا جهارًا إنَّ موعدَنا أجَلْ.

- هل تعلمين أكبر مزحة من هذا الشاعر تسلَّق على أكتافي بهجائه لي إلى قلوب الناس وصار مشهورًا، وانتهز متشددو الجنوب الفرصة ليقتلوه؛ ليقال إنني أنتقم من المعارضين، فاضطُررتُ لتعيين حراسةٍ عليه، فأصبحتُ أحرس من بات يهتك عرضي.

- أين زوجتك يا سيدي الملك، لماذا لا أراها بجانبِك؟!

- إنها تشربُ ليل نهار وتقريبًا نحن منفصلان، وبالطبع هي تعرف نقطةَ ضعفي؛ إن أغضبتَها قد تشهِّرُ بي وسط هذه الفوضى العارمة، وكان آخر عراك بيننا قلت لها: «قُلْ كيف يمكنُني التخلِّي عن الرجولةِ يا تُرى، إن اقترابَ الناسِ منك يزيدُ قلبي توتُّرا، هيا ابحثي عمَّن يطيقُ الناسُ تهتكُ عِرْضَكِ، مع بعضِ أنصافِ الرجالِ ستكملين تبخْتُرا».

- أتحبُّها يا سيدي؟

- تمضي الليالي ونكتم الشوقَ الرهيب توجُّعًا، بعضُ المشاعر في النهايةِ تُبْقِنا ظلمًا رهينة، حين تنهدمُ الحكايةُ ذات غدرٍ فاحشٍ، دقاتُ قلب العالقين إذا بدَتْ تبدو مُهينة.

.. أحست ريسال أن الأمر جدًّا محزنٌ فأرادت أن تعود إلى الموضوع الأساسي لتغير دفةَ الحديث، ولا سيما أن الخيانةَ في بعض الأوساط الراقيةِ منتشرة بشكلٍ عادي ... فقالت:

- هذا العصرُ حربُ أفكارٍ، ومن يسيطرُ على عقول الناسِ أكثر يصبح هو الأقوى سلاحًا، ويستطيع أن يجعلَ كلَّ دماغٍ سيطر عليه مشروع قنبلة تصبح انفجارًا كبيرًا في سوقٍ مزدحمٍ بالأبرياءِ، فترى الجثث والأشلاء في كلِّ طرقات العربِ ناتجةً عن تفجيرِ فكرةٍ، هيا بنا نستخدمُ سلاح العصرِ الحديثِ ... أتثقُ بي؟

.. أجابُ ملك الشمالِ وهو يمسح حزنَه:

- بعمري كله يا ابنتي، وما نسيتُ إنقاذَك روحي من بين قبضةِ العامةِ يومًا ما.

- لا أريدُ عمركَ يا سيدي العجوزَ، أريدُ ثقتَك وأنْ تتماسك حتى أنتهي من حديثي معك، ولك الحقُّ في القبولِ أو الرفضِ.

- هي لك وأعدُكِ أن أتماسك.

- حمزة حاكم مدينة الجنوبِ خلالِ عشرة أيام سيكون رئيس وزرائك.

.. انتفضَ الملكُ من أعماقِه وعاد للتماسكِ وأكملَت ريسال:

- ذلك النهرُ الذي يجري في الشمالِ الذي ينتهي مع الحدودِ الفاصلةِ بينك وبين الجنوبِ سنحفر مجرى إضافيًّا بامتداده؛ حيث سيتصلُ بترعةٍ حفرناها هناك لنروي في الجنوبِ وفي الصحراء أراضٍ إضافيةً تُوزِّعُها بعدالةٍ على فقراء المدينةِ، ومن سيشتركُ في الحفرِ سيتقاضى على المتر المكعبِ ألف دينار.

- مِن أين سأدفع له؟

- ستبيعُ كل أملاكك إلا القصرَ وأرض الجيوشِ.

- ومَن سيشتري كلَّ هذه الأراضي؛ لا يوجد في الشمالِ كله من يملك ربع ثمنِها حتى؟

.. بدأ الملك يبتسمُ، ربما شعر أن ما تقولُه ريسال مزحةً أو حلمًا مثاليًّا، وعادت ريسال تكمل:

- سنجمع كل النساء اللواتي يرقصن في الملاهي والخمارات في حملةٍ كبرى، وستسلمهن لي في جناحٍ من قصرِك.

- هذا سيسبب لي أزمةً مع ال..

.. قاطعتْه ريسال بقولِها:

- سيأتيك حاكمُ الجنوبِ وأتباعُه بأكفانِهم صاغرين متأسِّفين، ولك ما تريد يا سيدي.

- أشعر أن..

- الكبيرُ لا ينتبه للأمور الصغيرةِ، وإنما يتركُها لمن هو دونه في المسئولية.

- ومَن هو ذلك يا ريسال؟

- صديقي مالك يا سيدي من الآن هو أمين سِرَّك وكبيرُ مستشاريك، وهو من سيحلُّ أزمةَ الشمالِ في القمامةِ الليلةَ.

- كيف؟؟؟

.. ضحكت ريسال وقالت:

- ياااا، قلت لك يا سيدي عندما أقول إن بطل اليوم؛ لأنه قام بشيءٍ ما هو نفسه خائن الغد، إذا ظلَّ يقوم بنفسِ الشيءِ، ليس كما يرددُّ الحمقى أن المبادئ تجزَّأت، وإنما لأنه كان على البطل ألا يشغله الاحتفال ببطولتِه عن سرعةِ تغيرات الواقع المرعبة بانقلاب موازين القوى، وافتضاح نوايا الحلفاء والمناخ المنفلِت على جغرافيا هذه الأرض، التي لا تستقر حدًّا لا وقت فيه للاحتفال بالصدمة وإقامة سرادقات العزاء، وإنما كان يجب على البطل في أول درسٍ في السياسةِ أن يتخطى الجثثَ، وأن يغادر حفلات النصر التي تشغله؛ لكي ينتبه لما يجب أن يقاتل من الحلفاء، أو إن كان سيتحالف مع أعداء الأمس.

.. وفي المساءِ لم يضيع الملك وقتًا في تنفيذ خطة ريسال التي ستعيد إليه اتحادَ مدينتِه، وأمر الجندَ بإغلاقِ الملاهي وإحضارِ كل من يجدون من الفتيات، ثم اجتمعت بهن ريسال وسألت:

- التي تريدُ منكن رجلًا نظيفًا لم يلمس امرأةً قبلَها ليأويها ويحبَّها وتدخلُ غرفةَ نومٍ حلالٍ معه عليها أن تقفَ على اعتبار أن التي ساقتْها إلى ما هي فيه هي الظروف، والتي لا تريدُ إلا عملها كراقصةٍ لأسبابٍ تخصُّها فلها ما تشاء وعليها أن تبقى جالسةً معززةً مكرمةً.

.. وبينما هي تتحدَّثُ للنساءِ دخل عليها مالك يبكي وهو يصرخُ:

- آسف على ما حدث مني أريد أن أعود إليك وفقط ...

.. فقالت له ريسال غاضبةً:

- وبماذا تفيدني آسف إن كنتُ لا أشربُ مِن آنيةٍ ولغَ فيها النساء، هناك نوعٌ من النساءِ يعشقْن مثل هذه النجاساتِ إنما لست أنا، ولولا خوفي من تنجيسِ وجهِك لِبصْقَتي لتقيَّأتُ عليك الآنَ.

.. فقال لها:

- اغفري لي يا ...

.. أسرعت تنهرُه:

- قد أبلغْتُك ذات يومٍ أني لرجلٍ واحدٍ أليس كذلك؟

- بلى ولكن..

اليومَ يُنْسَى حديثُ سُكْرِك في شفاهي كيف قيل، أو كيف أرغمتَ القميصَ من الشَّهيقِ ليستقيل، ولقد حملتُك طولَ عمرٍ فوقَ أكتافِ السنين، اليومَ أصبحَ بعد هذا أمرُ حبِّي هو الثقيل.

.. فقامت غاضبةً:

- أنا الآن مع رجلٍ أحبُّه ويحبني وسيبني لي بيتًا وخططنا مستقبلنا معًا، حتى إننا اتَّفقنا على أسماء أطفالِنا.

- ولكني قد عدتُ الآنَ وسأ..

- حافظ على ما بقي من ماء وجهك فأي تجاوب معك هو خيانة مقنَّعةٌ، ومن هنا تبدأ الخيانات الكبيرة، حيث نُوارب أبواب الروح للنسيم الذي يحمل سمومًا، لقد سقطْتَ من مكانٍ يموت الذين يسقطون منه.

- وما هذا المكان؟!

- عيناي يا هذا.

- أعدك أن أعودَ رجلًا و..

- قد تبدو أصلع في عينيَّ وشعرُك فوقَك منسدِلًا، وكثيرٌ منَّا يحني النفسَ ويمشي أمامك معتدلًا!

- سأ...

.. فقالت له ريسال بصرامةٍ وهي تقاطعُه أمامَ جميعِ النساءِ:

- الذي جعلني وسيمًا والذي أحبَّني حين أصبحتُ وسيمًا لا يستويان، انسَ أمري أنا في الماضي، ذلك المجرمُ الذي لا يطعنُ إلا في الصَّدرِ إذا نظرْتَ خلفَك إنه الماضي.

.. بكى مالك ثم قال متودِّدًا:

- قد كنتَ يا طفلي الخفيفَ على طاخلي حين قالوا إن هَمَّكَ كالجبالِ، أيقنْتُ أن حدودَ حضنِك في الجحيمِ ولم أبالِ، وقد ارتكبْتَ من الجرائمِ ضدَّ روحي ما ارتكبْتَ ولم أفكِّرَ أن

أفكرَ في الرحيلِ ولا بِبالي، اليومَ تشنقني جهارًا خَلِّ عنك لديَّ أيدي لديَّ عزمٌ والكثيرُ من الجِبالِ.

- فقالت له ريسال وقد بدأَتْ تشفق عليه:

- مَن فينا أذنبَ حين راوغَ ذاتَ يومٍ في الحديث، أو ضلَّلَ الكفيفة زورًا حين قال «الثلجُ جمْر»، وأنا وثقْتُ ولم أشَكِّكَ في الضلالِ وقلتُ لا، وسكرْتُ جدًّا رغمَ شَكِّي بأنَّ ماءَك ليس خمر، لكن أمرَ اللهِ جاءَ بأنْ أُحِب اليومَ قَلْبْ، من ذا الذي سيريدُ أمرًا إن أراد اللهُ أمْر.

.. استمر مالك في البكاء وعرضِ عضلات أموالِه فقاطعتْه ريسال:

- لكلِّ امرأةٍ على قيدِ رجلٍ يدعوها آخرُ ولو بحرفٍ واحدٍ قبلَ أن يكمل الكلمة ليبني جملةً يجبُ أن تقولَ له: «تدعوني إلى الفاحشةَ يا شيطان».

- لكنكِ وعدتيني بالزواج وال..

- هلَّا فهمْتَ بأنَّ أوراق الزواجِ دعارةٌ، وعشقْتُ غيرَك قبل هذا والحلالُ هو المرام، ما البِكْرُ أنثى لم يُفَضُّ مع الجِماعِ غشاؤها، بل حقًّا البِكرُ الفؤادُ إذا تنحَّى عن الغرام، وأنا فؤادي قبلَ وجهِك قد تلطَّخَ بالدماء، فاسأل الأديانَ عن أيِّ اللقاءِ هو الحرام.

- تزوَّجي ولكن لا تقطعي علاقتنا و..

.. فطردتْه وهي تقولُ:

- اذهب واغتسل من ذنوبك، وسيبعث الله لك من هي أجمل مني، الله عند ظن عباده به.

.. انصرف مالك في خجلٍ شديدٍ، وقامت جميع النساء اللائي كن في القاعةِ بالتصفيق وبعضهن دمعن مما حدث في لحظاتٍ ثم جلسَت ريسال تقولُ:

- ماذا كنا نقولُ؟

.. فوجدت جميعُ النساء موافقات للإجابة على سؤالها الذي عرضَتْه في أول حضورِها، ففهمت بذلك أنهن مستعدات لتركِ الحرامِ إذا وجدوا ذلك الرجل الذي من المفترضِ أنه انقرض، فقالت لهن ريسال:

- هو موجود وستختار الواحدة منكن كما تشاء، كما يختار الرجال امرأةً من بين النساء بشرطٍ عدم العودة إلى الملهى مرةً أخرى.

.. التَقَتْ ريسال فورَ نهايةِ الاجتماع مع النساء بمالك، وأثنَتْ على الدورِ التمثيليِّ الذي قام به وأتقنَه أمامَ الجميعِ وقالت له:

- لقد أثْبَتَ لي نجاحُ المسرحيةِ التي افتعلْناها أن الدعوةَ إلى اللهِ تتخذُ أشكالًا عديدةَ، لكن المؤكَّدَ أن الدعوةَ بالخُطَبِ ما عادَ لها ذلك البريقُ القديمُ.

.. وإلى الجنوبِ كانت الشائعات على هيئةِ أنباءٍ بموتِ ريسال رجْمًا قد تسرَّبَتْ من بيت الحاكمِ إلى العامةِ والحراس وغيرهم، وذات ليلةٍ تسللت ريسال متخفيةً تركبُ جوادَها وترتدي قناعَها من أقصى الشمالِ إلى أقصى جنوبِ المدينةِ؛ حيث مقرِّ الحاكمِ في الجنوبِ ومعها فارسٌ آخر ملثَّمٍ أيضًا، ربَّما كان لِحراستِها، وبينما هي في طريقِها ليلًا وجدَت خريطةَ الأشجارِ قد نُفِّذَتْ، ووجدتْ في أولِ الحدودِ مع الشَّمالِ الترعةَ قد حُفِرَتْ، ثم اتجهت إلى بيتِ الحاكمِ.

.. حدَّثَ حمزةَ نفسه فجأةً ذات حلمٍ كان فيه غارقًا:

- أشعرُ بالدِّفءِ لا بدَّ أنها عند الجسرِ أو في مكانٍ قريب.

.. ثم اتجَه في حلمِه نحو مرآةِ غرفتِه وهو ينظرُ إلى ملامحِه المتجليَّة للنورِ قائلًا:

- أنا البالغُ من العمرِ أربعين نظرةً في عينيكِ، كان يجبُ أن أحبَّك كثيرًا جدًّا حين كنتُ أحبُّك جدًّا.

.. واستدار ناظرًا باتِّجاهِ فراشه، فإذا به يلمحُ وسادتِه خاليةً رغم كل هؤلاء الأربعِ والجواري والناظراتِ نظرةً، وهو يقول متذكرًا شفتي حبيبتِه:

- قد كان حقُّكِ أن أسافرَ في المدائنِ كي أقول، وأقبِّلنَّكِ في الطرقات لا خَفَى خلفَ الحقول، إن التأنِّي بأيِّ عشقٍ في الحياةِ من الجنون، إنَّ الجنونَ بأيِّ عشقٍ فكرُ أصحابِ العقول.

.. وبدا له أمام عينيه هؤلاء الذين يداهمونه بنظراتِهم الغبية، وكلماتِهم التي يتناقلونها عنه بينهم وهو يقول بينما كلانا ما يزال غارقًا في الحلم، وقد بدَتْ عليه علاماتُ الألم:

- ودِدْتُ لو أذهبُ إلى الدارِ الآخرةِ بصفةٍ غير صفةِ الموتى، حتى أملك حقَّ العودةِ إليكم بعد أن أسألهم فأخبركم عن الرقمِ الحقيقيِّ لمجموع الذين ماتوا من الحزنِ على أثرِ تفاصيلَ بسيطةٍ، كيف أصبحنا هكذا مجرمين؟! كيف لم نعلم قبل هذا أن الموتَ قد يكون بأشياءٍ أخرى غير الخنجرِ والسكِّين، يا أيها الذين تتكلمون جدًّا هل تعلمون تعدادَ الذين قتلتهم بكلمةٍ واحدةٍ فقط؟

.. ثم عاد إلى المرآةِ مرةً أخرى:

- حين كنتَ تقفُ بالأمسِ في قطرانِ سنين آسنةٍ تزحفُ فوق جلدِك حشراتُ الموتِ، بات الناسُ كفارًا لا يلتفتون، فلماذا حين بدأَتِ الأنهارُ مِن تحتِك تجري أصبحوا آلهةً يحاسبونك ويعدُّون لك السيئاتِ وفي أعينهم جهنَّم.

.. وعاد للتحدِّي المختلطِ بالدمعِ مرةً أخرى وهو يزأرُ بصوتِه:

- ما عاد يشغلُ بالي؛ تشرقُ شمسُ صبحٍ أو تغيب، ببريقِ عينيكِ الكواكبُ والنجومُ على الأعوام، ويمرُّ عامٌ تلو عامٍ ثم نكبرُ بالسنين، لكنكِ غير الخلائقِ تصغرين بكلِّ عام.

.. وعلى حين فجأةٍ ظهر له في المرآةِ رجلٌ عجوزٌ أحمر العينين بلِحيةٍ بيضاءَ عريضةٍ وجلبابٍ جدًّا قصيرٍ قائلًا في هدوءٍ غريبٍ:

- الطريقُ الذي تجرُّك إليه هذه المرأةَ ليس هو الطريق إلى ربِّك و..

.. وأمسك حمزة باقةَ الوردِ التي كانت بجانبِه في حلمِه وهشَّمَ بها المرآةَ، وهو يقول صارخًا في هشيم المرايا:

- إن كان بيعي هو الهدى ومن الضلالِ بأن أُحب، تلك الهدى عين الضلالِ وأن أَضلَّ هو الهدى، ولأخرجنَّ على شرائعِك الحقيرةِ كلِّها، وأوقِّعَنَّ بِكُفْرِ نفسي وأكتبنَّ تعهُّدَا.

.. وبينما هي تتجه صوبَ بيت الحاكمِ من أقصى أقاصي الجنوبِ، حيث الحدودِ مع الصَّحاري التي كانت قد دخلَتْ منها يومًا، وجدَتْ ثلاثةً من الحراسِ هناك في نوبتِهم يوقفونهما، فضحكتْ وأزالت القناعَ بعدَ أن عرفتهم (وهم الثلاثةُ الذين أوقفوها ومالك يومًا ما واتهموهما بالزنا)، وقالت لهم بعد أن ألقَتْ بينهم سيفَها لتبدو لهم كالعُزَّلِ من السلاحِ في حركةٍ جنونيةٍ منها:

- ما رأيكم في امراةٍ مثلي تتناوبون عليها واحدًا تلو الآخر ثم تقتلوا ذلك الفارس الملثَّمَ؟

.. فر الحراسُ الثلاثةُ مذعورين واختفوا؛ على خلفيةِ اعتقادِهم حسب الشائعاتِ أن هذه هي الكفيفة التي ماتت رميًا بالسهمِ في صدرِها، فركبَتْ -وهي تقهقه- جوادَها وانطلقَتْ صوبَ بيت الحاكمِ، وهناك حيث يقفُ حراسَ الحاكمِ خارجَ البيتِ تقدَّمَتْ، فلمحَها كبيرُ الحراسِ، ثم أشار للحراسِ أن اتركوها ومَن معها، لكنها نزلتْ بقناعِها وحيته وقبَّلَتْ يديه وقالت له:

- أقبِّلُ يدًا تحمي حمزة وتسهرُ عليه.

- تحبين حمزة كل هذا الحبِّ؟!

.. أجابت بعنفٍ:

- لأنْ أحياني اللهُ وشهدْتُ عيد الأضحى القادمَ لأذبحنَّ تقاليدَكم وأعتلي منبرَ الدنيا وأخطبُ في العالمين أنِّي ساقطةٌ في عمقِه سقطةً لن أقومَ بعدَها إلى يومَ القيامةِ.

.. وقفَ كبيرُ الحراسِ مخدَّرًا من الحرجِ والخجلِ منها واعتذر وطلب منها التفضُّلَ بالدخولِ، ثم طرقَتْ البابَ حيث كان الحصانُ العنيدُ غافيًا يحلم بها، فاستيقظَ يمسكُ ذراعَه من الألمِ وفتح البابَ ورفعَتْ قناعَها ولمَّا رآها قال لها:

- افتحي عينيكِ رويدًا رويدًا حتى أسقطَ على الأرضِ في اليقظةِ رويدًا رويدًا مغشيًّا عليَّ؛ فإني أخشى على ذراعي أن ينكسرَ بعدَ أن انكسرَ الآخرَ ليلةَ أمسِ حين تفتَّحَتْ عيناكِ على مصراعيها في الحلمِ.

.. قالت:

- لا عاصمَ هذى الليلةَ من عينيك، وكيف أقاومُ تلك البلوى، الصدمةُ حين أكونُ بحضنِك ثم أفكِّرُ لحظةَ فكِّ ذراعِكَ عني كيف أقاومُ كيف السلوى، لا يوجدُ للعشَّاقِ بِقاعِ الجُبِّ أناسٌ تسقي ذات مرورٍ حتى يمدُّوا إليهم دَلْوًا، لكنْ أخبرني كيف تكونُ الدنيا بطعمِ الموتِ بدونِك لكنْ طعمُ الموتِ بعمقِك حلوى؟!

.. قال:

- تلك التي عادت لأنها تيتَّمَتْ حين صارت بعيدةً، لا تستوي مع التي عادت لشعورِها أنني من بعدِها يتيمٌ، الذي عاد لنفسه لا يشبه الذي عاد إليك.

.. ثم قالَ بعدَ أن بدَّدَ ما بداخلِها من غيرةٍ عليه:

- شفتاك إن شدَّتْ جنوني في العميقِ، فأين بعد إذْ انتهيتُ توصِّلاه؛ فلقد ذكرتُكَ حين نمتُ وحين قمتُ وحين كنتُ مع السَّكارَى، وحين أسجدُ في الصلاة.

- لو لم تنساني لكنت قبَّلْتَني من أول لحظةٍ رأيتني فيها الآنَ.

.. وكأنّه أُعيدَ إلى الدنيا مدَّةَ قُبْلَةٍ قَبَّلَها طويلًا، ثم أجابت على سؤالٍ في عينيه كيف عاشت من دونِه:

- في كلِّ صباحٍ قبل تفتُّحِ عينيَّ تبيتُ بجفْني، وحين أُفَتِّحُ عيني أراك، وتقوم معاركُ داميةٌ بين استبداد القلبِ وبين دماغي ونبقى طوالَ اليومِ عِراك، فأراني أَصرخُ تبًّا تبًّا أُسمعُ نبضَ فؤادي سَبًّا أطفئُ هولَ جحيمِ حنيني، وأقفزُ في أنهارِ الصمتِ يشبُّ بصدري شهيقٌ شَبًّا، أشربُ خمرًا حدَّ الفقدِ ولكن فوقَ فراش الأرضِ أراكَ أُكَبُّ بحضنِك كبًّا.

.. ثم قالت له في جنونٍ بعد أن انسدل فوق جبهتها الشَّعْرُ:

- معي مأذون وجئتُ أطلب يدَكَ؛ أغرقُ معك في الدماءِ أو أعيشُ معك.

.. اقترب بخجلٍ فقالت منزعجةً:

- لو أن كفَّكَ حولَ خصري التفَّ جدًّا، ثم عاد وشدَّ ظهري بكلِّ عنفٍ نحو حضنٍ؛ حيث يبدو في العناقِ بأنَّ ذراعي توسَّطَهْ، وأشدُّ كفرًا في اللقاءِ سماعي صوتًا غيرَ أصواتِ اشتباكٍ دون ذلك سفسَطَةْ.

- ألاحظ يا حمزة تناقصَ عددِ الحراسِ بالخارجِ، وأنت تعلمُ أن الكثيرين على هذه الأرضِ لا يزالون بك كافرين؟

- كل الأمانِ خطرٌ من دونِك، وكل الخطرِ أمانٌ معك، وكأنَّ الأرضَ يا امرأةً وما عليها كفروا وما بين ذراعيك غار حراء.

- ألا تخاف من الناسِ يا حمزة حين تعلن حبَّكَ نهارًا جهارًا على سيوفِ الخلائقِ؟

.. فتذكر حمزة حين كان نائمًا وحاول أن يربط بين سؤالِها وأحداثِ الحلمِ، فصعقتْه بسؤالٍ آخر:

- تريدُ أن تسألني كيف علمْتِ بأنني كنت أحلم بهذا الأمرِ قبل قليلٍ، فكيف عرفْتِ أليس كذلك؟

- بلى!! لقد كان هذا حلمًا!!!

- أجبني أولًا عن السؤالِ يا حمزة، وذات يومٍ سأخبرك بأمر ما تعلَّمْتُه من سيد الآسرين أبي صاحب «أسرارِ التنهيدة الأولى».

- وما السؤالُ يا ريسال لقد نسيتَ؟

- أستبقى تحبَّني رغم الن...

.. قاطعها حمزة حين تذكرَ سؤالَها مندفعًا:

- لو جفَّتْ كلُّ مياهِ الأرضِ وصارت كلُّ الدنيا صحاري، فبعضٌ مِن شفتيك كفيل، سأحبُّك حتى تُقام قيامةُ تلك الدنيا ويرسلُ ربُّك إسرافيل.

.. وسالت الدموعِ على الورود تجري فقالت وهي تشهق بالكلمات:

- وأنت يا سيدي مثوى عينيَّ الأخير، في هذين العينين أنجبني ذات يومٍ الهوى، وسأموت على هذا الصدرِ العريضِ، وأوصيك إن انتقلتُ إلى الرحمن قبلك ألا يحملني إلى اللهِ غير

هذين الذراعين..

جامحٌ جنوني لا يروِّضُه إلا أنت بهذا العالمِ يا أيها العنيدُ صهيلُك..

.. استدعَتْ ريسال بشيءٍ من الجنونِ كبيرَ الحراسِ وأمرتْه أن يأتي إليها بالطبيبِ؛ فهرولَ وأحضره سريعًا تحت توقعاتٍ بأنَّ مكروهًا أصاب حمزة لكنه فوجئ بأنه سيكون شاهدًا على عقدِ زواج حمزة وريسال.

وعندما انتهت المراسمُ بالمأذون الملثَّمِ قالت ريسال لكبيرِ الحراسِ ستذهب مع الملثَّمِ الذي سيذهب إلى بيت فرات ليقول لابنتِها الجميلةِ: «إن مالك ينتظرُكِ في الشمالِ» وأكرمْها يا أيها الملثَّمُ كرمًا كبيرًا، إنهم أناسٌ مِن الزمن الجميلِ.

.. أُغْلقَ البابُ على الحصان والمهرةِ وقالت:

- إن هذه الليلةَ هي الدنيا، وإن هذا البيت هو العالم، فتعالى نعيش الدنيا في هذا العالمِ، فإننا لا نعلمُ متى تقومُ القيامةَ.

.. وعاد الملثَّمُ إلى الشمالِ ومعه عائلة فرات، وأسكنهما بيتًا راقيًا، واستدعى إليه مالك ثم اختفى، وكانت ابنة فرات (آرين) في إحدى الغرف تستعد، ومالك لا يعرف ماذا يحدث له، ثم دخلت عليه فعرفها: (بأنها هي الفتاةُ التي راودتْه عن جسدِها على أن يسلك الطريقَ إلى بيتِها من الصحراءِ). وعادت به الذاكرةُ إلى جسدِها الفارِه العاري حتى بزوغِ التفاحِ يومئذٍ، وهي تميلُ عليه وكأنَّها كانت في مهمَّةٍ لاغتيالِ دماغِه، بينما كان مشغولًا بعدِّ المالِ قالت في حرارةٍ:

- أخبِرْني إن مضَتْ الأيامُ وعمرُك يومًا يومًا ذهب، ما الفارقُ إن وضعوك بقبرٍ أو دفنوكَ بِمنجمِ ذهب.

.. فتعجَّبَ وقتَها أنها تتقنُ لغة الإشارةَ لكن التعجبَ ما لبث أن ردمَت عليه فرات بعد مداهمتِها وهي تشيرُ بحرارةٍ:

- لا نيَّةَ عندي أنِّي سوف أغادرُ تلك الدنيا بدونِ إضافةِ مجزرةٍ في الطريق تحتَ الشمسِ أمامَ العامَّة، ولتعلمْ أنَّه إن لم ينتبه المارُّون فسوف أنادي بأنَّ لديَّ أمورًا هامة.

وسنخلعُ كلَّ ملابسِنا بغباءٍ تحت الغَيمة، فعناقُك والقبلاتُ ونكْهتُها ضدَّ الدنيا لا تشبِه تلك التي في الخَيمة.

وسأرتكبُ الأفعالَ الفاضحةَ الممنوعةَ في الطرقاتِ أمامَ الخلقْ، وسأَبقى أُقبِّلُ فيك من القدمين إلى الشفتين مرورًا بالعلومِ وحتى عمقِ عميقِ الحَلْق.

.. فلمَّا أشار إليها وكأنه يتساءل عن سرِّ سقوطِها على قلبِه من السماءِ هكذا قالت:

- الحب لديَّ كتابٌ أُنزلَ من سمواتِ الله، سأبقى أصرخُ حتى يجتمعَ الملكوت، قُلْ كيف بأمرِ الناسِ نموتُ، إذا لم يُكْتَبْ أنَّا سوف نموت، ما عاد الخوف سيردعُني عن فعلِ جرائمَ عُرْيٍ، بعضُ الكفرِ اليومَ سكوت.

.. ثم عاد مالك من ذاكرةِ الماضي فوجدها تضحكُ وقال لها:

- هو أنتِ؟

.. فقالت له:

- نعم هو أنا؟

.. فيما يتعلق بعلاقة آرين بمالك كان الأمر بخبرةِ فرات لا يروق لها، لكنها لاحظت انجراف ابنتها نحو القدر، فقالت تحدِّث عقلها ذات شرود:

- أخبرْ صغيرَك في الحَكايا بما تريدُه أن يصير، واطحن نصائحك الكبيرةَ ثم ضعْها في العصير، وحذارِ تحشرُ مرَّةً أعماق عقله بالهدف، حتى إذا علمَ الطريقَ اتركْه يختار المصير.

.. وعادت فرات من شرودِها وتدخَّلَت وكانت قد صارت عجوزًا:

- هذه ابنتي، وأنا فرات صديقة لامار أم ريسال، وكان سيد الآسرين رجلًا عارفًا بالله رب العالمين، وقد توقَّع أن تبحرَ الجثثُ في الدماءِ على خلفيةِ مذهبِه وروايتِه، فأراد لابنتِه ريسال النجاةَ؛ وبنى لها في الصحراء في منتصف طريق الضبابِ بيتًا بعيدًا عن عيون القَتَلَةِ قبلَ أن يموتَ أو تُقتلَ زوجتُه، وقد أراد أن يصلَ إليها رجلٌ صالحٌ يرعاها وربما يتزوجها بعد عشرين عامًا حسب ما أوصى بأن تذهبَ ابنتي لتخبرَ شابًا تحبُّه عيناها أنها ستقابلُه عند مدخل بوابةِ مدينةِ الرايات الحُمر من طريق الضَّبابِ، حتى يتعثَّر في طريقِه بريسال ابنته التي تعيش في منتصف هذا الطريق الرابط بين روماف ومدينة الرايات.

.. فقال لها مالك:

- ما اسمك؟

- آرين.

- وقد أعجبتني آرين ابنتُكِ يا خالتي فرات، كما أعجبتُها وأكثرَ وكثيرًا.

.. أجَّلَتْ آرين نطقَها بالإعجاب وسط إلحاحِ مالك؛ ربَّما لأنها لم تجد منه ما يكسرُ حواجزَ الخجلِ، فكان يميلُ عليها قائلًا:

- كَتْمُ الغرامِ سيجعلُ التنهيدَ حقًّا يُضرَمُ، من كلِّ شهْقٍ فيك يثبتُ أن صدرَكَ مغرَمُ، كل ارتعاشاتِ الملامحِ حين تصمتُ تفضحُك، كل الذين على السكوتِ لبعضِ يومٍ أجرموا.

.. تعجَّبَت آرين من شدة لهفتِها عليه، ونظرت إليه نظرةً خاطفةً إلا قليلًا قالت فيها:

- قد كنتَ ترابًا يوم الخلقِ وكنتُ حبيبي عليك مِياه، فعُجِنَّا طينًا ثم خلُقْنا، فكان الحبُّ قرارُ إله، فاذكرني حين تغيب طويلًا جدًّا أني مقطوعُ الأنفاسِ وأني حبيبي دون حياة، وكأنَّكَ قاضٍ ألقى بتهمةِ حبٍّ فيَّا وبين عِناقِه أَوْدَعَني، فبقيتُ أمارسُ شدَّةِ حبسِ ذراعِك حول الروحِ وصوت الرحمةِ أفزعني، فتعالَ خذني وألقِ سنيني بين غياهبِ حبِّك، فالأوجاع سلام منك وإنَّ سلامَ الدنيا دونك أوجعني.

.. أحبَّ مالك بما أوتي من خبرةٍ أن يختبر حبَّها له فقال لها ممازحًا:

-لا أظن أنني سأبقى معكِ أو أنه سيكون بيننا حبٌّ.

- وما الذي تظنُّه يا مالك؟!

- أظن أن الذي بيننا أكثر من الحب.

.. فانتفضَتْ تتنفس الصعداء وقالت وقد بلغ الدمع في عينيها مبلغًا:

-بحجم وجعِ شَقِّ بطنِ طفلٍ وإخراج كبده وأكْلِها قبل أن تخرجَ روحُه وأكثر، أوجعني مزحُك أنك سوف تتركَني رغم يقيني أنك كنت تمزح.

.. وذات يومٍ انفردَتْ فرات بابنتِها آرين وهي تمسكُ يدَها بيدٍ بينما تضع يدها الأخرى على كتفِها في حالةِ احتضان وهي تقول:

-ماذا تقرأين في عيني مالك يا آرين؟

-دائمًا تطلع عينيه على جسدي المثير يا أمي.

-ألم تطلع عينيه على شيءٍ آخر يا ابنتي؟

-ما هذا الشيء الذي تقصدين؟!

-روحك يا ابنتي؟

-وهل هناك فرق؟

-إن ذهب جسدك سيذهب لجسد آخر أكثر إثارة.

-وإن ذهبت روحي يا أماه؟!

-الروح لا تذهب يا ابنتي.

.. حاولت آرين أن تبرر الأمر لكن أمها قاطعتها بهدوء:

- لا أشعر بالراحة الكاملةِ يا آرين تجاه ما يجري بينكما من حُب، والبدايةُ من النهاية أفضلُ أنواعِ البدايات!

- اطمئني يا أمي نحن في أسعد حالٍ إلا إذا كنتِ تعلمين شيئًا آخر.

.. أطرقَت فرات طويلًا وقد ذهب عقلُها إلى ريسال تلك الفتاة الفارهة التي ربما يكون قلبُها قد حفر لمالك في الحبِّ خندقًا، فقاطعَتْ آرين دماغ أمها السارحة بقلقٍ:

- السترُ ببعضِ قماشٍ عُرْيٌ فَجٌّ، لكنْ عُرْيُ الحبِّ عفاف، يا أمي لو أهداني شَعْرَةَ خيطٍ أجملُ مِن رداء زفاف، يا أمي النهرُ بكفِّ رجالِ الدنيا يعطِّشني وبكفِّه أُروَى إذ يسقيني جفاف، تاللهِ إني لأخشى العالمَ حين يكون أمانًا دونَه لكنْ في الأخطارِ بحضنه كيف أخاف؟!

.. وعلى أيَّةِ حالٍ ارتاحت فرات مما كانت تخبِّئه خوفًا على ابنتِها من إظهارِه، فتنهَّدَتْ خوفًا وقالت قبل أن ينتهي الحرجُ:

- لا تكتبَنَّ وثيقةً إلا بتوقيعِ الهوى، وترى جنونَ العشقِ جِدًّا بالغًا حدَّ النِّصاب، ونُصابُ أحيانًا بحزنٍ مِن مآسي الأزمنة، لكنْ مُصابُك في المشاعرِ ليس يعدلُها مصاب، بعضُ العناقِ حِبالُ

شنقٍ حولَ أرواحِ النساء، بعضُ الوثائقِ لعنةٌ ليست سوى أمرُ اغتصاب.

.. كان من المنطقيِّ جدًّا أثناء جريانِ حكاية الحبِّ الجديدةِ رغم سحر البدايةِ أن تتعثَّرَ بتلك القصةِ المتوحشةِ في عمقِ نفس مالك، فكانت آرين تكتشف بجهازِ الحدسِ الأنثويِّ شرودَه فتقول بنبرةِ تهديدٍ:

- إذا شاءت الأقدارُ أن تمرَّ على حديقةِ تفَّاحٍ ذات سفرٍ، تذكَّرْ أيضًا أن فاكهةً كثيرةً تنتظرُ مِن إصبع قدمي الصغيرِ إشارةً لكنني اكتفيتُ بك.

كيف تفتحُ شفتاك بواباتِ الروحِ على مصراعيها لكل ما يروقُ لشهيتِك، فيختلطَ في عمق الروحِ الطعمُ الجديدُ بالقديمِ، فيفقد الحبُّ مذاقَه.

.. وكانت آرين جديرةً بالحبِّ وكلُّ الذي ظلمَها هو أنَّها جاءت بعدَ أنثى بحجمِ ريسال، التي رسَتْ في عمقِ الرجلِ، هناك أُناسٌ لا يمكنُ لأحدٍ أن يأتي بعدَهن، وهناك أناسٌ نموتُ فيهم وآخرون نعيشُ معهم، ولذلك لا يمكن للبلاغةِ المعجونةِ بالكذبِ في الغزلِ أن تصبح حرفًا ساخنًا مهما عظمَتْ كقولِه:

- وسأنصبُ كلَّ شهيقٍ فخًّا حتى يطيبُ التينُ رُوَيدًا، وسأشعلُ عشقًا حَبَّ التُّوتِ لأجعلَ من تفَّاحِك صَيدًا، مهما قيِّدنا عن التقبيلِ فراولةَ فصلِ الشوقِ، حَبُّ الليمونِ سيأتيني كي أنصبَ حضنَ ذراعي قَيدًا.

.. ليس معنى أننا التقَينا أنه يجب ألا نفترق، لا سببَ للحبِّ وكلُّ ما تعرفه عنه أنه يحدث فقط، وإذا من باب الفضولِ فتَّشْتَ عن السببِ ووجدْتَ سببًا جمع بيننا، فاعلم أنه سينتهي ما بيننا من رباطٍ بزوالِ ذلك السبب، كأن أحبُّك لجسدك ثم صرتَ هزيلًا فما الرباطُ إذن؟ أو أحبُّك لشهوةٍ فقضيتُها أو لمالٍ فصرت ذات يومٍ فقيرًا!

.. ويفكِّرُ مالك باحثًا عن قشَّةٍ تنقذه من الغرقِ:

قد يروقُ لي حنانك عليَّ وخوفك، وقد يصلح ذلك بيننا رباطًا، لكنْ لماذا تنتفضُ روحي إذا مَرَّ عليَّ قلبٌ أحبُّه ولو كان قاسيًا حَدَّ التحجُّرِ، وتتقطَّعُ كلُّ الأربطةِ التي قبلَه من تلقاءِ نفسِها.

.. ومضَت الأيامُ والتقى بمالك حمزةُ وتعانقا إلا قليلًا، وقد علم حمزة بقصةِ الحبِّ التي اشتعلَتْ بين مالك وآرين، لكن حمزة وجده سارحًا فسأله:

- ما بك؟

.. أجاب مالك:

- لا توجد أدنى علاقةٍ بين الشَّعْرِ الأبيضِ ومرورِ السِّنين، وإنَّما نشيبُ يا صاحبي بِمرورِ الحزنِ على هذه الرُّوحِ المتعبةِ مِن الدَّهشةِ.

.. فأحبَّ حمزةُ أن يلويَ عنق الحديثِ بعيدًا عندما شمَّ رائحةَ سيرة ريسال على لسان مالك، فلمَّحَ بابتسامةٍ مشيرًا بذلك إلى قصةِ الحبِّ التي اشتعلَتْ بين مالك وآرين:

- ما كان لرجلٍ أن يكونَ رجلًا حتى تحتاجَ إليه امرأةٌ؛ فحذارِ ألا يكونَ لديك ما يجعلُها في حاجةٍ إلى رجلٍ.

.. فسأله مالك وهو يرفع حاجبيه ساخرًا بعضَ الشيء:

- وما ذلك الذي تحتاج إليه النساء؟!

- الصدق يا مالك.

.. فقال مالك مرغمًا الحديثَ على العودةِ إلى ما في نفسِه وفي نفسِه من الألم ما لم يظهرُه:

- لو كنتُ مكانَكَ لوزَّعْتُ على الكاذبين اليومَ الهدايا؛ فذلك الكذبُ هو الذي جعلك اليومَ المتحدِّثَ الرسميَّ للصادقين!

- ماذا تقصدُ يا مالك؟

- لو قلتُ لها الحقيقةَ وأنني لست ذلك الكائن الذي رسمتْه تخيُّلًا؛ لأحبَّتْني ولو حدثَ ذلك لما كان لك اليومَ أثرٌ في قلبها ينبضُ.

.. فتبسَّمَ حمزة ضاحكًا وهو يقولُ:

- ومَن قالَ لك أنني لستُ معجبًا بك؟! وأني لأحبُّ الكذبَ وأحبُّ الكاذبين وربِّ الكعبةِ.

.. ضحك حمزة ولم يضحكْ مالك، فسأل حمزة مالك في عطفٍ عليه:

- أما تزال تحبُّها يا مالك؟

.. سكتَ مالك ربما خوفًا وربما خجلًا، فعاد وقال له حمزة:

- لا تَخَفْ فقط قُل الحقيقة و...

.. فقاطعه مالك ضاحكًا هذه المرةَ بينما لم يضحك حمزة:

- لا يعرفُ قلبَ الذي يعشقُها الخوفُ، إنما هو الخجلُ منك يا رجل.

- صدِّقني وقد تتعجَّبُ يا مالك أنا لا ألومُك على عشقِها ولكن...

- فقال مالك بشدَّةٍ وكأنه يبيح لنفسِه التفكيرَ فيها:

- ليس شرطًا أن كلَّ مَن في القبورِ موتَى؛ هل وَصَلَ بك الكفرُ إلى منعِ الموؤدين الذين لم يلفظوا أنفاسَهم الأخيرةَ من حقِّ البحثِ عن نافذةٍ للأكسجين.

.. فضحك حمزة وكأنه يعطيه الأمانُ فقال مالك وهو يذرف الدموعِ:

- آه لو كنتَ سمعتَها حين قالت لي يومًا: «الدنيا ذلك المدفن الكبير وأنت لست معي فيها»؛ لعلمْتَ بأنني رغمَ انهياري هذا أستحقُّ جائزةَ الرجلِ الأكثرَ تماسكًا في هذه الحياةِ، كيف كنت ستتنبَّأُ أنه في نفس موضعِ القبلةِ التي كانت على النَّحْرِ أن تخرجَ من نفسِ الشَّفاهِ أنيابٌ تقضمُ كمصاصي الدماءِ نفسَ النَّحْرِ.

.. صمتَ مالك برهةً ثم قال وكأنه يشفقُ على حمزة من الطريقِ:

- ألمْ يلفتْ انتباهَكَ رغمَ اختلافِ شهقةِ الأنفاسِ أن ال (آه) هي ذلك الصراخُ الرسميُّ للعاشقين الذين يمارسون الحبَّ، وأيضًا هي استغاثةُ الذين يعانون الآلامَ في هذا العالمِ الوعرةِ حكاياتُه، ذلك إشارةُ تحذيرٍ لكلِّ السالكين الدروبَ إلى الحبِّ بأنه ثمَّةَ مفاجآتٌ قد تحدثُ في منحنياتِ السفرِ ومفارقِ الطرقِ.

.. ثم تنهَّدَ مالك واستمرَّ في الحديثِ دامعًا وهو يشفقُ على حمزة في سؤالٍ تحذيريٍّ:

- ماذا إلا الموتُ إذا كان الحبُّ هو الحياةُ وانتهى الحبُّ؟!

.. فأجابَه حمزة مستسلمًا:

- للأسف يا صاحبي ليس لي إلا هذه الحياةُ دعْني أموتُ بها.

***

ذات مساءٍ صادمٍ كانت آرين تغني وتعانقُ من الخلفِ زوجَها مالك الذي يجلسُ منهمكًا، وفي يديه حفنةَ أوراقٍ بما كان يحسبُ جملةَ أرقامٍ بينما صوتُها الناعمُ خلفَ أذنيه مِن أشعارٍ كانت قد كتبتْها ولحَّنتْها:

- أطعمني شعير.. أجلسْني فوق سنامِ بعير.. واجعلْ قبلاتِكَ آخر هذا الليلِ ختامًا، لكن لا تترك روحي بين أبايَ وأمي يتامَى.

.. لم يُظْهر مالك أدنى اهتمامٍ، فكابدَتْ الأمرَ واعتبرتْه تحديًا لإغوائه، فالتصقَت بظهرِه تستكمل اللحن والغناءَ:

- حاوِرْها بشعرٍ أو موسيقى تسلَّلْ بين مسامِ الجلدِ، وداهِمْها تحت الأذنين ومُدَّ يديك بعيدًا، فيها تجاهلْ دهشتَها وتجاهلْ مهما سمعْتَ شتائم عن تجريمِ وقوعِ الهَتْكْ، وحذارِ تفكَّ زرارَ قميصٍ أو تتعمَّدْ فَكَّ حبالِه وافْتِكْ أيَّ قميصٍ فَتْكْ، لو لم تلمسْها قبلَ اللمسةِ ما كانت مِن أوَّلِ بيتٍ قد سمعَتْك.

.. ولمَّا لم ينتبه أصابها الضجرُ فاقتحمَتْ تركيزَه وسألتْه فابتسمَ ساخرًا:

- كتبَتْ سأُلقي فجاءوا صفًا تلو صفٍّ دون جَهدْ، قالت لَلِّي فقالوا تلقي من الشفاهِ الحرفَ شَهدْ، عشرون ألفًا ادعو قومي ولا مُجيب، يا ليتني قد جئتُ أنثى ولي مؤخِّرةٌ ونهد.

.. تقبَّلَتْ بدلالٍ سخريتَه كأنها فرحَتْ بانتباهِه، فسألتْه بصوتِها الناعمِ وهي ترفعُ حاجبيها وتتمايل:

- ألا يعجبُك غنائي؟!

.. فبالَغ في السخريةِ قائلًا:

- ولقد مللْتُ سماعَ شعرٍ قد تملَّكَه الهُزال، فرحمْتُ نفسي من التقيُّؤِ طالبًا بعضَ انعزال، لا لستُ أُجبَرُ أن أُصَفِّقَ حين يندفع النَّشاز، لا لستُ أملكُ عينَ أُمِّك كي أرى قردًا غزال.

.. احتارت كيف تستميله ولاسيَّما أنه عاد للأوراق وللحساباتِ، وأحسَّتْ كأنه يهربُ فصرخَتْ وهي تخطفُ الأوراقَ وتلقي بها غاضبةً:

- قد بات لي من الهوى جرحٌ جسيمُ، لكن حزني دائمًا حزنٌ وسيم، واليومُ تضحكُ رغمَ أنَّك قلتَ لي: «سأموتُ قهرًا حين يجرحُك النسيمُ».

.. ثم استدارت تبكي:

- بحجمِ آلامِ الذين تيتَّموا في هذه الدنيا أوجعني مزحُكَ أنك سوف تتركَني؛ ألمْ تُنهِنا كلُّ رسالاتِ السَّماءِ عن حملِ السلاحِ في وجوهِ البشرِ، ولو كان مزحًا فما بالُكَ أنك قد وضعته على عنق القلب، تبًّا لك.

حاولْتُ أن أكون أنيقَة جدًّا وأغرقْتُ قميصي عطرًا، ثم ذهبْتُ مساء أمسِ وابْتَعْتُ بعضَ الوردِ الطازجِ وذهبْتُ بي مسرعًا للقاء نفسي هنالك عند الشاطئ، في زاويةٍ جلسْنا معًا وأقسمْتُ عليها ألا نبكي طوالَ فترةِ خلوتِنا؛ فبكينا قليلًا بالفعلِ ثم قالت لي: وماذا سنفعلُ أن كنَّا لن نبكي؛ فضحكْنا عفويًّا كمجنونٍ لم يرَ شيئًا، ثم بقينا نفتحُ موضوع ونغلقُ آخر حتى مطلعِ الدموعِ، ثم تعانقْنا طويلًا جدًّا بعد أن اشترينا مزيدًا من البراحِ لاستيعابِ مزيدٍ من الحمقى.

- ومَن هذا الأحمقُ يا آرين؟

- أظنُّ أنَّك تعلم الإجابةَ يا مالك.

- لستُ أحمقًا يا آرين، سأحتفلُ الليلةِ بمرورِ ألف عامٍ من الحنينِ منذ غيابِك أوَّل أمسِ.

.. فقالت غاضبةً:

- ستشاهد وجهى حين تصادفُ سربَ حمام، وستذكرني في مطلعِ كلِّ نهارٍ حتى تنام، وستحلمُ كلَّ منامٍ بي وستبكي جدًّا جدًّا جدًّا، وستكملُ عمرَكَ بعد رحيلي مع الأيتام.

.. فأخذ يفكر فيما ارتكبَه من جرائم ويراجعُ صحيفةَ أعمالِه وهي تصفعه بجملةٍ أخرى:

- لا تطاردْني بعدَ اليومِ وتفعلُ رغمًا عني ما تفعلُه!

- لم أتحرَّكْ من مكاني ولم أركِ أصلًا!!

- إذن فسِّرْ لي حلمًا رأيتُكَ فيه.

- وماذا رأيتِ؟!

- أيها الأحمقُ أنتَ إن جئتَني في الحلمِ تتوقَّع ماذا سوف يحدثُ بيننا؟!

.. قالت آرين لمالك بعد أن ضجَّتْ مِن بقائه شاردًا:

قُلْ كيف طاوعَك الغيابُ وكيف تكفرُ بالوعود، وبأيِّ وجهٍ قد تبرِّرَ كلَّ خيباتِ السنين، ولإنْ سألتُك حين تأتي بأيِّ وجهٍ قد تعود، قُلْ أيَّ شيءٍ غير أنَّك كنتَ تشعرُ بالحنين.

- دَعْكَ من القعودِ شاردًا مكتوفَ النبضِ واذهبْ لاستقبالِ حبيبتِك التي تقفُ بانتظارِك في ميناءِ الدنيا هنالك على الرصيفِ تائهةً بدونِ محلٍّ إقامةٍ في هذا العالمِ الغريبِ.

.. وأكمَلَتْ دموعَها قائلةً:

- ليتك تعلمُ أن الدُّنيا مرَّتْ وأنَّا عدْنا قليلًا لأحبُّك فيها بينما أنت ما تزال غبيًّا، وقد مرَّت منذ ذلك الوقت عشرون سنةً منذ غيابِك عني ليلةَ أمسِ.

- مالك؟ ماااالك؟؟

.. وكان مالك قد سرحَ في آخر طعنات كلمات ريسال المتفرقة في عمق الروحِ حين نصحتْه ليواجه نفسَه بعد طول ملاحقتِه لها ذات يوم: «قد ضاق صدري من اتِّباعِك لي طويلًا خِفْتُ أصبرُ دون صَدِّكَ حزنُ نفسِك يُكْبَتُ، قل كيف يمكنُ أن أساهم في جريمةِ خطفِ روحٍ دونَ

حبٌّ يُثْبَتُ، إن كنتُ سكّينًا بضلْعِك لن تموتَ وسوف أُسْحَبُ ذات يوم، لا تنتظرْ إن أغرقَ المطرَ الصخورَ إنَّ قمحًا يُنبَتُ».

.. وكانت آرين تنتفضُ بينما كان مالك يعاني من أثر الجرح وهو ينتبه قائلًا:

- أنا معكِ يا آرين.

- لستَ معي يا مالك!..

قُل كيف يمكنُك التخلّي عن ادّعائك بعض حين، وعن التظاهرِ بالسعادةِ ضدَّ المنطقِ والحقيقة، ماذا سيحدثُ إن بدأْنا بشقِّ ملابسِنا الجميلة؟ ماذا سيحدثُ إن لطمْنا على الوجوه ولو دقيقة؟

.. فقالَ وكأنه يوبِّخُها بدلالٍ هاربًا مِن فخِّ حصارِها له بضحكةٍ:

- ومع مَن إذن يا حبيبتي إلا أنتِ؟

.. فقالت بثورةٍ:

- عن كسرِ الظهرِ شنقِ الروحِ وحرقِ وسادة الاتّكاء، قُلْ شيئًا لي غير استمرارِك في الشهيق أو استعدادِك للبكاء.

.. ربما كان حولَ رقبتِه أكثر من اختناقٍ لا سيما بعدَ طولِ حصارِها له فخرجَ وهو يقسمُ على ألا عودةَ له فصرخَتْ:

- مِن دونِ ثرثرةٍ وحشوٍ في رحيلِك سوف أحكي ملخَّصَا، اذهبْ بعيدًا لن أنادي ولو عميتُ وصرتُ أمشي بالعصا، لن أمسكَ اليومَ القميصَ أشدُّ فيك وأستغيثُ بعودتِك، آنَ الأوانُ بأنْ أُجَرَّدَ من حريرِكَ أن أنامَ على الحصَى.

واشتقتُ أضحكُ كالغواني وأشربُ الخمرَ الكثيرَ، واشتقتُ أمشي بالهُوَينَى وألبسُ الكعبَ المثيرَ.

وأعودُ لي كي يجري خلفي في الطرقات ألفُ فارسْ، ما كنتُ أحسبُ أن حبَّكَ فيه بردُ الحضنِ قارسْ.

.. ربَّما يبدو للمُشاهدِ من تركيبِ الصورِ أنَّها قد ازدادت حزنًا،ا وإنما من يتمعَّنُ في الأمرِ قد يبدو له أن القفزَ في المشكلةِ خيرٌ مِن ألف انتظارٍ.

-12-

كأيَّةِ أنثى شرقيةٍ أغلقَتْ عليها بابَها وانتظرَت وسطَ وابلٍ من الحنينِ عودتَه وقد أقسمَتْ من فرطِ خوفِها عليه ألا تفتحَ معه الجرحَ وأن تتعايش. دقَّ البابُ فهرولَتْ تفتحُ فإذا به أحدُ المراقبين لها كان قد علم بوجودِها وحدَها، وبعدَ أن فهمَتْ أنه يريدُ الدخولَ قالت له:

- سؤالٌ بإجابتك له أسمح لك أن تدخلُ على الفور.

.. فرح الشابُ وبدا لديه الأملُ في الفوزِ بليلةٍ معها وقال:

- اسألي.

.. سألتْه:

- هل دخول الكلبِ في بيوتِ المؤمنين نجاسة؟

- فأجاب متردِّدًا:

- أظنُّ ذلك.

- إذا كان دخولُ كلبٍّ في بيتي نجاسةً فكيف بدخولِ مثلَك في حياتي؟!

.. وما أن استدارَ الشاب بعد تلك الصفعةِ حتى وجد اللكماتِ تنهال على أنفِه فتدخَّلَتْ آرين كي لا يقتلَه مالك ثم جذبتْه قائلةً:

- هل كنتَ تراقبني لتبحثَ لي عن مكيدةٍ يا مالك؟

- واللهِ لقد كنتُ عائدًا إليك صدفةً وفوجئتُ بوقاحتِه.

.. بدأت آرين تخرج عن عقلِها وتنتفض كأنها طوال فترة غيابِه كانت قد شُحِنَتْ بالقهر:

- هل تعلمُ لماذا نفتِّشُ عن عيوبٍ في هؤلاء الذين نريد أن نرحلَ عنهم، كلُّ الذين يسفكون الدماءِ يقتلون الأنفسَ ويقومون بإخفاءِ الجثثِ وكأنَّ جريمةً لم تقع، ليس فقط خوفًا من القانون وإنما خوفًا أيضًا من عدالةِ ضميرِه حين يسألُه لماذا قمتَ بذبحِها ألم تكن هي الأجملُ مما وَحَلْتَ فيهن وكرهْتَ بهن الحياةَ، تريدُ أن تخترعَ لي عيبًا لتنساني بعد أن تمضي فترتكبُ بذلك جريمتين إحداهما القتلُ والأخرى التمثيلُ بجثَّتي.

- وربِّ الكعبةِ لقد كنتُ عائدًا إليك يا حبيبتي!!

.. كانت هذه الجملة كفيلةً بقلبِ درجة حرارتِها الاستوائية إلى معتدل ودافئ ممطر على سواحل العينين، وبدأ المطرُ في الانهمار تحت هول خفقان القلب وهي تتنهَّدُ محدِّقةً في عينيه:

- كيف أنتَ مِن دوني يا حصاني العنيد؟

- ومن قال وأنتِ هنا أنني من دونِك هناك يا مهرتي؟! لا شيء يحدثُ صدفةً وفي كلِّ ابتعادٍ أحبُّك عمدًا.

.. فنسيَتْ كلَّ الذي كانت قد خطَّطَتْ له وقامت بإعلانِ حربٍ عليه، ربما لأنها كانت تريد أن تُحكم زمام السيطرة، وربَّما تريد أن تشعر بأن أنوثتها مرغوبة وأن عودته ليست إشفاقًا عليها:

- ولقد ذكرتُك يوم قيل إنَّ عمري سيستقيل، ولقد ذكرتُك يومَ قيل ويومَ قيلَ ويومَ قيلْ، فبأيِّ عذرٍ سوف تحكي عن مؤامرةِ الغياب، وبأيِّ قلبٍ قد طعنْتَ القلبَ غدرًا بالرَّحيل.

.. ثم دخلَت وأغلقَت بابَ غرفتِها خلفها وهي تقولُ:

- دعونا نراجعُ تفاصيلَنا الدقيقةَ فلقد أصبحت مرعبةً.

.. ثم جلست تفكر في أمر هذه النكبةِ وهي تحدِّثُ نفسَها:

- السُّمُّ الوحيدُ الذي ثبُتَ مفعولُه كأداةِ قتلٍ للأنثى هو أن يحبَّ حبيبُها امرأةً أخرى.

.. لكنها قرَّرَتْ أن تحاربَ كرامتها التي تجبرها على الرحيلِ من الحكايةِ، وقرَّرَتْ أن تبدو كبنتِ بلدٍ كما يقولون تقفُ بجانبِ حبيبِها الذي يتعرَّضُ لنوبةٍ نفسيةٍ حادةٍ حتى يتجاوزَ ما هو فيه، وبقلبِ حبيبةٍ تخاف عليه وهي في غرفتِها أخذَتْ تفكرُ في مستقبلِه إن مضَتْ وتركتْه:

- ستمشي في طريقٍ كان مقدارُه سبعين ألفَ عامٍ تُسبِّحُ بحبِّها، وإذا وصلْتَ ستجدُها على فراش مع عشيقِها متلبِّسَين بالكُفْرِ بِك، وسطَ وابلٍ مِن شظايا القُبَلِ وضجيجِ الاشتباكاتِ، وسيندلعُ الموتُ بما تبقَّى منك بعدَ رحلةِ انتحارِك فيها، أعطِ لنفسِك موعدًا وصارحْها أثناء تناولِ الليمونِ معها بحبِّكَ الشديدِ لها، وبأنَّك اشتقْتَ جدًّا للهمسِ في أعماقِها على انفرادٍ في هدوءٍ بعيدًا عن الناسِ ذات عزلةٍ.

.. ثم خرجَتْ عليه آرين واحتضَنَتْه بقلبِ أُمٍ وقالت باسمةً:

- لا يبالي بالعتمةِ ذلك الذي في نفسِه النور، خُذْ معك أنتَ عندما تذهب من هنا في أي طريقٍ نحو أيةَ روايةٍ تزعمُ أنها طويلةٌ، فإنَّك قد لا تجدُ أحدًا بعدَ وصولِك هناك في زمنِ القصصِ القصيرةِ.

.. بعدَ مطلعِ فجرٍ لم تنم في ليلِه آرين غفوةً واحدةً أخذها الألمُ بحثًا عن ريسال التي اختُطِفَ على آثارِها مالك، عندما عثرَتْ عليها في بيتِها بعدَ طولِ صراخٍ من فرطِ جرحٍ لم يشْفِه الندى سمحَ لها الحراسِ بعد فزعِ ريسال من فرطِ الصراخِ، فأذنَتْ لها فدخلَتْ ولم تجلسْ ثم نظرَت بعينيها الحمراوين نحو ريسال:

- ما أنت إلا تلك الطفلةُ التي نادت على رجلٍ من المارِّين أعجبها فقالت له: دُقَّ البابَ لأنَّ يدايَ صغيرتين، فلمَّا خرجَ أصحابُ المنزلِ غاضبين سألوا الرجلَ: ماذا تريد؟! فلم يجدْ

الرجلَ بجوارِه صاحبةَ الأيدي الناعمةِ، فأمسى يقلِّبُ كفَّيه الخشنتين على وجهِهِ لاطمًا من ذلك الحرجِ بعدما وقع صيدًا لطفلةٍ كانت تلهو.

.. وكانت ريسال لم تكن قد التقَتْ بها وجهًا لوجْهٍ من قبل فقالت لها:

- آرين؟ أليس كذلك أنت هي؟

.. فقالت آرين بثورةٍ ساخرةً:

- في حادثةٍ هي الأولى من نوعِها قد تمَّ اختطافِ رجلٍ على الطريقِ الدائريِّ للعالمِ تحت تهديدِ عينيها المجرمتين على بُعدِ أقلِّ مِن مائةِ مترٍ من زوجتِه.

.. فتساءلت ريسال بدهاء بالغٍ امتصَّتْ فيه ثورةَ آرين:

- أين أخي مالك هل حدث له مكروه؟!

.. فهدأت نفسُ آرين على أثر سمعِها كلمة (أخي) ثم أجابت:

- في البيت.. في بيتِنا أقصدُ.

- هيا بنا إليه.

.. مضَت آرين معها في دهشةٍ من نتائج ما قد يحدثُ في الدقائق القادمةِ ... وفتحت آرين البابَ في قلقٍ فاقتحَمَتْ ريسال على مالك نومِه وأيقظَتْه قائلةً:

- إلى كل المجانين في هذا العالمِ صباحُ الخيرِ ثم أمَّا بعد ... تمَّ رفضُ كلِّ الطلباتِ المقدَّمةِ من الماضي بعدَ أن ثبُتَتْ نواياه بالأدلةِ الدامغةِ كعدوٍّ للحياةِ.

.. فتفاجأ مالك بريسال التي تقف آرين خلفَها وقبلَ أن يقومَ قالت له ريسال:

- كنت ماضيةً بجوادي من هنا فتعرَّفتُ على آرين، وعلمْتُ أنها زوجة أخي مالك فأردْتُ أن أقولَ لكما شيئًا وأنتما أمامي.

.. طلبت منها آرين أن تتفضَّلَ لكن ريسال ظلَّتْ واقفةً وهي تنظر إلى مالك تارةً وإلى آرين تارةً أخرى:

- هذا الرجلُ الذي يُدعى مالك قطعَ يومًا طريقَ الموتِ مِن أجل المدعوةِ آرين ولكنه تعثَّرَ بشيءٍ في الطريقِ، وأظنُّ أن الذي يتعثَّرُ بشيءٍ يضعه جانبًا ويكمل الطريقَ، انظرْ إلى هذا القلبِ الملائكيِّ يا مالك ... أنتَ تنظرُ إليه لكنك لا تراه وعلى بصيرتُك غشاوةٌ؛ حذارِ مِن تدميرِ الروحِ حدَّ الموتِ شنقًا بهؤلاء الذين يصدِّرون الطاقةَ السَّلبيةَ لروحِك وأولُهم أنت.

.. فابتسمَ مالك وقد ارتاحت روحُه كثيرًا بهذا التحليلِ العميقِ لمكانِ الجرحِ القديمِ الذي تنظِّفُه ريسال وهي ترفعُ وجهه وتقولُ له بقلب الأختِ:

- في مدَّةِ شفاءِ أنفٍ مِن نزلةِ بردٍ على أقصى تقديرٍ تحوِّلُ الأنثى المضارعَ الذي نفاها إلى ماضٍ ولو كانت في جَنَّةِ أحدِهم، لتقفَ بين ذراعيِّ رجلٍ آخرَ استطاعَ أن يكونَ لها وطنًا، إن كان من الحماقةِ ألا نتوقَّعَ هروبَ عصفورةٍ مِن عشِّها إذا داهَمها ثعبانٌ ضخمٌ، فإنَّ الأشدَّ حمقًا هو أن نندهِشَ متسائلين: لماذا لم تصبرَ هذه العصفورة حتى تضمنَ هبوطًا آمنًا لنفسِها وتحدِّدَ إلى أيِّ وجْهةٍ تتَّجِه.

.. أهْدَتْه آرين جملةً أخرى كصاعقةٍ:

- .. قد كنتَ من أخبارِ أمسِ وأمسِ كان ولن يعود، ما عاد يشغلُني أتكفرُ أم ستؤمنُ بالوعود، ما عاد يفزعني ارتطامَ البابِ جدًّا ذات ريح، فالقلب شاب مِن النوافذِ حين دَكَّتْه الرعود.

.. شعر مالك بنبرةِ تهديدٍ وأحسَّ بخطر وقوع سقف الحكايةِ التي تأويه فباغتتْه ريسال بضربةٍ أخرى:

- ارفعوا سقفَ الروحَ واسألوا اللهَ المستحيلَ، فإن أصحابَ الهِممَ العاليةَ لا يسألون اللهَ الممكنَ، وقل اللهمَّ هَبْ لي قلبًا لا ينبغي لأحدٍ من العالمين إنك أنت الوهَّاب.

.. فحاول مالك أن يتكلَّم فانفعلَت عليه ريسال وسط ضحكات الجميع حين قالت:

- إن كان كلُّ الحفلِ صُمًّا لا تُصِرُّ على التَّزْمير، ستظلُّ تَسْلُقُ عقلَ شخصٍ قد تفحَّمَ بالتَّحمير، وإذا قطعْتْ آذان بغلٍ هل تحوِّلُه حصان، سنبيتُ نعجنُ في الكلامِ والحميرُ هي الحمير.

.. وكأنَّ الدعوةَ قد أُستجيبَتْ ووقعَتْ الاشتباكات بعد خروجِ ريسال مسافة غلقِ بابٍ ثم قالت آرين لمالك:

- ألم أقُلْ لك أنني سأحتفلُ بوقوعِك ذات جنونٍ في الحبِّ.

.. عادت ريسال إلى بيتِها شاردةً في أمر مالك وزوجتِه، فمضَتْ بين ابتسامةٍ على شفتيها واندهاشٍ على ملامحِها، ودخلت بيتَها وارتمَت على فراشها تستكمل شرودَها:

- ياللهولِ كيف لبضعِ كلماتٍ أن تملأ بيتًا بالفرحِ، عسلُ الكلامِ لا يحتاجُ لأكثر من شفتين لإسعاف أُذُنٍ من النزيف حتى الموت.

كان على آرين أن تتمهَّلَ حتى يداوي الزمن جرح مالك العميقِ يومًا بعد يومٍ، لكنها تريدُ حبًّا جارفًا كأنها تطلبُ وجبةً سريعةً مشبعة.

لو افترضْنا أن المساحةَ المسموح بالتجوال فيها أثناء علاقات الغرامِ تسمى منطقةً، فإن أبعد مسافة يمكننا الوقوف فيها هي أقرب مسافةٍ تحفظ وجودَنا داخل حيِّز المنطقة إذا انتهت العلاقة أو إذا دخلتْ في نفقٍ من التوتر.

معظم الانسحابات الضخمة تخرج معها الروح من القلبِ على دموع القهرِ في وقتٍ لن يسعفك فيه إلا الذي قام بالجريمةِ!

.. عاد حمزة إلى حبيبتِه ريسال وكانت غافيةً إلا قليلًا، ففتحَ الباب متسلِّلًا كي لا يزعجَ أحلامَها لكنها فاجأتْه باستيقاظِها وهي تنهرُه غاضبةً:

- ماذا أقول حين أستيقظ وأجدُ حبال قميصي منهارة، ووحشيَّةَ كفَّيك تركَتْ خلفَ جريمتِكَ أثرًا باهظًا.

.. تاللهِ ما دخلْتُ عليكِ إلا الآنَ وكنتُ...

- كنتُ أعلمُ منذ رأتني عيناك أوَّلَ مرةٍ أنني سأسقطُ في فِخاخِ شفتيك الظالمين.

- شفتاي؟!

- لقد شعرْتُ منذ قليلٍ تفعلان وتفعلان.

- ما تعمَّدْتُ فِعْلَ شيءٍ!

- لقد تعمَّدَ صهيلُك أن يهزَّ عمقي بعمقٍ.

- كان يجبُ عليك أن تقاومي ال..

- وكيف لمهرةٍ مثلي أمام دهس شهيق حصانٍ بحجمِك أن تقاوم؟!

.. كان قد نزل بستائرِه الليلُ على العاشقَين الملتصقين وهي تستجيرُ من حمحمتِه قائلةً:

- إني أخشى على نفسي إذا التقَتْ وجهًا لوجْهٍ مع دوَّامات عينيك الظالمِين لو تعرَّتْ الروح؛ هذا الجلد الذي خدشته أنامل تنهيداتك وكان بينَه وبينِك قميصٌ كيف إذا خَلَّى الجنونُ بينه وبين عينيك؟!

.. عَلا صوتُ صهيلِ اشتباكِ المهرةُ بالحصانِ في جميعِ أنحاءِ العالمِ، وفي كلِّ ركنٍ فيه كان ثمَّةُ معركةٍ ومرَّت الدنيا سريعًا.

.. مثلما يتصيدُ قُطَّاعَ الطرقِ فريستَهم كانت ريسال تقتنصُ الوقتَ الأنسبَ لتدسَّ كميةً كبيرةً من الروحِ في صدرِ حصانِها دفعًا للأمامِ، ليس فقط للانطلاقِ بسرعةٍ للطيرانِ، وكانت لا تحتفلُ بالنجاحِ وإنما تحتفلُ باستمرارها بدفعِ عجلاتِ الأملِ، وتقولُ له مقولتها الشهيرة دائمًا: «كف عن التحليق للاحتفال بأن حلمَك أوشكَ أن ينطحَ السحابَ، فأنت مخلوقٌ للارتفاعِ ولمْسِ سقفِ السمواتِ». غير أن النفسَ تحتاجُ لأكثر من مجرد الدفعِ فكانت تقول له:

- كم أكره الصمتَ اللعين إذا قُتِلْنا بالسلام، وإذا بقينا ميِّتين فما يضرُّكَ بالكلام، هيَّا تعالَ إلى القتالِ ولو حيينا ببعضِ حضنْ، فالقتلُ في وضحِ الهوى خيرٌ من العيشِ الظلامِ.

وسمعت المهرةُ صوتَ آذانِ الديوكِ فانتفضَتْ توقظَ حمزة وقالت:

- كيف أصبح اليومَ حبي في صدرِك يا حصاني العنيدَ؟

- قل كيف يمكن أن تكون كمثل غيرك تُعْشَقُ، وأسأل الأيامَ صِدقًا كيف فَجْرًا شقشقوا، يا خمر خامٍ قد تعتَّقَ من هوى القُبَلِ الحشيش، ما جئتَ تُعْشَقُ أيَّ عشقٍ مرغمًا ... تُسْتَنشَقُ!

.. ثم أخذتْه على الحدودِ ما بين الشمال والجنوبِ حيث بدايةِ حفرِ ترعةِ الجنوبِ بنهاية حفرِ توسعةِ امتدادِ نهرِ الشمالِ، وهناك وجدا الملثَّمَ الذي كان معها ليلةَ أمسٍ ومجموعةً من الجند في انتظارهما، وقام الجندُ بتوصيل النهرِ بالترعةِ بعد رفع المنطقة الباقية، والتي كانت تشبه السدَّ الكبيرَ؛ ففاضَ الماء يجري في ترعةِ الجنوبِ قاطعًا الطريقَ إلى الجنوبِ ليجري في الصحراءِ فقام الناسُ في الصبحِ على نهرٍ يجري في جَنوبِهم وقبلَ غروبِ الشمسِ كانت هناك قائمةٌ بأسماءِ كل عائلةٍ وموقعِ أراضيها في الصَّحراءِ التي لن تعودَ إلا جنةً لله في الأرضِ.

.. أوقفَتْ ريسالُ الحراسَ على طولِ امتدادِ النهر لحمايةِ مجرى الماءِ من أن يلقي به الأعداءُ سمومًا، وأمَّنَتْ المجاهدين من الاغتيالِ لاحتمالات الوقيعةِ بين الملكِ والحاكمِ..و..

.. ولأنَّ العدوَّ يجلسُ بالمرصادِ منتظرًا أفعالَكَ بسيناريو مكتوب مسبقًا يُدعى (إن كنتَ تعلم فهي مصيبة، وإن لم تكن تعلم فهي مصيبتان) فعليك أن تسابقَ الزمنَ بذكائك حتى لا يستقطبَ الحاقدون على النجاحِ عامةَ الناسِ فينزعون من أفئدتِهم شريانَ الانتماءِ؛ قالوا إن الحاكمَ وضعَ السمَّ في النهرِ لأهالي الجنوبِ، فلمَّا لم يتسمَّمِ الجنوبُ قالوا إنه خدعةٌ ليقتلَ المجاهدين فلمَّا لم يُقْتَلُ أحدٌ ... إنهم يجهزون اكتئابًا للعامة في كل فرحٍ متوقعٍ، وفي وقت من المستحيل فيه تصدير الاكتئاب إلى الوطن، بات فرضًا على الأذكياء أن يبدءوا بالهجوم إذا أرادوا اللعبَ بإحراز مزيد من الأفراح لهذه الشعوب الحزينة أفراحُها.

.. وفي الشمالِ كتب مالك لوحةً باسم الملكِ على مدخل كل طريق من طرقات شمالِ المدينةِ، وكتب في كلِّ لوحةٍ اسم صاحبِ كلِّ بيت وكتبَ أمامَه رقمًا ثم كتب بعدَها: مَن أراد أن يبيعَ قمامةَ ومخلَّفاتِ بيتِه، فليأتِ بالرَّقمِ ليتسلَّمَ عُلْبَتَه الخاصةَ التي سيجلبُ فيها القمامةَ، فنحن سنشتري منه الكيلو الواحدَ بعشرةِ دراهمَ مهما كان نوعُ القمامةِ فيما عدا التراب، على أن يأتي به مصنَّفًا كما هو مكتوبٌ على أقسامِ العلبةِ، ثم يسلِّمها إلى العربةِ المخصصةِ لذلك في تمام الساعةِ السادسةِ صباحًا وحتى السابعةِ بمعدَّلِ ساعةٍ واحدةٍ يوميًّا.

.. فعل هذا مالك بجميع الطرقات بتغيير موعد وصول العربةِ فقط حتى يتسنَّى للعربةِ العودة لجلبِ القمامةِ في ساعةٍ أخرى من طريق آخرَ.

فأصبح صاحبُ القمامةِ يأخذها إلى العربةِ ويسلِّمُها ويأخذُ علبةً أخرى لتعبئتِها في اليومِ التالي؛ فاستغنى بذلك عن جيشٍ مِن العمَّالِ.

.. وذات يومٍ مرَّتْ ريسال على مالك لتعبِّئ روحَه بالطاقةِ التي تحتاجُها هذ المرحلة، وكعادتِه بخفة ظله قال لها:

- أرجوك إنْ بيني وبينك دارَ في شيءٍ حوارْ، وأُصِبْتُ إذْ جاءت عيوني في عيونِك بالدُّوارْ، لا تسكبي دلوَ المياهِ على دماغي لأستفيق، لأغيب فيكِ وجرْجريني على الطريقِ إلى

الجِوار.

.. دائمًا يحتاجُ الناسُ المجتهدون إلى من يقولُ لهم شكرًا التي لا يقولها إلا الأذكياء القليلُ.

.. وبينما هي واقفة مع مالك قاطعهما أحد عمال المصنع ومعه فتاة يبدو أنها مغرمة به وهو يقول:

- شكرًا، وإن الشكر مهما قد أفضْتَ فلن يفي، ولو اقترضْتُ على سنيني سنين أخرى واستدَنْتْ، ولذا فإني لن أقولَ أمام حسنِك أيَّ شيء، إلا إذا ما قد سُئلْتُ عن الجمالِ أقولُ أنت.

.. فضحك مالك قائلًا لها:

- لقد جعلت عمال النظافة يكتبون الشعر!

سألته ريسال:

- هل أنت شاعر؟

- نعم.

- هل كتبت لحبيبتك شعرًا؟

- نعم.

.. قل لي منه بيتًا لو تحفظ.

.. قال الشاعر:

- صَبٌّ ومسلك كل عشق باشتباكٍ مسلكي، وحذارِ يسحبك الغرام إلى اللقاء فتهلكي، فإذا انجرفْتَ إلى سقوطٍ ذات خمرٍ من عَلِ، ما عاد يجدي للرجوعِ لعلَّني ولعلَّكِ..

- ياللهول أنت الشاعر الذي يطلقون عليه شاعر المراهقات! لكن متى رأيت حبيبتك أول مرة؟

- منذ جئت المصنع هنا، أي من فترة لا تزيد عن عشرين يومًا تقريبًا.

..فاقتربت ريسال من أذنه ثم وشوشته:

- هذه القصيدة سمعتها منذ ما يزيد عن شهرين؟!

.. ثم نظرت ريسال في أصابع العامل فلم تجد فيهم خاتمًا للزواج أو الخطوبة فقالت للفتاة بخفَّة ظلٍ:

-الشعر يغوي حرارة التفاح جدًّا بالغزل، ولسوف تُحفرُ بالقصائد للحسان خنادقُ، يتصيدون الساذجات من النساء بنظرتين، عصفورتي لا تأمني إن الرجال بنادقُ.

.. فأسرع العامل الشاعر يبرر تأخره عن الارتباط، فأمرت مالك بأن يعطيه مهرها هدية منها، ثم وعدها العامل بأن يطلب يد حبيبته الليلة ...

فاحتضنت حبيبةُ الشاعرِ بتلقائيةٍ ريسالَ فرحًا بهذا الخبر بينما كانت ريسال توشوشها:

- لو وضعتِ أمام طفلٍ طنًّا من الحلوى ربما سيأخذ واحدة، وربما لا يلتفت للحلوى من الأساس، لكنك إذا وضعتِ قطعتين وقمت بخطفِ واحدةً سيأخذ القطعة المتبقَّية وعيناه على التي في فمك أيضًا.

- لديَّ نسخة من رواية «أسرار التنهيدة الأولى» وأعلم منها أنك تقصدين تحذيري من أن أناوله نفسي دفعة واحدة، فلا يتبقَّى شيءٌ يعود إليَّ من أجلِه، لكنني اندفعت فرحًا من

اصطدامي بخبر أنه عقد العزم على الارتباط بي أمامك رسميًّا.

.. ثم بنى مالك على حدود الشَّمال الشرقي مصنعًا ضخمًا لتدوير القمامةِ التي تأتِيه مصنَّفةً وحوَّلها إلى سمادٍ وغيره ... تحت إشراف الملك شخصيًّا، وبالفعل بدأ العدُّ التنازلي لإنتاجِ أولِ طنٍ من السمادِ ثم سوَّقَه مالك إلى المدن الأخرى بمبالغ غَطَّتْ ما يدفعونه للناس مقابل القمامةِ.

فأصبح الناسُ وأمسوا وباتوا يبحثون عن القمامةِ في الطرقات التي صارت تلمعُ من النظافةِ والجمالِ، وذات يومٍ كان الملكُ يمرُّ مع ريسال متخفيين كعادتِهما، فوجدا امرأتين تتعاركان على اللحاقِ ببعضِ القمامةِ التي أصبحت تُباعُ.

.. ما يزال جرحها عميقًا متغلغًا في عمق الروحِ، فقرَّرَ ألا يطاردَها بمشاعره المنجرفة عليها فيخسرَها حين تتضجَّر منه إلى الأبد، فبقى قريبًا يتناول من اقترابِها بين آخر مسكِّناتٍ للألم، وجلس المطعون في قلبِه يحاول أن يذكر محاسن زوجته آرين الجميلة لعلَّه يوفيها بعضًا من وقوفِها بجانبِه؛ كي لا يشعر بالذنب كلما ذكر الهوى، وقرَّر أيضًا أن يكتب ويتَّخذ من الورق والقلم صاحبين، فجلس على الأرض وكتب وهو يبتسم وعيناه تلمعان بالحزن:

- الحبُّ يختطفُ القلوبَ كصيدِ غزلانِ البراري ذاتَ سهْوٍ بالشِّباك، لا يملك القلبُ العنيدُ سوى السقوطِ إذا تأجَّجَتِ المعاركِ وقتَ سَكْرةِ الاشتباك، فإذا مررْت على أناسٍ هائمين وغائبين عن العقول، فقل سلامًا وانصرِفْ، ماذا بأيدي العاشقين إذا الجبالُ من المفاتن قد أُصِيبَت بارتباك.

.. تداول العامة شِعْرَ الطرفِ الثالثِ مِن الحكايةِ وبدأ الناس في التلاسُنِ على شرفِ ريسال من خلال شظايا يطلقُها الحاقدون في هشيم المجتمع المحبِّ للنميمةِ والفضائحِ ومتابعة مواسم التفاحِ يومًا بيومٍ، وجُنَّ جنون حمزة وبدا على تصرفاتِه الغيرة والغضب فانتفضَت ريسال توبِّخه:

- لا بدَّ أنك قد جُنِنْتَ إذا تفكَّرُ أن تغار، ويهمُّني ألا تقومَ بمثلِ أفعالِ الصِّغار، فلقد عقدْنا من الغرام إلى المَماتِ قرَانَنا، لو عاريين فلن أُمَسَّ ولو بقينا بجُحْرِ غار.

.. ثم توجَّهت إلى مالك وقالت له:

- لقد فضحْتني بما ليس فيَّ وأستحقُّ السَّترَ وسأسترك وتستحقُّ الفضيحة بما هو فيك.

.. بكى مالك وكأنه لم يقصد ما تداوله الناسُ من أشعار وغزل، فقالت له وهي تمسح دمعَه:

- ما كنتُ أرغبُ يا صديقي أن تُصابَ بأيِّ قَهْرْ، لكن فرعًا دون جِذْرٍ لن يكونَ لديه زهْر، والصدْمُ أحلى من مسيرٍ نحو قبرٍ دون صدم، لا تَسْقِ أنثى بقطرتين وفي الغرامِ لديها نَهر.

.. وبالمرصاد كان القتَلَةُ جاهزين لتنفيذِ ما يعتقدون أنه جهاد!

***

فتساءلت ريسال في ذهول:

- كيف تزجُّ بحفنة من الملاحدة في مسجدٍ، ثم ترفع سيفك مقيمًا الصلاةَن يغادر رسٍ في السياسةِتي تشغلك ليكونوا قريبين من الله في السجود؟!

.. فأجابها مجادلًا:

- لقد رُفعت السيوف في وجه الكافرين ذات يوم في حياة النبي.

.. فعادت ترد عليه بتعجُّبٍ:

-لم يرفع النبي سيفًا على الملوك إلا ليجبرهم على إعطاء شعوبهم والقبائل مساحات من الحرية للاختيار دون سلطان.

-لقد فتح الله علينا ونزور كعبته كل عام ولولا ال..

..فقاطعته ريسال غاضبة:

- لا يختلف ذلك الذي شدَّ الرِّحالَ إلى المَلهى الحرام، عن ذلك الذي شد إلى البيت الحرامِ رحالَه إذا اشتركا في ترْكِ مريضٍ لا يملك أن يشتري دواءً، غير أن الذي أتلفت الخمر والنساء دماغَه قد يعود ويسمع الوجعَ ويشتري دواءً، إنما سيعود الذي تعلَّق قلبُه بالكعبة إلى جبل عرفات في العام القادم ليدعو الله أن يرحم الموتى!

-غريبة الأفكار ولا حول ولا قوة إلا بالله! اصمتوا يا مشايخ الجنوب ولا تجادلوها.

.. فعاودت ريسال الهجوم:

- لا يمكنك أن تخفي عورة جهلك ولو ارتديت نصف ملابس المدينة.

.. فقال أحدهم معلِّقًا على صوتها الرقيق:

-تاللهِ إن صوتك لعورة.

- صوت المرأة ليس عورة، وإنما العورة هي تلك الأذن المتصلة بأعضائك التناسلية.

.. ثم اندفعَتْ في وجوههم:

-كاذبون منافقون مزوِّرون زناة سُرَّاق قتَلَة سَفَلَة لئام جبناء، أما القبح والوقاحة والندالة والخِسَّة والخرافات والشهوات والشتات والذل والحقد والحسد والنميمة والاحتيال والمكر والخبث فحدِّث ولا حرج، يقتلون بعضهم أمام ضحكات العالم عليهم، هل ما أتحدَّث عنه لغزٌ أم أنكم تعلمون؟

ثمَّة من أنفق عليكم لتكونوا في هذا الموقع وأنتم لا تعلمون، لم يُبقِ جبابرة الأرض عليكم إلا لأنكم تشبهون النمل الذي يحفر تحت جبل الإسلام لينهدم بأصحابه، أتحسبون أن كلاب الأرض كانوا سيتركون الإسلام يكبر لولا أنهم يدسُّون جماجمكم ببارود الأفكار لتتحول المنطقةِ العربية بكم إلى انفجارٍ كبيرٍ، ومَن لا ينفجر اليوم سينفجر غدًا حين سيدوس على طرفه أحد باعتباركم حقل ألغام.

ثقوا بي نحن كقطع الشطرنج في أيديهم، هناك قوى كبرى تحرِّككم وأنتم لا تشعرون، الفقر خطة أنفقوا عليها أموالًا طائلةً لكي ينتشر، والجهل خطة، والفكر الذي في رؤوسكم الآن خطة، وطائفيتنا خطة..!

.. ثم حدَّقت بعنف في عيون شاب كان بينهم وصرخت:

يأتون لك بالقماش الأبيض في محاولة منهم أن تخلع ما ترتديه من الألوان بزعم أن من بينهم الأسوَد، لكنهم جهلوا أنك ما تزال حيًّا ولست في حاجة إلى كفن، وكثير من الذين ماتوا بالسُّم كانوا يحسبونه عسلًا خالصًا.

.. ساد الصمت فعادت تقول:

- أن تفتح على نفسك النار خير لك من أن تفتح حوارًا مع أحد في هذا الزمن الغريبة جماجمه.

.. فصرخ أحدهم مستعرضًا حنجرتَه؛ فارتفع فوقه صوت ريسال:

- لا حاجة لنا بسماع زئيرك إن كنت أسدًا، فقط تصرَّفْ كما تتصرف الأسود.

.. عاد ذلك الذي صرخ يصيح:

-قال تعالى: {ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم}.

-وذلك الذي قضى به الله ورسوله غير الذي تقضي به أنت أيها الأحمق؛ الخطيئة في العالم العربي ليست إيمانهم بالطاعة، وإنما اعتقادهم بأن مجرد التفكير كفر.

إننا إذا أردنا الحليب لا نقطع بالساطور جزءًا من جسم البقرة وإنما نقوم بحِلابتها، كذلك يمكن أن يتحول بعض السطحيين إلى دعاة مجرمين؛ يأخذون الآية ويقذفون بها في منتصف وجه البسطاء فتبدو الآيات للناس كتلًا من الصخر تُرجَمُ بها وجوهُهم.

هل تعلمون لماذا أنتم كتلة واحدة؟ يقع في بلادنا الناس على أشكالهم لأنه ليست لديهم القدرة على قبول المختلف عنهم، ليس بينكم شخص واحد مختلف عنكم!

.. بدأ بعضهم في التحرُّك ثائرين فارتفعت الأقواس بالتصويب، واستل الحراس سيوفهم فعادوا للجلوس مرغمين، ثم ابتسمَت ريسال بهدوءٍ قائلة لأحدهم وقد عاد للثورة:
- أن تقف ساكنًا هذا لا يعني أنك لم تفعل شيئًا بل إن ذلك السكون يكلِّف أكثر ممَّا تحتاجه إن تحرَّكْتَ، ألا ترى الذين إذا تحركوا ذات غضبٍ أضعف من أن يكونوا على قيد السكون.

.. فعاد ذلك الثائر يسبُّها ويتهمها بالفُجر والعهر؛ فاقتربَت من وجهه قائلة:

- ذلك الذي ناديت عليه ثم أهانك ومضى لا تقف مصدومًا وتتركه يختفي، وإنما عليك أن تلحق به كي تبصق في منتصف وجهه بقوةٍ، ليس انتقامًا وإنما تخلُّصًا من ذلك اللعابِ الذي كان في فمك حين كنتَ تدعوه.

.. ثم بصقَتْ في وجهه وعادت للحديث إليه:

- أمثالك من الذكور لا يجب أن يخرج من البيت في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل إلا بعد أن يتحقَّقَ من فواصل البرقعِ وثقوبِ المشربيةِ قبلَ أن ينزل أنه لا توجد في الشارع نساء، ذلك أن الرجل يوزن بعقلِه وقدرته على الحوار مع امرأة بحضارة ورجولة.

.. ولمَّا حانت اللحظة المناسبة لحقْن أوردتهم بما تريد راحت تخطب في كلمات معجونة بالدموع:

بات الذين يقتربون إلى الله في كل مكان على هذه الأرض يعيشون في النور بينما بات الذين يقتربون إلى الله في العالم العربي يقتلون أنفسهم ويقتلون الأبرياء، لا تلوموا الشباب الذين كلما حدَّثناهم في الدين أعرضوا ولكن لوموا صدوركم القبيحة.

الخير كالملائكة لا يأتي لمجرد أنه تم إجلاء الشر، وإنما بعد تمشيط المكان وإبلاغه أنه آمن تمامًا؛ ذلك أنه لا يحب أن تجمعه الأماكن بالمتشائمين وكارهي الحياة وأعداء الإنسانية تحت وَهْمِ أنهم يدعون إلى الله.

ما خُلِقَ العقلُ إلا لتستعدَّ في أي صدمةٍ لاستيعاب أن كل ما كنت تحسب أنك تحسن صنعه طوال عمرك كان ضلالًا، وأنك يجب أن تولد من جديدٍ، وتظلُّ تعيش بريئًا تعبد الله على فطرتك قبل أن يلوِّنك الذين حرَّفوا الأديان، كن كمياه الأنهار بحيث لا يذوِّب أحدُهم فيك السُّكَّر؛ فتصيب إنسانًا صحيحًا بمرض السُّكَّر لتناوله جرعات زائدة مما دعوته إليه لمجرد أنه أراد أن يقترب إلى الله، لماذا أطالبك بتكبيرة الاحترام قبل تكبيرة الإحرام؟ لماذا يجب أن تنفق على الإنسانية من حولك قبل تنفق آلاف العملات على الحج؟ ذلك أنه لن يقبل الله عبادة قبل أن تسدد حقوق العباد، كيف يقول لك الله: {إنما المؤمنون إخوة}، ثم تترك أخاك هذا يحترق من الشمس بلا سقف أو من الجوع بلا طعام، بينما أنت تنزل في فندق قريبًا من الكعبة ياللهول!! تالله لولا أني أعلم أن الإسلام أعظم دينٍ على هذه الأرض لشعرْتُ بالعار أنني من المسلمين.

.. ولمَّا هَمَّ أحدُهم بالحديث متأثرًا بما قالت، أحبَّت أن تقضي على آخر معاقل الصدأ الذي خيَّم على جماجمهم من عقود وهي تقول: إخوة» ثم تترك أخوك هذا يحترق من الشمس بل

ليست المصيبة في أنه قُتل بك أو أنك ناولتُه السم، المصيبة في أنك ما تزال تعتقد أن تناول العسل للناس

.. بعد أن تيقَّنت ريسال بأنه قد أُصيب ببعض الخجل، دعت السياف لرفع السيف في وجه ذلك الثائر، ثم أمرت بإحضار ورقة وقلم وطلبت منه كتابة سبعين عيبًا فيه خلال عشر دقائق وإلا ستأمر بقطع رقبته؛ فكتب بعد أن تأكد من جنونها، ثم تناولت الورقة وقالت ساخرةً بعد أن وجدتهم أقل من سبعين:

- قم بقطع العلاقات الثنائية بينك وبينك، ولا تعد إليك حتى تكتب في ورقة بيضاء سبعين عيبًا من عيوبك بالحِبرِ الأسود، ثم اندهِش ثم ابتسم ثم لا تنشغل بعيوب الناس مرة أخرى.

.. يبدو أن اللعبة قد أعجبتها فأمرت بأن يناول الحراس كل واحد منهم ورقة وقلمًا أسود، لكنها أثناء ضجرهم وهم يتناولون الأقلام كانت تعلم أن كل واحد منهم كان يفكر حقيقة في عيوبه، وفي أنه مجرد بشر وهنا استغلت الفرصة وانطلقت تقول لهم:

- أعتذر عمَّا يحدث أيها السادة، لكن صدقوني إن الأمر قد انتهى، وهذا النقاش الذي دار بيننا ليس إلا حبًّا لكم، وأنتم حين كانت لكم القوة قتلتم الناس لكن نناقشكم اليوم حين آلت لنا القوة، ألا تشعرون بالخجل، كل هذا سنتجاوز عنه لكي نولد جميعًا من جديد.

.. فقال أحدهم وقد خارت قواه:

- نحن نجازف..

.. فقاطعته ريسال بعقلٍ:

- على افتراض أن ما ستفعله مجازفة، ماذا سيحدث للموتى إن فشلت محاولاتهم في العودة إلى الحياة؟

اجعلوا الناس يحبونكم يا شيوخ الدين، كن موجودًا بحيث يُحدِثُ غيابُك فراغًا مدويًّا وحوادث حنين مفزعة في القلوب.

.. سكتت قليلًا وعادت للدموع:

لقد رأيت طفلًا مسيحيًّا يعانق طفلًا مسلمًا ويقول له: تعالَ في عميق حضني طويلًا جدًّا قبل أن نكبر ويقولون لك في القرآن إني كافر، ويقال لي إنك في الإنجيل عدوِّي ونتقاتَل وتُمحى براءتنا يا صاحبي.

.. واندفع آخر وقد بدا عليه الاقتناع وهو ينظر لأصحابه:

- اركبوا سفينة المستغفرين قبل أن يغرقنا طوفان المعاصي.

اصرخوا بكل ما أوتيتم من حناجر وابكوا بكل ما تملكون من الدموع ولا تفارقوا الأماكن المظلمة قبل أن تبصقوا عليها كل الكلمات المعقَّدة، وتتقيَّئوا فيها كل الذنوب المجرمة، وتحرقوا جميع كراكيب المشاعر القديمة، ثم اغتسلوا على المنطقة الحدودية الفاصلة بين الماضي والحياة لتولدوا من جديدٍ، وترقصوا بكل ما حباكم الله من خصْر.

..وقال أحدهم:

- نعلمُ أن الكثيرين منَّا بتديُّنِهم الغريبِ شوَّهوا صورةَ المسلمين أمام عيونِ العالمِ، فأصبح غير المسلمِ يُفْزَعُ إذا سمع من خلفِه (الله أكبر)، لا ننكرُ أنه يومًا ما قد جرفتْنا تياراتُ الغضبِ على جبروتِ الملوكِ، فاتَّخذْنا من الدين غطاءً شرعيًّا للقتالِ لكنْ ثقي تمامًا أنَّه لولا الظلمُ ما عمَّ الظلامُ الذي بات مرتعًا صحيًّا للأفكارِ الغريبةِ.

.. قالت ريسال بعينين تلمعان بالحزن:

- لم يعد الطفل الذي تلقيه أمه في الهواء كي تلقفَه يضحك، وكيف لا يصرخ وقد أمست احتمالات سقوطه متوقَّعة في زمن انعدمت فيه إنسانيَّتنا.

.. وجاءت اللحظة الحاسمة فنطقت بالضربة القاضية:

-لا تقفوا أمام شماعة الأفكار متحيِّرين بأي رداءٍ ترتدون، وإنما تخلَّصوا من اكتظاظ الدولاب بهذا الكم من زحام التوجُّهات وتوجَّهوا مباشرة نحو دولاب الإنسانية ستجدوا

فيها رداءً واحدًا مكتوب عليه «كيف أساعد الناس اليوم؟».

.. رقّ قلبُ البعض وتقدَّم أحدُهم في عقلٍ:

- قدِّمي لنا دليلًا واحدًا على شيءٍ واح..

.. ابتسمَتْ ريسال وقاطعتْه في صرامةٍ:

- اتفقنا، ولكن قبل أن نمضي من هنا تحدُّوا أنفسكم في الذكاء واعتبروا أن ما سنفعله مسابقة وقل لنفسك: «أنا لست في السباقِ لأحطِّم أرقام الذين سبقوني، وإنما لأحقق رقمًا لا يمكن لأحد أن يقترب من بعدي منه».

.. نظروا خلفهَم فوجدوا وراءَ كلِّ واحدٍ منهم رامٍ بقوسِه يصوِّبُ سهمَه باتِّجاه منتصف دماغِه بالضبط.

.. انعقدت حواجبُهم وأحسوا أنهم كمن سُكِبَ على رؤسهم الماءَ المغلي فجأةً وأكملت ريسال:

- المذبحة هي أن أشير بأحدِ أصابعي وينطلقُ السهمُ باتِّجاه من أراه يفسد فيها ويسفك الدماء ويسبح بحمدِ فِكْرِهِ ويقدِّسُ له.

.. نظر كل واحدٍ منهم إلى الآخر ثم أمرَتْ ريسال الرماةَ بالانصراف وقالت:

- في يدي قبضةُ الحكمِ وأستطيعُ أن أقتلَ الذين لا يؤمنون بفكرتي لكني لن أفعلَ ما كنتم تفعلون، رأينا النورَ ونريدُ لكم أن تروه معنا.

.. تفوَّهَ أحدهم بجسارةٍ:

- صدِّقيني يا ابنتي نحن لا نخاف أحدًا إلا خالقَنا، وهذا ليس بجديدٍ إنما الجديدُ الذي لا يعلمُه الناسُ عنَّا أننا مستعدون للنقاش والحوار ونريد أن نفهم، ولكن إذا تبين في الأمر شيءٌ يمسُّ دينَنا لن نسكتَ حتى تقومَ بيننا الدماءُ.

.. واندفع آخر:

- نعلمُ أن الكثيرين بتديُّنِهم الغريبِ شوَّهوا صورةَ المسلمين أمام عيونِ العالمِ، فأصبح غير المسلمِ يُفْزَعُ إذا سمع من خلفِه (الله أكبر)، لا ننكرُ أنه يومًا ما قد جرفتْنا تياراتُ الغضبِ على جبروتِ الملوكِ، فاتَّخذْنا من الدين غطاءً شرعيًّا للقتالِ، لكنْ ثقي تمامًا أنَّه لولا الظلمُ ما عمَّ الظلامُ الذي بات مرتعًا صحيًّا للأفكارِ الغريبةِ.

.. وتقدَّم أحدُهم في عقلٍ:

- قدِّمي لنا دليلًا واحدًا على شيءٍ واح..

.. ابتسمَتْ ريسال وقاطعتْه في صرامةٍ:

- اتفقنا.

.. وحسب الترتيبات كانت ريسال قد طلبَتْ من حمزةَ أن يأتيها بالرجلِ الذى اشترى القصرَ في الساحةِ التي حوكمَتْ فيها ريسال من قبل، فأتوا به ثم ذهبَت مع الحاكمِ وسطَ تساؤلات الناس ذهول الناس بعد أن تسرب خبر زواج الحاكم منها، وأمست المدينةُ على صفيحٍ ساخنٍ، وتعمَّدَتْ ريسال أن يقف المجاهدون الكبارُ معًا في جانبٍ خاصٍّ بالساحةِ، ثم قالت:

- الكفار في الشمال مدوا لكم النهر، وأنتم أيها المؤمنون في الجنوبِ ما تزالون تمدون لهم السيوف، الكفار في الشمال سيرسلون هنا في الصباح عشرة آلاف فتاة تقول لا إله إلا الله؛ للعمل في حصد ثمار الأشجار وتقليمها وري الوردِ وقطفِه للتصدير وأنتم المؤمنون

ستقولون حرام، الكفار في الشمال يجنحون للسلم ويمدون لكم أيديهم للتصافح والسلام والتصالح، وأنتم المؤمنون هنا لا تجنحون لها، لا حاجةَ بعدَ النورِ لبقاءِ أفكارِ الظلامِ، قيل لي فيما قيل إنَّه لا يمكنك أن تقنعَ الذبابةَ بالفرقِ بين الوردِ والقمامةِ، ولكنكم أكرم خلقِ اللهِ يا بني آدم ولستم ذبابًا كي يختلطَ عليكم الأمرُ بين العطرِ والنَّتَن، ولأننا نتعامل مع النفسِ الإنسانيةِ فإنه لا يمكنني إحلالُ العلمِ محلِ الجهلِ فجأةً، فالأمرُ سيطولُ ونحن صابرون معكم وأمامنا غير الصبرِ وأطلبُ منكم الصبرَ وليس أمامكم غيره، لا أريد أن أتقيَّأَ ثانيةً بأشعارٍ عن الوطنِ، فالوطن قد انتفخَتْ بطنُه حتى كره الشعْرَ والشعراءَ، ومن أراد أن يقول وطني فليبنِ مدرسةً أو يرفع سقفًا أو يمهِّدَ أرضًا أو يفكِّرَ في شيءٍ.

إذا كنتم غنمًا فستحكمكم العصا، وإذا كنتم بشرًا فسيحكمكم واحدٌ منكم، أما الغنمُ فينتظرون التغيير من الراعي ليذهبوا خلفَه، وأما البشرُ فيغيِّر كلُّ واحدٍ منهم ما في نفسِه فتتغيَّر الدنيا، وقبل أن تسألوا عن عُمرَ، قد جاء من بين أصحابِ الرسولِ عمرُ ليحكمَهم، وقبلَ أن تسألوا مَن يحكمُنا اسألوا أنفسَكم من أنتم.

.. فارتفع صوتٌ بين الحشودِ يشقُّ الأسماعَ:

- قال أحدُ المفكرين: لو أمطرت السماءُ حرية سيضعُ العبيد مظلات.

.. فقالت ريسال:

- شعارات من ماركة «استعمال خارج» صدروا لنا العسلَ الذي قتلَهم، واحتفظوا بالسمِّ الذي يسمحُ بالبقاءِ على قيدِ الحياةِ، الصِّبيةُ الذين كانوا يلعبون في طرقاتنا مَن مات منهم تحت الرُّكامِ نجا مِن وقوفِه لاجئًا على أبوابِ البيوتِ يشحذ وطنًا، إن كنتم تريدون عُمَرَ جديدًا وفاروقًا فكونوا أنتم كأصحاب رسول الله أوَّلًا!

لو لم يصل تأثيرُ عطرِ المؤمنِ إلى الثلاثةِ أو الأربعةِ أمتارٍ المحيطين به، فعليه أن يراجعَ هذا الشيءَ الذي يؤمنُ به.

فارتفع صوتٌ من بين الحشودِ:

- لا تصالح.

.. فقالت ريسال:

- كنت أظن أن الشعراء يبيعون الكلامَ ليدغدغوا مشاعركم مقابل بضعةَ ملايين، لكن الشعراء صاروا يا سادة مقابل بضعة دراهم يبيعون الوطن، عدوكم ذهب إلى رؤوسِ من تحبونهم من الشيعة، وزرعوا في جماجمهم البارودَ ثم فعل نفسَ الشيءِ مع السَّنَّةِ ونفس الشيءِ مع كل الطوائفِ، فأصبح مع كل حرفٍ يُكتبُ أناسٌ تقتَلُ وطوائف تكره طوائف، وطوائف تقتل طوائف، فأصبح من يرى المنطقةَ العربيةَ من فوق سطح القمر يحسبُها حلبةَ مصارعة حتى الموت، لكنها ليست مصارعة للبشر وإنما للبهائم، وكأنكم لن تسمعوا المثل القائلَ: «لا تُشغِلْ الأغبياءَ بقتالٍ بينكم؛ الأغبياء ينشغلون بقتلِ بعضهم إن لم يجدوا مَن ينشغلون بقتلِه».

.. واستدارت ريسال باتجاه الصوت الذي يقول: «لا تصالح» وأشارت إليه، فاندفع إليه الحراسُ ليقتادوه إليها لكنه اختفى، واختلف على الحراسِ تحديدُه فقالت ريسال:

- هذا الذي يثير النقاش ليحوِّلَه إلى دماء قد اختفى، لن أقول لكم إن الذئب تأكلُ من الغنمِ القاصيةِ لتتحدوا، وإنما أقولُ إننا لن نتركَ التفاحةَ المتعفِّنةَ بيننا لتفسدَ سلَّةَ التفَّاحِ.

.. ثم أشارت نحو المجاهدين وقالت:

- بينما هؤلاء هم المجاهدون زملاء حمزة يقفون بمنتهى العقلِ ومستعدون للنقاش والحوارِ، ولولا أني بالداخل حذَّرتهم لكانوا وكنا في بحر من الدماء معهم؛ فهنيئًا لنا بعقولِهم يا سادة.

لا تسمحوا لعدوِّكم أن يعبِّئ جماجمكم ببارود أفكارِهم؛ لتنفجروا وقت يشاءُ وأين يشاءُ، أنت تكره من يقف بجانبك ومن بجانبك يكرهك، وأنتما الاثنان تكرهان من بجانبكما، وأنتم الثلاثةُ تكرهون الرابع الذي هناك وجعلونا حيوانات مسعورة بعدَ أن غيروا اسم الخريطة العربية إلى الغابة العربية، وبعد أن كان اسمها الوطن العربي باتت في هذا الظلام اسمها الغربة العربية.

.. ثم استدعت الرجل الذي اشترى قصرَ الحاكم وقالت له:

- من أين لك بالمال الذي اشتريت به القصر وأنت كنت رجلًا عاديًّا منذ عشرين عامًا، ولم تخرجْ من المدينة؟ كيف جمعتَ كل هذه الثروة التي اشترت قصر حاكمٍ بأكملِه، وبما فيه من تحفٍ وذهبٍ وغيره؟

- من مالي ومن تعبي وعرقي وبالحلال، وإذا كان لديك دليلٌ يتنافى مع هذا خبريني به.

- بل أنت مَن سيخبرني وبالدليل يا سيدي.

.. ثم أمرت ريسال كبير الحراس بتقييده وكان في جيبِها مقصُّ أبيها فأخرجتْه وأمسكت بأنامله وقالت له:

- مع كل عدد سأعدُّه سأقطع إصبعًا، ولن أعود عن القطع لو عددتُ قبل حتى ولو اعترفْتَ، وإذا انتهيتُ من الأصابعِ العشرةِ سأنتقلُ إلى أصابعِ القدمين، وهكذا حتى أطرافك الأربعة والآن سأبدأ العدَّ بعدَ عشر دقات قلبٍ.

.. أمسكَتْ بيد الرجلِ فوجدت أصابعَه تسعةً فقط فضحكَتْ وقالت:

- يا أيها العجوز، ما تزال تخرِّبُ في بلادنا، وهذه هي البنت التي قطع لك أبوها سيد الآسرين إصبعًا من قبل.

.. تذكر العجوزُ ما حدث من قبلِ مع أبيها في موقفٍ مشابهٍ، وحاول العجوزُ المكبَّلُ أن يدغدغ قلوب العامةِ، وبالفعل تعاطف معه البعضُ والبعضُ الآخر شعر بالإثارةِ وتابع اللعبةَ ولكنها نطقَتْ.

- واحد.

.. ومدَّت المقصَّ في قوةٍ وقطعت أحد أصابع كفِّه فصرخ الرجلُ وبدأت الأصوات تعلو، ثم نظرت في عينيه وقالت سأبدأ في العد بعد عشر دقات قلبٍ ثم قالت:

- اثن...

- سأعترف سأعترف.

- أخْبِرْني من أين تقاضيت المالَ ولك مني الأمانُ؛ لأنك إن لم تخبرْني بعد خمس دقات قلب سأعد ثلاثة لأقطع الإصبعين المتأخرين بعد مقاطعتك لي في المرة السابقةِ قبل أن أعدَّ «اثنان».

- سأعترف ولي الأمانُ؟

- نعم.

- أنا تابعٌ لمنظمةٍ تبلغني بتكليفاتٍ وكتبٍ في الدين لأبيعها في الجنوبِ كل شهرٍ.

- عمَّ تتحدث هذه الكتبُ؟

- عن كفر مجرمي الشمالِ -لعنةُ اللهِ عليهم- وما انغمسوا فيه من مجونٍ.

.. انظروا لم يكن الأمر عفويًّا، وعن كفرِ مجرمي الجنوبِ هناك كتبٌ أخرى في الشمالِ يبيعها غيرُه؛ ليس على ظهرِ هذه البلادِ يا سادةُ شيءٌ يحدثُ عفويًّا، لا يموتُ العالِمُ فينا مِن

فوقِ جبلٍ عفويًّا، لا تنفجرُ أنبوبةٌ في مطبخِ عالِمٍ عفويًّا، لا سُمَّ يسري في جسد الأمةِ حين يسافر أعظمُ علمائها للخارج ويتركوا أمَّتَنا يتيمةً عفويًّا، الشيءُ العفويُّ الوحيدُ هو عودةُ علمائنا إلى بلادِنا ليُدْفَنوا فيها حسبَ وصيتِهم.

يا أيها الناسُ: اللهُ ليس هناك عندَ الكعبةِ فقط، ولو كان كذلك لَما كان هنا، اللهُ في كلِّ مكانٍ فيه يدٌ تعملُ ويدٌ تدعوه.

ويا حاكمَ الجنوبِ: حين تمسي أسعارُ المساكنِ باهظةً يبيتُ الانتحارُ وسيلةً أرخصَ للحصولِ على قصرٍ في الجنةِ.

يا أغنياءَ العالمِ: المالُ ليس تكريمًا من اللهِ إذا أعطاه لأحدٍ كما إنَّه لا يُهان الذين من المالِ يُحرَمون، إنما هو اختبارٌ للأغنياءِ ليُسألوا عنه مِن أين اكتُسِبَ وفيم أُنفِقَ.

يا أيها الحمقى: إن الحبَّ الذي تكفِّرون أصحابَه هو الحجابُ الروحيُّ الوحيدُ في هذا العالمِ عن الفواحشِ، كل هذه الملابس التي تغطون بها نساءكم ترفع من درجة حرارة الشبق وتُزيد لهيب الشوق!

أزمانُ العبوديةِ لم تنتهِ بعدُ يا سادة، الحضارةُ التي تجبرُ العرباتِ على التوقُّفِ هناك مِن أجلِ قِطَّةٍ على الطريقِ خشيةَ أن تُدهَس، بمجرَّدِ أن تعبرَ نفسُ السيارةِ حدودَ العربِ تبدأُ في دهسِ الإنسانيةِ.

يجعلوننا نكفِّر بعضنا بعضًا ليبيعوا لنا السلاح بمنهجيةٍ ونظامٍ، ويجعلوننا ببطون واسعة ليبيعوا لنا الطعام بالفلفلِ والليمون، فأصبح البغلُ فينا يتعشَى على كيس البطاطس المقرمشةِ وينام، باللهِ عليكم كيف سيحملُ سلاحَ العملِ في الصباحِ؟ ربَّما لن يَكتبَ غيرَ شعرٍ للوطنِ! يجعلوننا محرومين من الحلالِ ليصدِّروا لنا الحرامَ على هيئةِ الجنس الدرامي، فتنام الفتاة في حضن رجلٍ عاريةً ويقولون لك جزءٌ من العملِ الدرامي للحوار الروائي العام.

هاتِ كفنَك وتعالَ يا حاكم الجنوب، كي نذهبَ إلى ملك الشمالِ لنعتذر له.

.. تقدم حمزة وقال:

- مَن يأتي معي اليوم؟

.. فتقدم كبير الحراس وبدأ عددٌ غير قليل بالانضمامِ، والآخرون ما لبث أن انضموا جميعًا بعد أن خافوا من ظهورِهم مختلفين، وذهب رجال الجنوب يتقدمهم الحاكم وريسال إلى الحدود مع الشمال، فوجد الحاكمُ الرجلَ الملثَّمَ في انتظارِه، ثم خلع الملثَّمَ قناعَه فتفاجأ الحاكمُ أنه الملك، وخجل الحاكم من نفسِه عندما قال له الملك:

- أنا ذلك الذي كتب عقدَ قرانِك على عروسك يا حمزة.

.. فبكى حمزة ثم قال الملك في أدبٍ:

- ما كان لعربيٍّ أن يصافح قلب أخيه بكفنٍ، عنكم أكفانكم وهذا سيفي لكم، وانظروا ماذا تريدون.

.. حدث هرجٌ ومرجٌ في صفوف جنود الجنوبِ فرفعت ريسال صوتَها الناعمَ فصار جهوريًّا ونادت:

- أنا ابنة سيد الآسرين وأعرف الموت كما لم يعرفه أحدٌ على وجه هذه الأرضِ اللعينة، فاسمعوني فإني غضبْتُ الآن واتركوا من يتحرك ليتحرك، وكلٌّ يصمت لنرى من أين تأتي الخيانةُ.

واقتحمت الصفوف فناداها حمزة فقالت له:

- كيف ترجو وجودَ من يتمنى زوالَك.

.. أخشى عليك ما..

- لا تكنْ نرجسيًّا إذا لزمَ الأمرُ إنَّما في كلِّ الأوقاتِ كن نرجسيًّا، هؤلاءِ الحمقى يعتقدون أن حُسْنَ أخلاقنا ركوعٌ لهم.

.. وظلَّتْ تشقُّ الصفوفَ حتى لمحت الثغرة ومن فيها من المتآمرين، فأمرت الجنود أن يأخذوهم أسرى وهي تقول لهم:

- ترون ما وَقْعُ سؤالِ نيوتن للتفاحةِ «ما الذي أسقطَكِ نحو الأرضِ ولم تسقطي نحو الأعلى» لو كان سمعَه العربُ، أعتقدُ أنه لن يفوزَ بأقلِّ من رتبةِ مخبول.

.. شقَّت ريسال الجيوشَ تنادي وتجهرُ بأعلى ما في أعماقِها من حزن:

- الصورةُ التي التُقِطَتْ للمرأةِ الذي أخذ منها الجنديُّ بضاعتَها حين أُصدرَتْ إليه من رؤسائه الأوامرُ ليقومَ بعمليةِ إزالةٍ لمن يسدُّ على الناسِ الطريقَ ببضاعتِه، ماذا لو أعطى الفنانُ المرأةَ آلةَ التصويرِ لتبيعَها بدلًا مِن أن يلتقطَ لها صورةً، ستبيعها وستشتري بها محلًّا لتبيعَ فيه بضاعتَها، لو كنتُم تعتقدون أن هذا ما أريدُ أن أقولَه فأنتم العربُ، لكنني أريد أن أسألَكم، كيف حضرَ مصورُ الجريدةِ في هذه اللحظةِ بالذَّاتِ ليلتقطَ الصورةَ من هذه الزاويةِ وبهذه الدقَّة، أخشى أن تكونَ العجوزُ صحفيةً من الجريدةِ قامت بدورِ السيدةِ العجوزِ لتلتقطَ الجريدةَ صورًا حصريَّةً، هذا المشهدُ كلُّه مؤلَّفٌ بمن فيهم الممثلُ الذي قام بدورِ جنديٍّ، وخالَ على العربِ المشهدُ وانفعلوا غاضبين، وعلى فرضِ صحَّةِ الواقعةِ على نوايا الحاقدين مَن مِن المسلمين مستعدٌ قبلَ أن يحدثَ المشهدَ أن يفتِّشَ عن الذين يحتاجون إلى عملٍ ويمدُّهم بأموالٍ ودراساتٍ جدوى للعملِ وكسبِ الحلالِ، الكلُّ ينفخُ بطنَه وينامُ عليها، ثم يستيقظ ليكتب مقالةً عن مساعدة الناس في الصباحِ ليعود إلى النومِ بعد أن يكتب مقالة عن الوطنية.

من منكم يفعلُ شيئًا غير الأكل والشرب ودخولِ الخلاءِ لننافسَ به الدولَ ونصدِّرَه لهم؟ أنا أجيبُكم عن السؤالِ نحن المركزُ الأوَّلُ إن شاء الله في الغباءِ وسوء النوايا وسقوط الناجحين والغضب والحمق وكثيرٍ لو ترصدون..

نحن وظيفتُنا الغضبُ، يرسمون للرسولِ صورةً فلا نقيمُ سنَّتَه وإنما نحرقُ البلدَ، تغضبُك زوجتُك فتطلِّقَها بدلًا من أن تحتويها كاحتواء الأبِ لطفلتِه، يوبِّخُك مديرُك في العملِ فتغضبَ وتقولُ أنَّك كنت تحفظُ القرآنَ وتأخرتَ، لا يا سيدي قراءتُك غيرُ مقبولةٍ.

هذا العالم يا عربُ مجموعةٌ من القرى الغبيةِ وسكَّانُها الأغبياءُ صيادون، وهناك مدينةٌ واحدةٌ وسطَ هذه القرى تسمى المدينةُ القذرةُ يعيشُ فيها النبلاءُ فقط، ويضعون على موائدِهم السمكَ الذي اصطاده صيادو القرى الغبيةِ بعد أن أخذوه ضريبًة، ولأنَّ النبلاءَ يخشون أن يحدثَ اتحادٌ للقرى فيكون هذا خطرٌ عليهم؛ في كلِّ عامٍ يقسمون كلَّ قريةٍ قسمين شمالي وجنوبي، ولمَّا انتهى تقسيمُ كلِّ قريةٍ إلى نصفين بدأ النبلاءُ في المدينةِ القذرةِ يخططون تخطيطًا جديدًا يعتمدُ على تقسيمِ كل نصفٍ منقسمٍ إلى قسمين؛ الربعُ الشمالي والربعُ الجنوبيِّ، ثم يزرعون فيكم أكثر شخصٍ تحبُّونه ليرسي قواعدَ الجنةِ ويغلقُ أبوابًا سبعةً منها، ويتركُ واحدًا ليقف هو عليه بأفكارِه التي في جماجمِ أناسٌ منكم تحبُّونَهم، ربما أئمةٌ وربما زعماء وربَّما أبطالُ ثورات وربما شعراء، ومن يريد منكم الدخولَ إلى الفردوسِ يأتي أولًا بعنق أخٍ له في العروبةِ باسمِ العقيدةِ باسم الوطنِ باسم الشرفِ باسمِ...، وانظروا إلى العربِ الآنَ من فوق القمرِ ستجدونهم يصدرون الأسماك مجانًا إلى المدينةِ القذرةِ، بينما يظهر لك في الصورةِ كلُّ عربيٍّ وراءه عربيٌّ آخرُ يغرسُ في ظهرِه خنجرَ غدرٍ، وفي يدِ المغدورِ به أيضًا خنجرٌ يغرسُه في الذي أمامَه غدرًا أيضًا، أصبحنا أضحوكةَ الذين يحركوننا كقطعِ الشطرنجِ.

.. انظروا خطةَ العدوِّ الأكبرِ هذه: تسمعون رجلًا يسبُّ الصحابةَ، لو رآه حاكم الشيعةِ لقطع رقبتَه، وهو لن يظهرَ لأنه شخصيةٌ وهميةٌ، وربما يكون شخصيةً مضحوك عليها أو شخصيةً

قبضَتْ الثمنَ؛ فتغضبون وتقاتلون الشيعةَ فيقاتلونكم، وسبحان اللهُ يأتي العدوُّ الأكبرُ ليسعى بينكم بالصلحِ.

إن كنت تريد أن تخرج المدائن كلها والقرى التي مررنا عليها والتي لم نمر وفي أيديهم جميعًا حجارة لتقتل غريبًا فقط، قل إن رجلًا في الطرقات يدعو امرأة إلى الزنا وانظر ماذا يحدث؟

المفاجأة أن يكون هذا الرجل هو أنت وأن تكون هذه المرأة هي لا شيء وأنه يريد قتلك دون أن يلطِّخ يده بالدماء ثم ويختفي.

أتسمعون عن رعاة البقر؟ نحن البقر! العائلات العريقة يقتلون بعضهم ويسقط الرجل تلو الرجل باسم حمارٍ نزل حقل أحدهم في أصل شرارة المشكلة!

دمَّرنا أوطاننا بأيدينا وبيننا وبين عدوِّنا مترين، ولم نلمسه إلا بالسلام العادل والشامل!

انتهت الخطبة الرنانةُ وتصالحَ حاكمُ الجنوبِ مع الملكِ الذي دعاه للغداء في القصرِ، وهناك عيَّنَه الملكُ رئيسًا للوزراءِ.

.. لم يكنْ الأمرُ هينًا؛ ذلك الحاكمُ كان على علمٍ بأسرارِ مَن معه من المجاهدين المنشقِّين عليه؛ لذلك فإن محاصرتهم لم تكن مستحيلةً، بعضُهم آمنَ بالفكرةِ وبالحياةِ، وبعضُهم اتَّهمه بالخيانةِ، والبعضُ الآخرُ أُصيب بالاكتئابِ لكن واحدًا منهم قال:

- أقحمْنا أنفسَنا وأولادَنا معنا في فكرةٍ، والفكرةُ قد تكونُ صائبةً لكنها تحتملُ الخطأَ أيضًا، وقد كان من الخطأ اعتقادُنا من البدايةِ أن الفكرةَ لا تحتملُ الخطأ، دعونا نصحِّحُ مسارَنا من فكرةٍ إلى مبدأ لا خلاف عليه.

- وما المبدأ الذي لا خلاف عليه؟!

- أليس همُّنا أن ننشرَ ديننا لنجعلَ الدنيا أجمل.

- نعم.

- تعالوا نجعل الدنيا بديننا أجمل، وستأتي الناسُ على مشاهدِ الجمالِ وحدَهم، النحلُ لا يُدْعَى إلى الزهورِ، وإنما وحدَها الزهورُ تدركُ سرَّ الجاذبيةِ.

ما رأيُكم مثلًا لو نتحوَّلُ بجهادِنا إلى أن يشتري أحدُنا قطعةَ أرضٍ ويجعلُها بستانًا كبيرًا، وآخرُ يبني بجانبِها بيوتًا، وآخرُ يبني مدرسةً، وندعو المشردين والشحاذين والفقراءَ للسكنِ وللعلمِ وللنزهةِ في البستان، ونتبنَّى مشروع (وطن السعداء)، ما رأيكم في الدعوةِ إلى اللهِ بدونِ الخوضِ في السياسةِ، وبأسلوبٍ جديدٍ يدعو للجمالِ والسلامِ.

.. بين نظرات السخرية والغضبِ وبعضهم هَمَّ أن يقتلَه، وبالطبعِ كان هناك سيلٌ من السبِّ والتخوينِ لكنه عاد وقال:

- لا أخفي عليكم أني أشعرُ بالتقيُّؤ؛ كيف جعلكم العدوُّ تحملون أرواحَكم على أكفِّكم طالبين الموتَ بأيِّ ثمنٍ للذهابِ إلى الجنَّةِ، لكنه في الوقتِ نفسِه جعلكم لا تنتبهون إلى مساعدةِ الناسِ ونشرِ الجمالِ والفرحِ، التي هي الدعوةُ الوحيدةُ إلى اللهِ، التي تؤخذُ منها القلوبُ إلى الصلاةِ، وإلى قولِ لا إله إلا الله، أنتم تدعون إلى شيءٍ آخر غير الدين، ولكن لا تعلمون، كيف يعتنقُ الغرباءُ الدين والمتديِّنون بهذا القبحِ، ماذا لو قتلنا حمزة جميعًا؟ هل سينتهي الإسلام؟ بالطبعِ لا، هو قائمٌ بنا وقائمٌ بدونِ أحدٍ.

.. ولم تمرُّ بضعةُ دقائق حتى تم القبضُ عليهم جميعًا واختفوا لا يعلمُ أحدٌ أين ذهبوا.

.. وما هي إلا ساعات حتى انفضَّ ظلامُ الليل وطلع فجرُ أول اتصال بين الجنوبِ والشمالِ، وانطلقت البنات اللائي وعدتهن ريسال بالعمل الحلالِ في خريطة أشجار الجنوبِ، وهناك تعارفن على الشباب، وفي كل يوم تتم خطبة ويقع زواجٌ، واشتغل بعض الشباب في مصنع تدوير القمامة في الشمال، وآخرون استلموا أرضًا بعد أن وصل لها النهرُ وتصاهر الناس وانصهروا في مدينة واحدةٍ.

.. وما أن استتبَّ الأمرُ حتى أُشيع بين الناسِ أن ريسال ستخطبُ يوم الجمعة، وستصعد المنبر بدلًا عن الشيخِ في المسجدِ الكبيرِ، ولمَّا وصلت الشائعةُ إلى مسامع ريسال قالت لكبير الحراسِ الذي كان أمام بيتها:

- هم يريدون لنا أن ننفي الخبرَ ثم يقولون، ثم ننفيَ ولن أكونَ وزيرةً للنفي كما يبغون لكنني، سأستغلُّ كلَّ شائعةٍ وأجعلُهم كأنهم يخدمونني.

.. قال كبير الحراس:

- كيف؟!

- ستعرفُ يومَ الجمعةِ ما سأفعلُ بهم.

.. توقَّعَتْ ريسال أن يُمتلأُ المسجدُ عن آخره، فأحبَّتْ أن تستغلَّ التجمَّعَ وذهبت بعدَ انتهاءِ الخطبةِ، ووقفَتْ على بابِ المسجدِ وقالت للناسِ قبل خروجِهم:

- شكرًا للغبيِّ الذي أشاعَ أنني سأخطبُ الجمعةَ اليوم؛ لأنه جمَّعَ لي الناسَ، وما كنتُ لأجمعَهم مثلما فعل فشكرًا له، وعقب كلِّ صلاةٍ نصلِّيها سنترجم الصلاة عمليًّا، وإلا ما معنى الصلاةِ؟! سيكتبُ الحاكمُ اسمَ شخصٍ مريضٍ أو فقيرٍ أو يحتاج لعملٍ أو سقفٍ لأسرتِه؛ ليذهبَ إليه جميعُ المصلين قبل أن يعودوا إلى بيوتِهم، واليومَ سنذهب إلى بيتِ الرجل الذي أُصيب بالشللِ في أول الطريق هنا، ولم يزرْه أحدٌ من الذين يأتون للصلاةِ منذ عشر سنوات، وكأن ديننا أصبح في نظرنا لا ينتمي إلى دنيانا.

.. فرح الناسُ بالاقتراح وذهبت أمامهم وقرعوا باب بيت الرجلِ، فلم يفتح لهم ولمَّا فتحوه بالقوة وجدوه جثةً متعفنةً، فبكوا جميعًا على تقصيرهم وأقسموا ألا يتركوا أحدًا في المدينةِ مريضًا إلا زاروه.

.. وتهافت الناسُ على زيارة بعضِهم وعرفوا معنى الدينِ الصحيحِ في معاملاتِهم، وما هي إلا بضعة أيامٍ حتى نزل الدستورُ الجديدُ للمدينةِ يحكمُ المعاملاتِ، ويجرِّمُ حتى البصقةَ على الطريق وصخبَ الأصواتِ و..

وحاولَتْ ريسال في هذه الفترةِ أن تنشرَ ثقافةَ التفكيرِ، وأنه على المرءِ ألا ينطقَ بما لم يفكِّرْ، وأن الشِّعارَ الذي يهتفُ به شخصٌ في مكانٍ ما في ساعةٍ قد لا ينفعُ في الساعةِ التاليةِ مع نفسِ الشخصِ في نفسِ المكانِ؛ فما بالُنا وهؤلاءِ القَتَلَةَ صدَّروا لنا شعاراتٍ قديمةٍ في أماكنَ غير الأماكنِ، وما تزال تتوارثُ الهتافَ بها الأجيالُ العربيةُ جيلًا بعدَ جيلٍ!

.. واختفت ريسال من المشهدِ بضعة أيامٍ حتى جاء الكثيرون من العشاقِ في الشمالِ إلى الملك يطلبون ريسال في محاضرةٍ كما كان يفعلُ أبوها آسر، فاستأذنَ الملكُ زوجَها وذهبت ريسال في مساءٍ احتشدت فيه المدينةُ والمدنُ البعيدةُ.

.. قالت ريسال في بدايةِ الحديثِ بعدَ أن صارت لا تسمعُ إلا دقَّاتِ الأفئدةِ:

- الإنسانُ نفسُه الذي ذهب ليقتلَ نفسَه في سبيلِ عقيدتِه لو استأذنتَه يومًا ليساعدكَ في حقلِكَ ساعةً أو ليرفعَ معكَ في سبيلِ الوطنِ بعضَ القمامةِ، سيقول لك معذرةً إني أعاني مِن موضع حقنةٍ في القسمِ الأيسرِ من مؤخِّرتي، أرأيتُم هذا العربيَّ العجيبَ، عاشَ لا يعرفُ من الدين إلا عذابَ القبرِ والطريقُ الوحيدُ الذي يعرفُه للوصول إلى الجنةِ هو الموتُ منتحرًا أو شهيدًا.

.. فابتسم الناسُ وعلا الضحكُ، وقد كانوا يتوقَّعون حديثًا جادًّا، وأحبَّتْ أن تضغطَ أكثر فقالت:

- كيف يقبلُ الرجلُ أن يضحي بحياتِه راضيًا في سبيلِ الوطنِ كما يدَّعون، لكنه لا يتقبَّلُ فكرةَ مساعدةَ الوطنِ بربعِ ساعةٍ، لو تعطَّلَ ضميرُ الذي لم يغطِّ البالوعةَ لظلَّت تصطادُ

المارين إلى الموتِ فيها، ولن تجدَ بين الوطنيين المارين أحدًا يغطِّيها، المارون من المؤمنين معذورون؛ لأنهم مشغولون بالموتِ في سبيلِ اللهِ!

انتبهوا أيها الحمقى لتعرفوا كم تطوَّرَ القَتَلَةُ وأنتم ما تزالون تُقْتَلون بذلك القتلِ القديمِ، فبدلًا مِن أن يقتلَكَ ويصبحَ طرفًا في قضيةٍ على مسرحِ جريمةٍ ويُتَّهَمُ بانتهاكِ حقوقِ الإنسانِ، جعلكَ تقتلُ نفسَكَ بمنتهى اللذَّةِ بعدَ أن جعلك عبدًا في مشروعِ أفكارِه، فها نحن قد أصبح شعارُنا: «قتلُ أخيك طريقُك إلى الجنَّة». وتحت شعارهم «لماذا سنحاربُ الأغبياءَ إذا كان في استطاعتِنا أن نناولَ أحدَهم سكينًا».

.. ثم مرت ريسال بين الحشود على فتاةٍ يبدو أنها استسلمَت للمسات حبيبِها الذي يجلس بجانبِها، فقالت لها ريسال بعد أن وكزتْها لتحتشم قليلًا:

- لن تشعري بالمتعةِ إلا أن يتمَّ خطفُكِ واغتصابِ روحِك وهتكِ عرضِ أشيائكِ على يدِ رجلٍ تذوبين عشقًا له ... لكن ... كيف سيستمتع بوجبةِ إفطارِه معكِ إن كنتِ قد أتخمْتِ بطنَه في العشاءِ؟!

.. بينما هي تمرُّ على شاب وفتاة يبدو عليها التكبر، ومن الواضح أنها تعتز بجمالِها فقالت ريسال:

- بعد اقتتالٍ دامَ ليلًا بيننا ثم انهزمْت، لكنني رغم انهزامي قد أخذْتُ النصرَ فَيءْ، يا مَن تكابرُ في المظاهر تحت وَهْمِ المنتصر، مَن لم يجربْ كيفَ يُهْزَمُ لن يذوقَ جمالَ شيء.

.. ثم مرَّت على أنثى طازجة ولكنها تجلس صامتة ويبدو أنها تحبس خلف سكوتها خجلًا كبيرًا فقالت ريسال تداعبها:

- إن عملية وضع النقاب على وجه المشاعر وخنقها في إطار تحريم قنوات التنفس الحلال يجعل الأنثى في الخفاء ترتدي ملابسًا داخلية استعدادًا لأول ماء يطفئ الجحيم المدفون والشوقَ.

..شعرَ الناسُ بالإثارة وبأنَّ السهرةَ حاميةٌ، وناداها شابٌ من الجنوبِ يسألها كيف سيعيش إن هجرتْه حبيبتُه ويطلب منها أن تعلمه فن التخلِّي فقالت له:

- شَتَّتَ الأغبياءُ روحَكَ حين ضيَّعوا وقتَك في تعلمِ فنِّ التخلِّي على حسابِ الوقتِ المُعَدِّ لتعلُّم فن إمتاعِ الذي نتوقَّعُ تخلِّيه عنَّا.

.. ووقف شاب يشكو لها تخلي حبيبته عنه فقالت له ريسال:

- ألا تبًّا لهم وثكلتْهم أمهاتُهم هؤلاء الذين لم يفزعْهم حزنُك، لا تتخذنَّهم أحبَّةً معك في أيِّ سنين تأتي ... إنما ... إننا فقط لا بدَّ أن نؤمنَ أن صدماتِ الرحيلِ ومضَّاداتِ الخيباتِ تكمنُ في تفهُّمِ حقِّ الآخَرِ في ألا يحملَنا ثقلًا فوقَ صدرِه إذا حدثَ وما عادَ يرغبُ فينا.

لماذا على الآخرين أن يدفعوا ضرائبَ باهظةً مقابلَ مدَّةَ بقائهم معنا، وفي كلِّ مرةٍ ينقصُكَ نصفُكَ، هناك دائمًا نصفٌ آخرُ ينتظرُ اكتمالُه بك، وهذه هي عدالةُ السماءِ في تقاطعِ الأرواحِ المتوازيةِ والتقاءِ الأنصافِ.

- أحبها وهي لا تطيقني هل عندك حجاب يجلبها لي أرجوك.

.. ضحكت ريسال ونطقَت بصعوبة من شدة الضحك:

- لا تضع روحَك في كفَّةِ أحد، فهذا الأحد قد يصدمك حين تكتشف أنه الجمعة، وقد كنت تحسبُه الخميس.

.. انطلق الضحكُ فتجرأت امرأةٌ وسألتْها:

- لقد تزوجت من قبل ولم يكن رجلًا يملأ عيني وأخشى أن..

.. قاطعتها ريسال بخفَّةِ روحٍ:

- ولماذا نهتمُّ ببناءِ القواعدَ المضادَّةِ للخيباتِ إن كان بإمكانِنا إخضاعَ المتقدمين لاختبارتٍ وقحةٍ تحمي صدورَنا من ضربات الحزنِ، فلا يُسمَحُ بالمرورِ إلا بعدَ تقديمِ شهادةِ حسن عناقٍ وتقبيلٍ وتكون صحيفةُ رجولتِه قويَّةً.

.. وتساءل شابٌ:

- كيف يمكنُني أن أجعلَها تعشقُني للأبدِ؟

فعادت المرأة الجريئة تقول:

-لقد تزوجْتُ مرة ذلك الذي تركْتُ زواجي من أجله ولم يملأ عيني أيضًا؟

.. فامتلأ المكان بالضحك ورددت عليها ريسال:

- لا نهجر شخصًا من أجل آخر، وإنما نترك الشخص إن لم يكن مناسبًا لك، نحن نتمنى الشاطئ أثناء الغرق، لكن هذا لا يعني أن الشاطئ يصلح أن يكون بيتًا بعد إنقاذه لنا، وإنما يجب أن ننحني شكرًا له ثم نمضي بعيدًا إلى بَر الأمان.

- لم أفهم!

-عادت الحشود للضحك وعندما هدأ المكان قالت ريسال:

- أحيانًا لا يتعلق فشلك في الحكاية الجديدة بما كان في الحكاية القديمة من فرصٍ لا تُعوَّض، وإنما فقط كان يجب أن نتوقف في الطريق ما بين رحيلك من الحكاية القديمة ودخولك في حكاية جديدة لنعطي للعين فرصةً للرؤية السليمة أثناء الاختيار الجديد بعد أن يزول ضباب النفس نهائيًا؛ القلب إذن لا يقبل بالانتقال المفاجئ بين القصص مطلقًا قبل أن يأخذ قسطًا من اللاشيء، وإلا وقعْنا في نفس الحفرةِ وتكرَّرَت نفس الكارثة، وبما أنني على يقين بأنك لم تفهمي فسأشرح لك الأمر.

.. وبعد أن هدأ الضحك بدأت ريسال تشرح للجميع:

- قد تبكي قهرًا على صديقتكِ التي قرَّرت السفر بعيدًا لحظة الوداع في الميناء مثلًا، وقد تحدث نفس المشاعر مع صديق بصورة طبق الأصل لا مجال فيها لمشاعر الجنس واللقاء، لكننا كجهلاء بعلم الحب يختلط علينا الأمر، فتودِّع الصديقة صديقتها أما صديقها فيعود مهرولًا من السفينة مرة أخرى ويحتضنها، ثم يقرر ألا يسافر ليعودا ويتزوَّجَا وتقع المصيبة بأنه كان مجرد صديق، والأمر لم يكن يرتقي لمقام الحب، ونحتاج الآن سفينة جديدة لكي نغادر.

..وسط ابتسامات الجميع بعد اقتناع المرأة الجريئة بأن تهدأ قليلًا حين تختار مرة أخرى رجلًا، سأل ريسال أحدُ الشباب بلهجةٍ غاضبةٍ:

-هل تعلمين لماذا جئنا إلى هذه الدنيا؟!

-لقد جيء بنا لكي نكون على قيد الحياة.

-وما الحياة؟

-الحياة هي أن تحب.

-وهل هذه الحياة التي خلقنا الله فيها للحب فقط؟!

-الحب يجعلك طائرًا بدلًا من أن تمشي على قدمين فتقطع المسافات وتتخطَّى الجبالَ والبحارَ، تستطيع أن تشمَّ رائحة الموتى في الأماكن التي ليس فيها أناس يعشقون، ولو استمر المكان كذلك لتعفَّن الذين يسكنون فيه.

-فقاطعها في لهجةٍ لا تخلو من استخفاف:

-كل الجميلات البِكْرِ في أحضان أثرياء، وهؤلاء اللائي نصادفهم في الشوارع من بقايا موائدهم وما عادوا عذارى، وأنتِ مثلًا متزوجة من ملك.

.. فسألته ريسال وهي تفتعل الدهشة:

-هل أنا في نظرك جميلة؟

-نعم جميلة جدًّا.

.. فأجابت وقد اتَّسعتْ ابتسامتُها:

-لقد كانت هذه الجميلة ذاهبة ذات يومٍ للزواج من رجل فقير لا يملك إلا بضع زجاجات عطر، لا تكن أحمقًا وتتهم الجميلات بالجشع لمجرد أن إحداهن تاجرت بجسدِها، لكن قُل لي لماذا هجرتك حبيبتك؟!

..وهل تعلمين الغيب؟! أنا لم أخبر أحدًا أن لي حبيبة!

.. أنت لم تخبر أحدًا، ولا أحدٌ يخبر أحدًا في هذه المدينة، وكل علاقاتكم سرِّيَّة، وأنتم لا تظهرون إلا أثناء الصلاة، لكن دعني أجيب عن سؤالي بما أنك تراوغ، لقد تزوَّجَت من ثريٍّ لكنْ صدِّقني قد لا يكون هذا هو السبب بل ربَّما لم تحبك.

.. فلمَّا أحسَّت بصدمته ارتفع صوتُها بحنانٍ:

- شريكك في العلاقةِ الذي بتلك العين القويَّة التي ترى كل أخطائك كبائر هي تلك التي ترى كبائر غيرك من أفضل الأعمالِ إلى الله؛ لا يتعلَّق الأمر بك إذن، إنما يتعلَّقُ بالحب.

-كيف لا تحبَّني وأنا المفكر المعروف وال..

قاطعتْه بصوتٍ مرتفعٍ:

--لا يثير المرأة حديثُك عن العدالة والحضارات والإنسانية، تبًّا لك لقد جعلتها تتعفَّن

-وما كنت سأفعل لو..

-يثيرها صهيلك إن كنت حصانًا عفيًّا تدوس بحوافرك على تفاحِها الاستوائي، اشغلها بك كما يشغل حكام العالم الثالث شعوبهم، فإنها إن تفرَّغت لك أكلت رأسك وذهبت لتأكل رأس غيرك، تقول الأنثى لحبيبِها: «لا تملأني بك حدَّ أن أفيض فقط، وإنما أغرِقْ العالمَ من حولي»، وأنت ما تزال تحمل لها القضايا الإنسانية في غرفة النوم.

.. فتفاجأ الجميع بالمرأة الجريئة تقول لذلك الشاب:

- خلف مشاعر كل امراةٍ باردةٍ حِممٌ بركانيةٌ تنتظر فحلًا استوائيًّا يعيد اكتشافها والتنقيب عنها.

.. فلمَّا تبسَّم صافيًا بادرتْه ريسال:

- لا ترتسم الابتسامة الصافية إلا على وجوه الذين يحبهم الله، وحب الله لا يحدث إلا لمن تواضع مع عباده واسألوا الذين رأوا ضحكة المتكبرين عن لونها.

.. ارتفع صوتٌ من بين الحاضرين لامرأة تقول:

- زوجي الأحمق لا يستريح ولا يهدأ له بالٌ إلا إذا تشاجرنا وسمع الجيران صراخنا؟

.. قالت لها ريسال:

- يتشاجر معك الذي يحبك؛ لا لأنه يختلف معك، وإنما لأنه شعر بمساحة من الأمان فوق القانون جعلته يمارس البلطجة بحريةٍ.

.. ابتسم الشاب وجلس بينما تساءلت امرأة:

-كيف يمكنُني إذن أن أجعلَه يعشقُني للأبدِ؟

.. أجابت الجريئة على الفتاة التي تسأل:

- الطريق إلى قلب الرجل معدته.

.. فأسرعت ريسال مبتسمة:

- بينما تعدين له الطعام جاهدةً تجاهدُ أخرى في إعدادِ سريرٍ له، ذلك أن التي أخبرتك أن الطريق إلى قلب الرجل معدته ليست على حقٍّ؛ فالطريق إلى قلبِه أشياءُ أخرى ليس من بينها أن تطعميه.

.. وقبل أن تجيبَ ريسال حدث هرجٌ ومرجٌ وضجَّةٌ كبيرةٌ وفوضى، فاعتقدت أنها محاولةٌ لاغتيالِها لكنها ما لبثَتْ أن تفاجأت بحمزة واقفًا أمامَها، فأدركت أن الناس تدافعوا حين ظهر ذلك العاشق المثير للجدلِ، فنزل عن صهوةِ جوادِه فنزل حرَّاسُه عن خيولِهم خلفَه، ثم تناول زمامَ جواد أحدِهم وكان ضخمًا جدًّا وسحبَه قليلًا نحو أرضٍ مرتفعةٍ، وكأنه يريد مكانًا عاليًا وطلب من ريسال الركوبَ لبضع لحظاتٍ ربما للانفراد بها لحظةً أو ليقول لها شيئًا ثم يتركها ويمضي، فلمَّا نظرَت إلى الفرسِ وجدَتْه ضخمًا حاولَت أن تشمِّرَ عن ساقيها لتستعدَّ للصعودِ، رفضَ حمزة أن تتعرى سيقان حبيبتُه فركع على يديه وركبتيه وأمرها أن تتخذ من ظهرِه سُلَّمًا للصعودِ على ظهر الفرسِ ففعلَتْ.

.. كان وقْعُ الأمر على الوجوه صادمًا، إنها تلك المساحةُ الوحيدةُ التي تستطيعُ فيها عينٌ أن تلمح وجه المنافق على حقيقته وتلتقط له الذاكرةُ صورًا لا تُنسى، إنها لحظة مفاجأتِه بالخبرِ كصخرةٍ وقعت من قمة جبلٍ على قلبِه الأسود، لا يمكنه أن يدَّعي الفرحةَ بالأمر إنما سيبقى للحظات في الألم قبل أن يتلوَّن كالحرباء لون جلْدِه بالفرح المزيَّفِ، فسمع حمزة صوتًا يقول:

- لقد كادت جبهته أن تمس الأرضَ راكعًا والعياذ بالله لأنثى!!

.. فنادى حمزة في القوم وكأنه يتحدى بها الدنيا:

- وتخلَّتْ القدمان عني مع انهيارِ مفاصلي، أعصابُ روحي جميعُها قد أعلنَتْ حُمَّى التخلِّي، قالوا تَحَلَّ ببعضِ صبرٍ أن وقفْتَ أمامَها، باللهِ قُلْ مِن أين يأتي أمامَها هذا التحَلِّي، يستاءلون هل الملوكُ بأمر أنثى يُزَلزلون؟ هل لي أقولُ إذا أرادت أن أموتَ سوى «لَعَلِّي»، وإذا الكواكبُ في الملامحِ قد أضِيئت مَن أكون؟ مَن ذا يقاومُ في الخلائقِ كلِّها هذا التجلِّي.

.. لكنها بعد أن ركبت الفرسَ ألقَت نظرةً على وجوه الحشودِ علمَتْ أن في الأمر شيئًا، وأن حضور حمزة المفاجئ وما يقوله فيها من غزلٍ ليس ارتجالًا وليس عفويًّا، وبالطبع قرأ ما على ملامحها من اندهاشٍ تحاول أن تخفيه فقال لها وكأنه قد افتقدَها وجاء ليراها ليس أكثر:

- قد كنتُ على موعدٍ مع نظرةٍ من عينيك خاطفةً كنتُ فيها أشبه برجلٍ فقدَ البصرَ منذ أربعين سنةً، ثم أعاد اللهُ إلى عينيه النورَ.

.. ظهرَتْ الدهشةُ على ملامحِ البعضِ وبعضهم ظهر على ملامحه الإعجاب، بينما بكى البعض من تأثير رومانسية المشهد، وبعد أقلِّ من دقيقتين وشوش أحدٌ حمزةَ بكلمةٍ انصرف بعدَها حمزة تاركًا ريسال مع محبِّيها بعد أن استأذنَها مبتسمًا، وكأنه كان ينتظر خبرًا ما، لكنه حينما نظر إلى وجه ريسال التي خُطَّت عليه الدهشةُ أحبَّ أن يعاملها كما تعامله بذكاء لا يُفهَم إلا بعمقٍ كبيرٍ، فقال لها جملة تحت حِزامِ المنطقِ:

- لا تعرف أين يختبئ الثعلب الجبان إلا حين تتسكَّع الدجاجة وحدَها على الطريق.

.. بينما كانت ريسال بعد انصراف حمزة تحاول أن تخفي دهشتَها عاد الجميع إلى أماكنهم، وحاولت جاهدةً ألا تفكِّر كثيرًا فيما قاله حمزةُ حتى لا تفقد تواصلها المعنوي مع الجماهير، استدعَتْ الشاب الذي كان يسأل عن كيفية أن يجعل امرأةً تحبَّه كثيرًا وقالت له:

- احضنْ يديها برجولةٍ دائمًا ولا تخبرُها أن هنالك حبٌّ منذ الأزلِ، أو أنه سيحدثُ ذات يومٍ للأبدِ، أو أنه كان في أَمَدٍ ليس قريب أو حتى غيرَ بعيدٍ، وأنا لا أوصيك أن تكون غامضًا ولا تكن كذلك واضحًا، انقضَّ عليها انقضاضَ الجوارحِ على فراخِ اليمامِ، ذلك الشِّعرُ ما عاد يملأُ أجساد النساءِ إلا بالملَل، اللمسةُ خيرٌ من ألف شِعرٍ، وأبقِ الأمرَ مثيرًا جدًّا كالمسافةِ التي تمرُّ على مجرمٍ بين النطقِ بالإعدامِ وتنفيذِه، فالإثارةُ في الحبِّ كالوضوءِ في الصلاةِ.

.. وأتاها خمسينيُّ العمرِ يقولُ لها بينما كان الناسُ يتهامسون عليه ضحكًا:

- في قلبي جرحٌ و..

.. قاطعتْه قائلةً:

-- إن كانَ بداخلِ صدرِكَ غرفةُ عملياتٍ مجهَّزةٌ لوقفِ نزيفِ السنينِ وإعادةِ تشغيلِ تنفُّسِ الرئتينِ للفرحِ، فلماذا ما تزال تستغيثُ بالإسعافِ، افعل لجرحِكَ شيئًا؛ إن المسعفين في حوادثِ الروحِ لا ينقلون الجثمانَ إلا إلى قبورِ المشيبِ.

.. وثرثرَتْ فتاةٌ جميلةٌ عن بعضِ محاولاتِها الفاشلةِ في الغناءِ، وتهكُّمِ الكثيرين عليها على خلفيةِ تقليدِها لصوتِ ريسال وأنها سمعَتْ أساطير عن حلاوةِ صوتِها، فقالت ريسال تشجيعًا لها على البحثِ في ذاتِها:

- لم يخلقُ اللهُ نفسًا إلا وقد حباها شيئًا لم يمنحْه لأحدٍ من العالمين، فلا أدري لماذا يحاولُ الناسُ أن يكونوا نسخًا مكررةً من غيرِهم؟! سكوتُك عن موهبتِك جريمةٌ تستحقُّ عقابَك لنفسِك بأنَّك مجرَّدُ عابرٍ نكرةٍ جئتَ ورحلْتَ.

افتحوا نوافذَ الروحِ على العالمِ واخْتَرِعوا شمسًا إذا غابت الشمسُ، إنَّما لا يجبرنَّكم جليدُ البشرِ على اختباءٍ أبدًا.

.. وأتتها فتاةٌ مراهقةٌ تبدو عليها نعومةُ وجنات فتياتِ الشَّمالِ تقول:

- لم أجدْ شيئًا من رائحةِ الرجولةِ القديمةِ أو بضعِ شهقاتٍ مِن الصوتِ الخَشِنِ، لقد التقيتُ برجلٍ وكان لقاءً لا أعتقدُ أنه يجبُ علينا فيه الذهاب إلى النهرِ؛ لأننا لم نصلْ فيه إلى حدِّ النِّصابِ الموجبِ للغُسلِ.

.. ابتسمَت ريسال وقالت لها وسط احمرار وجنات نساء الجنوبِ:

- كل محاولةٍ للبحثِ عن الحبِّ هي وصولٌ لأيِّ شيءٍ آخرَ غير الحبِّ.

.. وفي هذه الأثناء تذكرت ريسال وفاة الرجل الذي كان قد أصيب بالشلل ومات وحيدًا، ثم قالت:

- مات الرجلُ وانتظرْتُ أن تفعلوا له شيئًا غير الحزنِ فلم تفعلوا، اليومُ يومُ عزائه وسأقف أتقبَّلُ فيه العزاءَ وحدي بعد أن انتقَلَتْ الإثارةُ إلى رحمةِ اللهِ تعالى.

.. بكى الحاضرون وشعروا بالخزيِ وقالوا ونحن معكِ فقالت:

- اليومَ نقِّبوا عن الذين يحتاجون وأنفسهم عزيزة على مَدِّ اليدِ للناسِ، وفتِّشوا عمَّن لم تتزوج أو مَن لم يتزوج ولا تتركوا الشبابَ لطرقات الرذيلة، كيف يمكنُك ألا تكون وَحْشًا وأنت لم تساعدْ هذا اليومَ شخصًا واحدًا وتنامُ على بطنِك ككل العربِ وتقولُ: «نحن في زمنٍ انعدَمَتْ فيه الإنسانيةُ».

.. وقالت ريسال في شموخٍ:

- عليك أن تحبَّكَ قبل أن تحبَّ الذي يجبُ عليك أن تحبَّه، ولأننا نكره أنفسَنا ونحن لا ندري فقدْنا الذي يجب علينا أن نمنحَه وهو الحب «الناسُ تُحرقُ إذْ ترى شخصًا نجحْ، والحقدُ من قُبْحِ النفوسِ على الوجوهِ تبجَّحْ، ولِذا التَّوَرُّطِ في النَّجاحِ كَجُرْمِ فعلٍ فاضحْ، وأشدُّ من رجْمِ الزُّناةِ فضيحةً أن تنجحْ، ولإنْ أردْتَ العيشَ حُرًّا في البلادِ فكُن كقِرْدْ، إن خافَ من عينِ الخلائقِ إذْ تمرُّ تأرْجَحَ».

.. وبدأت ريسال بقراءة القرآن فصُعِقَ الناسُ من مزمارِ إلَهة الجمالِ الذي يدوِّي في تجويف الأرواحِ الخاويةِ من الإيمان.

.. وكان جنود حمزة قد ألقوا القبض على رجلٍ من بين الزحام أثناء صعود ريسال على الحصان بقدميها على ظهر حمزة، وعندما رآه حمزة عرفه شكليًّا بملامحِه المتجهِّمة واعترف بضلوعه في محاولة اغتيال ريسال والتخطيط لها وكأنه يتباهى بالجهاد، فقال له حمزة بأسفٍ شديدٍ:

- لن أقتلَك لأنني لست قاضيًا في أمرك إنما هو أمر القضاء، ولن أنكِّلَ بك لأُخرجَ من فمك رغمًا عنك معلومةً واحدةً، ولن أُرْهِبَك لكن صدِّقني يا أخي أنت على باطل وأنا من صنعْتُ أمثالَك، وكنتُ أكفِّرُ الناسَ وآمرُكم بقتلِهم وآمركم أيضًا بالابتسامةِ التي على وجهِك.

- ربما لعب حمزة لعبةً في منطقة عقل المتجهِّم فتغيَّرَتْ ملامحُه وقال لحمزة:

- أخبرْني مَن الذي وشَى بي ليتمَّ القبضُ عليَّ وسأخبرك بكلِّ شيءٍ؟

- لا أريد كلَّ شيء ولا حتى بعض شيء، قُل للقاضي ما تريد أن تقولَه كي يمشي أولادك في الطرقات من بعدِك آمنين.

أما كيف عرفْتُ بمحاولتِك، أبلغَني أحدُ حرَّاسِ زوجتي المتخفِّيين أنَه لمح في الزحامِ رجلًا يخفي سلاحًا هو يقترب من ريسال، لكنك اختفَيتَ منه، فكان يجب أن أجدك، ففكرت بأن أعطيك صيدًا لكي تحاول الاصطياد، ومِن هنا يتم اصطيادُك وأنت تحاولُ، فخلعْتُ القناع وكأنني ظهرْتُ فجأةً، فلمَّا تجهَّمَت ملامح وجهك تم رصْدُك، ولمَّا تحرَّكت باتجاهنا تم رصدك ولما وضعْتَ يدَك على جنبِك علم الجنود أنه أنت الذي يخفي سلاحًا.

.. وفي لَفْتَةٍ منها كانت ما تزال تشعرُ بعصبيةِ ملامحِ وجوه أهل الجنوبِ إلى حدٍّ أنها سمعَتْ البعضَ وكأنهم يقدِّسون حمزة وغدًا شيعةً وخوارجَ عليه، فأحبَّتْ أن تضربَ عصفورين بحجرٍ فصرخَتْ فيهم:

- يا أهل بلدتي ليس فخرًا أن هذا العبدَ منكم، فاللهُ أرسلَ بالرسائلِ للبقاعِ الأشدِّ كفرْ، ولو، عليكم صدقوني في مواجهةِ النفوسِ، ما رأيتُم من حبيبي بعضًا من تقليمِ ظُفرْ.

.. وكأنها تشيرُ إلى أن حبيبها مجرد عبدٍ ككلِّ عبادِ الله، وبأنهم يجب أن يذوبوا في الدولةِ الجديدةِ بدون هذه النعرةِ العصبيةِ الفارغةِ, التي حوَّلَت العالم العربيَّ إلى أشلاءٍ تبولُ فوقَها الذِّئابُ، فما أجمل أن يكون دينُك هو وطنُك وأن حدودَه ليست مجرَّدَ حدودِ دولةٍ، وإنما حدودُ معبدٍ لا يطؤه إلا المتوضئون بعقيدتِه، ولا جزاءَ للمرتدِّين عنه سوى القتل جهارًا نهارًا على رؤوسِ الأشهادِ، ثم أمرت بإقامة الحداد ثلاثةَ أيامٍ، ثم عادت من العزاء إلى مصنع القمامة في الشمالِ، وهناك التقَتْ بالشباب المكافح وقالت لهم:

- إن الأحلامَ لا توجدُ في منتصفِ الطُّرُقِ وعلى السائرين في الطريق الرئيسيِّ للحلمِ الانتباهَ إلى أنه ثمَّةَ أزقَّةٌ على الجانبينِ تختصرُ التعبَ، فلا تنتبهوا إلى الذين يدعونَكم منها، ولا تدفعوا رشوةً إلى بائعي الأحلامِ لتبلغوا مكانًا كان محجوزًا للذين على قيدِ الكفاحِ.

.. وبينما هي تخرجُ من المصنعِ لحقَ بها شابٌ وسيمٌ يستأذنُها في وشوشةٍ، فأذنَتْ له فاقتربَ منها وقال:

- أعشقُ جارتي وتعشقني وسنتزوَّج لكن لدينا مشكلةٌ و..

- كلُّ مصروفات زواجك أتحمَّلُها هديةً لك.

- ليست هذه هي المشكلة يا سيدتي.

- إذن رفضك أبوها، لا مشكلة سآتي معك وأطلبُها لك.

- إنها متزوجة.

.. ابتسمَتْ ريسال كأنها لم تغضب وسألتْه:

- أخشى أن تعشقها بينما تظن أنك تلهو، لا تضع روحك في رهان لأن الأمر في النهاية مجرد لعبة تلعبُها أنثى مدَّتْ رأسَها من جُحرٍ وستعود إلى جحرِها حين يعود الذكر من موسم الهجرة آجلًا أو عاجلًا ... لكن ... هل تواعدتما سرًّا من قبل؟

- نعم.

- تلك التي استغفلَتْ زوجَها ونامت بجانبك حبًّا فيك إن خربْتَ عشًّا وتزوَّجْتها، فيم تفكِّرُ أنتَ إن استيقظْتَ ذات ليلةٍ ولم تجدْها بجانبِك؟ لا تتحدَّث عن خيانتِها لك فهي لم تعرف الأمانة مع غيرك ولا تتحدَّث عن القسوة، فأنت لم تعرف الرحمةَ مع الذي أخذْتَ من فراشِه حبيبتَه، وقد صرتَ الآن تعرفُ حجمَ اتساعِ الجرحِ بعمقٍ في الروحِ؟

أليس لك خيالٌ يستطيع أن يتصور عمق جرح ذلك الذي يعرِّي زوجتَه إذا تبادلتما المواقع، وصرت أنت الزوج وصارت زوجتك تحته عارية؟!

الغدرُ يختطفُ الضحايا خلفَ أسوارٍ مُذِلَّهْ، ويعيدُ تشريحَ الحكايةِ ثم يطمسُ في الأدلَّهْ، والغادرون بلا إلهٍ يكفرون بكلِّ دين، لكنَّ دينَهم الوحيدَ بأنْ يعيشوا بدونِ مِلَّهْ، وعلى الذين يفتِّشون عن العدالةِ ذات حزن، أن يدركوا موتَ الهوى والموتُ يأتي بدون علَّهْ.

.. فقال الشاب وقد شعر أنه خرج من عمليةٍ جراحية واستأصَلت من أعماقِه الشيطان:

- ما كنتُ أعشقُ في الفتاةِ سوى احمرارِ وجنتيها، واليومَ تبجَّحَتِ الفتاةُ فما بربِّكَ أعشقُ، نستنشقُ العطرَ الرهيبَ من الورودِ بلهفةٍ، وإذا تنتَّنَتِ الروائحُ كيف قد تُستنشَقُ، لا تحسبنَّ غروبَ فرحٍ في الحكايةِ دائمًا، كم مِن صباحٍ بعد ليلٍ في الملامحِ شقْشقوا.

.. ضحكَتْ ونظرَتْ إليه بإعجابٍ تحفِّزه على توبتِه ورجوعه إلى ضميرِه، ثم وقف صامتًا وكأنها قرأتْ ما في أعماقِه، ثم قالت وهي تمسحُ على شعرِه بحنانٍ:

- أنت لم تقلْ لي المشكلةَ حتى الآنَ!

.. ضحكَ الشابُّ فانصرفَتْ مبتسمةً وهي تلوِّحُ للجميعِ، فناداها صارخًا شابٌّ متسائلًا:

- لماذا على وجهِك الابتسامةُ دائمًا و..؟

- قاطعتْه قائلةً:

- لو فُقِدَتْ عينا رجلٍ عشرين سنةً ثم ارتدَّ إليه بصرُه، هل يستطيعُ أحدُكم أن يصفَ عمقَ فرحتِه؟! لماذ لا يفرحُ المبصرون كلَّ يومٍ ببصرهِم؟ أمْ أننا يجبُ أن نفقدَ أبصارَنا أولًا كي نتذكَّرَ نعمةَ اللهِ علينا؟ وكذلك أيدينا وأرجلُنا وألسنتُنا وأسماعُنا وكثير جدًّا، يتعجَّبُ الناسُ لماذا على وجوهِ الذين آمنوا دائمًا الفرحُ، وليس هناك ما يدعو للفرحِ؟ لو أمضيتَ عمرَك تفرحُ بما أنعم الرحمن عليك ستموتُ وعليك لله أفراحٌ.

- كيف لم توقفي الحبَّ عندما وقع وقد كان من الممكنِ أن يغرقَ هذه الأرضِ جميعها بالدماءِ؟

.. أجابت بثقةٍ للجميعِ وهي تدمعُ وتمشي؟

- لا ما فكَكْتُ زُرارَ روحي وقد تسلَّلَ مِن خلال، ولقد رأيتُ ضفائري تنحَلُّ بالشوقِ انحلال، هل إن بلغْنا إلى اشتباكٍ كيف يمكنُ أن نُفَضُّ، قد كنتُ أمضي تحت تَلٍّ سهوًا انهمر الشَّلال، فأمرْتُ نفسي بالرحيل وجدْتُ نفسي إليك ترحل، قُلْ كيف يمكن للمياه أنْ تعودَ إلى التِّلال؟!

.. ونادت:

- لو وقف أحدُنا على حديدٍ تحته نارٌ، تُرى كم سيستطيع أن يصمدَ دون صراخٍ حافيًا؟! يجبُ أن تصرخوا جِدًّا وجِدًّا وكثيرًا كهذا الذي يقفُ محترقًا على كلِّ وقتٍ يمرُّ منك ولم يكن على قيدِ الحياةِ يلهو.

.. فاندفع في هذا الجو الإيجابي أحد المتشائمين مناديًا:

- لا تتركنَّ على ملامحِك الحميَّةَ تظهرُ، بل قُلْ بأنَّ حماسَ روحِك في التقدُّمِ قد فَتر، الناسُ تحسدُ حاجبيك إذا دماغُك أصلعُ، فإذا بُلِيتَ أمامَ قومٍ بالتفوُّقِ فاستَتِرْ.

.. فقال الشابُّ للناسِ بعد أن التفَتَ لهم:

- ابعثوا الحياةَ فيكم بهؤلاء الذين إذا رأيناهم جعلونا نحبُّ الحياةَ.

.. ابتسمَتْ ريسال مِن رد الشاب بإيجابيةٍ على ذلك الذي كان متشائمًا في إشارةٍ منها أن الحبَّ صار له جيلٌ جديدٌ من الأساتذة..

.. فقالت فتاةٌ ويبدو أن حبيبَها قريبٌ منها وقالت:

- ما رأيك في الرجلِ الذي لا يعطي ولو هديةً واحدةً لحبيبتِه، أيكون عاشقًا حقًّا؟

.. ضحكت ريسال وقالت:

- مَن قال إن الحبَّ يُثبَتُ بالمزيدِ مِن الغزلْ، أو بالهدايا كلَّ يومٍ والكثيرِ من العطاءْ، الحبُّ يُثْبَتُ إن شعرْتَ بأنَّ عقلَك ما انتبه، رغمَ ارتكابي أمامَ عينِك للكثيرِ من الأخطاء.

.. تسلَّلَت الفتاةُ التي سألَتْ عن الهديةِ إلى حبيبِها وسط الحشودِ متأثِّرةً بحديثِ ريسال لها وقالت له أسفل أُذُنِه:

- وإذا الورودُ أتَتْ بدونِك لا أراها سوى غبار، والشوكُ منك على ضلوعي أراه أحلى من الورود، وإذا الكواكبُ والنجومُ أتَتْ تغني والأقمار، إن كنت لسْتَ بجانبي فليحترقْ كلُّ الوجود.

.. انصرفَت ريسال بعد أن تأكَّدت أنه قد أصبح للفكرةِ أتباعٌ، عقدةُ الحكامِ أن الناس لهم تصوُّرٌ ذهنيٌّ عنهم أنهم يقولون ما لا يفعلون، وكل ما في خطاباتهم كلمات مخدِّرة، فإذا جاء

الذين يفعلون ما يقولون تمسي أمامه تلك الصورة الذهنية عقدة؛ لذلك إذا استطاع الحاكم أن يوصل فكرته من خلال أحد العامة ينجح الأمر.

من المضحك أن المتربصين يعلمون ما يتم بناؤه على أيدي الحكامِ بالفعل، ولذلك يروِّجون بأنه على الحاكم أن يبني ما هو أكثر حتى إذا انتهى الحاكم من البناء يتفاجأ بأنه ما بنى إلا القليل.

.. أن تضع نفسَك مكان الآخرين ثم تبدأ بالحكم عليك موهبةٌ لا يتقنُها إلا واحدٌ في كل مائة ألفٍ في عالمِنا الغبي.

هؤلاء الذين يتخذون من النقد حرفةً سيرفضون لو قلت لهم اكتبوا قصيدة واحدةً؛ ليس لأنهم يكسبون من النقد أكثر مما يكسبون من الشِّعرِ، وإنما لأنهم يعلمون أن الناقد العربيَّ إن قرأ قصيدة عن اليمين سيتهم صاحبَها بالتشدد، وإن كانت عن الشمال اتهم صاحبها بالكفر، ولكارهي اليمين جمهورٌ يأكل منه الناقد عيشًا إذا تكلم لهم، وإذا تكلم لكارهي الشمال سيأكل شيكولا فاخرة، ولأنه يعلم أنه ثمَّةَ حفرةً لأصحاب الأقلامِ مهما كتبوا فإنه لا يرضى بالجلوسِ على مقعد أبدًا!

***

.. وإلى وجهها القمر حين عادت تبدو على ملامحها غيوم التعب في أول لقاءٍ بعيدًا عن الزحامِ والناسِ بعد انتهاءِ الانفصالِ والإعلانِ الرسميِّ للمدينةِ بعدَ غيابٍ عن الانفلاتِ والعناقِ دامَ عشرةَ أيامٍ قضَتْها ريسال ما بين الطرقات والقصرِ والجنوبِ، ربما تعرف للنوم طعمًا وقت ولادةِ الدولةِ الجديدةِ، الجميعُ يحمل روحَه على كفَّيه، وما بين غلقِ عين وفتحِها قد تجد نفسَك في التاريخِ مجرمًا محكومًا عليك بالإعدامِ إن لم يكن الله معك ويجعلك تنتبه، وبينما هي في الطريقِ إلى حمزة وقبلَ بوابةِ البيتِ تفاجأَ حمزة بمجموعةٍ مِن الفرسانِ الملثَّمين يمتطون خيولًا ضخمةً ويهرولون خلفَ ريسال التي كانت ما تزال

فوقَ حصانِها، ثم رماها أحدُهم برمحٍ في ظهرها، فسقطَتْ فنزل المجرمون وقصُّوا شَعْرَها وانطلقوا حتى اختفوا؛ فانطلق نحوها حمزة والدم يغرقُ ملابسَها وقالت حين شعرَتْ به:

- قد جئتَ الآنَ لتكتبَني وأمامَ الناس لماذا كنت بدار الدنيا تخشى، قل كم أخبرتُكَ أن الحبَّ طهارةُ روحٍ كنتُ تراني وحبي فُحْشًا، سامحتُكَ لكنْ صبرًا إنَّا سوف نعانقُنا لا تبكِ كثيرًا بعدَ غيابي تماسَكْ جدًّا جدًّا جدًّا أبقِ على دمعاتِكَ وَحْشًا.

.. فقال لها وسط بِركَةِ اندهاشٍ:

- ما هذا الهذيان ألا تعلمين أنني أحبُّكِ؟!

- لو كنا نعلمُ قبل اليومِ بأنَّ الدنيا في عينيا، وأنَّا الآنَ قد انتهينا كنَّا فعلنا وكنا فعلْنا بدونِ خوفٍ ما اشتهَينا، وكنا تشابكْنا في الطريق بالقُبلاتِ، وما ضاعت أيَّامُ الدنيا بكيف وأين، تعالى وكفِّنّي في حضنِك ثم ادفنّي في الأعماقِ لنسكبَ بعضَ الدمعِ علينا.

- ما الذي فعله بك هؤلاء المجرمون؟!!

- لقد قصُّوا شعري لأكفَّ عن حبِّكَ ولو سلخوا جلدَ رأسي لن أكفَّ، وإنهم لَيظنُّونَ أن حبَّنا مِن جدارِ عقل الروحِ إلى سلالميّاتِ أقدامِ الحكايةِ يمتدُّ، لكن هيهات هيهات لِما يظنون؛ فإنَّه لم يكن أيضًا في العظامِ المقدسةِ التي لا تُفنى حين يتحلَّلُ الموتى في القبورِ، إنما الحُبُّ صفةٌ من صفاتِ اللهِ وصفاتُ اللهِ لا تموتُ.

.. فقال لها حمزة وهو غارقٌ في الصدمةِ وهو يحاولُ أن يبقيها بعيدًا عن الدخولِ في مرحلة الاحتضارِ:

- انظري في عينيَّ وحدِّثيني عن حبِّكِ للبقاءِ معي.

.. ابتسمَت والدمُ قد لطَّحَ وجهها وهي تقولُ:

- كلما أنظرُ إلى المسعفين وهم يحملون الجثثَ في حوادثِ الحكايا أتساءلُ لماذا لا يحملونني كما لكل الموتى يحملون، ونداديثُ لماذا تركتموني هنا في الحياةِ وحيدةً في هذه الطرقات الغريبةِ، فقالوا لأنَّ لهم أحبَّةٌ هناك في الآخرةِ ينتظرون، وأنا سأذهبُ لأعدَّ لنا مثوانا الأخيرَ، ألا تحبُّ أن تكون حبيبةً بحجمي في انتظارِك؟

.. عانقَها حمزة وهو يصرخُ صراخًا يمزق نياط القلوب فقالت وهي تموتُ:

- لو كنا نعلم أن الدنيا كانت في ذلك العناقِ المرتجفِ الذي احتدم بيننا في الوقتِ الفاصلِ بين صعودِك على مواسير الحبِّ إلى نافذةِ غرفتي بعد منتصفِ ليلِ اللهفةِ إلى نزولِكَ في حديقتِنا مرةً أخرى، لجعلتُكَ تفضحُني أمامَ العالمين حين يدخلون ويجدوننا قد أطفأْنا المصباحَ، تاللهِ لو عدْتُ إلى ظلامِ الدنيا لأضيئنَّ زجاجَ نافذة غرفةِ نومي ليرانا أهل القرى متعانقَين والمدائن.

فاستيقظَ حمزة فزعًا من الحلمِ على صوتِ دقَّات كفَّيها على البابِ، وقالت له بعدَ أن ارتمَتْ من التعبِ على صدرِه:

- ما بك؟

- ياللهول لقد كان كابوسًا مرعبًا!

.. قالت له وقد بدأت تشعر بخوفه عليه:

- أشعرُ كلَّما أذكرُكَ في الطرقات وأنتَ لست معي أنك تقبِّلُني و تصبُّ في جمجمتي زجاجةً من البيرةِ، فأسْكَرُ، وربَّما أضحكُ وحدي وإلا ما الذي يجعلُ العصافير الذين يصادفونني على طولِ الطريقِ يتهامسون.

.. قال لها وقد بدأ يستعيدُ توزانه من ذلك الكابوس المفزعِ وكأنه لا يصدق أنه كان كابوسًا وأنها الآن أمامه لم يحدث لها مكروهٌ وهو يحتضنها بعنفٍ ويبكي:

- يجادلونني في أنه كانت هناكَ أعوامً قبلَكِ برغمِ أنني أعلمُ علمَ اليقينِ أنكِ أنتِ بدايةُ التقويمِ الميلاديِّ لأيامَ الدنيا، وسألتُهم متى طلعَ الصُّبْحُ قبلَكِ فلم يجدوا جوابًا، ولو أني أشكُّ أنه كانت قبلَكِ على هذه الأرضِ حياةٌ.

.. فلما وجدتْه يبكي بخوفٍ شديدٍ أحبَّتْ أن تخرجَه من حالتِه فقالت له بدلالٍ جميلٍ:

- اذكرْ لي كلمةً قذرةً وبمجرَّدِ أن أضعَها على لساني ستصيرُ حلوةً.

.. فقال يداعبُها ودموعه ما تزال على خده كالأطفالِ:

- ريسال..

.. فقالت له ريسال:

- إنك خفيف الظل جدًّا، لكنني لا أمزحُ بالفعلِ قُلْ لي أيَّ كلمةٍ وسأضعُها في جملةٍ وسأجعلُها حلوةً.

.. فقال حمزة:

- بذاءة.

.. ضحكَتْ ثم صمتت لحظةً وقالت:

- وجميعُ بذاءاتِ استعمالِه للألفاظِ أغانٍ حين يسُبُّ ويرمي حذاءَه، وجميعُ الشعرِ وكلُّ أغاني العالم لو غنَّاها غير حبيبي تكون بذاءة.

.. ضحك حمزة وقفز يقبِّلها وهي تقولُ له بعد أن ذهب الوعيُ:

- إسرافُك في القُبَلِ حرامٌ عليك.

.. فقال لها:

- حرامٌ لأنني أقبلُكِ أم حرامٌ لأني من المسرفين؟

.. فقالت:

- لا هذا ولا ذاكَ، إنما لأنَّكَ لا تمزِّقُها تمزيقَ الذئابِ البربريةِ ذات سُعارٍ لفتاةٍ بكرٍ هاربةً إليهم في الأحراش.

.. فقال لها باحتراقٍ شديدٍ وعاد يرتجفُ على خلفيةِ تذكُّرِه للكابوسِ:

- لا تعودي إلى الغياب عني ولو لطرفةَ عينٍ.

.. قالت في إشارة إلى ظهورِه فجأةً يوم محاولة اغتيالِها وإلى مراقبتِه لها وتلك الحراسة المشدَّدة التي تستشعرها ريسال حولها في كل مكان:

- أنت دائمًا تمنع القتلةَ عن الاقترابِ وكأنك كنت تخطط معهم ثم انقلبْتَ عليهم ثم انتظرتهم على مسرح الجريمة قبل وقوعِها.

.. فتبسَّم خائفًا عليها:

- كيف لا أعلم إن مرَّت على وجهِ القمر الغيومُ؟!

.. فقالت تهدِّئُ من روعِه:

- نقومُ برسالةٍ استخلفَنا اللهُ فيها يا حمزة!.. لكن أخبرْني أرى شهيَّتَك مفتوحةٌ عليَّ دائمًا هل كانت كذلك قبلي مع نسائك؟

.. تبسَّمَ ضاحكًا وقال يمازحُها وهي تغلي من الغيرةِ:

- قد كنتُ قبلَك لستُ أعرف غيرَ بعضِ نساءِ الحي، وأودُّ حقًّا أن أُقِرَّ بدونِ جبنٍ أو رياءٍ، عن أن حبَّكَ في الحقيقةِ فاتحٌ لشهيَّتي، والآنَ أعرفُ كلَّ أنثى بأيِّ وكْرٍ في المدائن، ولسوف أكسر صيامي وسأفطرُ بالنساءْ، ولإنْ جُرِحْتُ من النساءِ فسوف أُشفَى من نساءٍ، واسألوا الشُيَّابَ هل لو عدتَ طفلًا من جديد، أو في الصحارى لديك أنثى وخيَّروك ببئرِ ماءٍ، سيقولُ أنثى بها المياهُ البئرُ ليست فيه أنثى، فلإنْ عطِشْتُ ففيها خمرٌ يشفني من أيِّ داءٍ، يا ليت قومي يدركون عن الجنونِ حقيقةً، معنى الأمانةِ أن تعيشَ لمنطقِ العقلاءِ خائن.

.. ربما تشعر لحظةً ما أن حبيبَك ليس ملكًا لك؛ فتنقضُّ عليه لتأكله تحت زعم أنك تريد أن تقتنع أنه بين يديك لك وحدك.. قالت:

- هلَّا تعيدُ الليلَ لي كيما أرى ظُهْرًا سَوادَه، واقطعْ الأنفاسَ فيَّ بدون رفقٍ أو هَوادَة، واقضُم التفَّاح جدًّا واعصر الشوقَ الرهيب، كمقاتلٍ بين المعاركِ يعتلي وحشًا جوادَه.

قد بِتُّ أمسِ بحمقِ لمستِك الرقيقةِ ضائقة، وإذا استمرَّ بلاءُ حمقِك سوف أغدو مفارِقَة، أرني الحوافرَ والصهيلَ لكبْحِ كُفرِ أنوثتي، أرني اغتصابًا مثل صيدٍ بين أيدي أفارِقة.

***

تلك الفترة التي بين هدم وطنٍ إلى حد تسويتِه بالأرضِ ووضعِ أول طوبةٍ في البناءِ السليمِ الجديدِ يشبه سفينةً فجأةً في عرضِ محيطٍ تصبح ألواح الخشب أغلى ما يمكن أن يمتلكه بشرٌ على قيد الإطلاقِ، مَن يتعلَّق من العامة بفكرةٍ في هذه الفتنةِ لا يمكن أن يتخلَّى عنها فيتحول المرء بالصدفةِ إلى وطنيٍّ أو إلى سلاحٍ متنقِّلٍ في صدر الوطنِ؛ ولذلك إغلاق بيتك عليك هو أفضل ما قيل عن تجنُّبِ دغدغة مشاعرك والانزلاق في فصيل مجهولٍ.

هذه الشعوب الغريبة لا يلفت انتباهها إن وجدت الماء والطين وشتلة الورد أن تنحني لزراعتِها لوجه الله، لكنها تهرول منحنيةً لتعدل الحذاء إن وجدتْه مقلوبًا؛ لأنه في وجه الملائكة!

***

جاءت الأنباءُ من الملكِ إلى حمزة في أوَّلِ تكليفٍ رسميٍّ له في القيادةِ الجديدةِ تطلبُ منه الاستعدادَ لإلقاءِ خطابٍ يضعُ فيه الجميعَ على قلبِ وطنٍ واحدٍ رفضًا للتمييزِ والعنصريةِ، في مواجهةِ تحدياتِ تمزيق لحمِ البلادِ وتفريقِها على كلاب الأرضِ في زمنٍ لم يعد قانونُ فرق تسد الذي حكم الأرض طويلًا يكفي، وإنما أصبح «قَطِّعْ تأكل»، ولكن فخًّا كان قد نُصِبَ لحمزةَ، ترى هل سيسقطُ ذلك الداهيةُ السياسيُّ الذي قاد العالم العربيَّ بعد أن أقنعه بالخطأ وصنع منه دولةً أسقطَها الحبُّ في الوقتِ الذي يحاولُ أن يقنعَ نفسَ العالمِ بالصوابِ بالانتصارِ لمبدأ المواطنةِ؟

.. تجمَّعَ مئاتُ الآلافِ من البشرِ في ساحةِ الوطنِ الجديدِ انتظارًا لحمزة الذي استُقْبِل بجنونٍ، والذي أسكَتَتْ الحشودَ هيبتُه حين نادى:

- لن أمسكَ العصا من المنتصفِ لأرضيَ أحدًا، وإنما سيقبضُ عليها قلبي من طرفِ الحقِّ لأضربَ به الباطلَ على أم رأسه؛ لينزفَ ما به من عفنِ الفكرِ، فإن عاد نظيفًا فأهلًا به بيننا، وإن لم يعد تركناه ينزفُ حتى الموتِ على جذوع النخلِ.

.. أحسَّ أعداءُ الحياةِ بأن الداهيةَ حمزةَ قد خطفَ القلوبَ والأبصارَ وأن فراعنةَ الأرضِ عادوا من التاريخِ ليحكموا جغرافيا الأرضِ، فاستغلُّوا لحظةَ صمتٍ وسأله أحدُهم وسط الجموعِ سؤالًا؟

- أين زوجتُكَ؟ ألا يجبُ أن تقفَ بجانبِك الآنَ؟

.. أجاب حمزةَ في طلاقةٍ:

- ما كان للشمسِ أن تظهرَ في الليلِ، وإنما ترسلُ للقمرِ ضوءَها لينير لأمثالِك الطريقَ.

.. ضحكت الحشودُ المنبهرةُ بطلاقةِ الحصانِ العنيدِ حينما سُئلَ من نفسِ السائل:

- حيث إنها لم تحضر صِفْ لنا الشمسَ.

- ذلك الذي يحاولُ أن يصفَ حبيبتي يشبه نملةً حمقاءَ أسفلَ جبلٍ أرادت أن تستحمَّ تحت شلَّالٍ.

- كيف يمكن لحاكمٍ أن يكون رقيقًا بهذا القدر في عصرٍ نحتاجُ فيه إلى القوةِ والهيبةِ؟

- كلُّ حديثٍ لأُنثى مِن رجلٍ يخلو من عبارات الغزلِ، يجعل لها الحقُّ في أن ترفع دعوى قضائية ضدَّه بالسبِّ والقذفِ أمام محكمةٍ عسكريةٍ، يا أيها الناسُ جاهروا بالحبِّ على أبوابِ النهارِ وأعلنوه لغة رسميةً بين العيونِ، املأوا الحبَّ بالحياةِ واملأوا الحياةَ بالحبِّ، فإنني لا أعرف سببًا غير الحبِّ لمجيئنا إلى هذا العالمُ.

.. اندسَّ بين الحشودِ غير واحدٍ يحرِّضون الناسَ قائلين:

- أن يكون المرءُ تافهًا هذا أمرٌ قد نصادفُه، وأن نصادفَ كلَّ هؤلاء التافهين هذا واردٌ، إنما أن أن يكون لهذا التَّافه كلُّ هذه الحشودِ من الجماهيرِ الغفيرةِ هذا أمرٌ لا يمكن أن يتسعَ له صدري، الذي يزدحمُ كلَّ يومٍ بتقبُّلِ هؤلاء وهؤلاء، ويشعرني بأنني كأهل الكهف الذين استيقظوا غرباء.

.. لكن الحصان العنيدَ ظلَّ يصهلُ قائلًا بصوتِه الجهوريِّ:

- كيف لهؤلاء الأغبياء أن يعلنوا عن الصبحِ قبل تفتيحِ الجفنين المحاصرَين بالنومِ، وكيف سيأتي الصباح في هذه العتمةِ من دونِ الكُحلِ الذي يحيطُ بسمواتِ عينك؟!

.. فارتفع صوتُ امرأةٍ عجوزٍ تسأل:

- كيف أتاك كل هذا النور الذي في وجهِك؟

.. فأجاب القمرُ:

- يحدثُ في قلبِك أن يمتلئ بحبِّ الخير للناسِ، ويحدثُ أن يملأ وجهَك الرحمنُ بالنورِ.

.. فعادت ملتاعة عليه تسألُ:

- بم تردُّ على هؤلاء يا ولدي؟

- لا أردِّدُ ما تردِّدُه البهائم إذا تحوَّلَ العالمُ إلى حظيرةٍ يا أمَّاه.

.. فارتفع صوتٌ بسخريةٍ:

- لا بدَّ وأنك قد افتقدتَها أسرعْ واذهبْ إليها!

.. فلاحقه حمزةُ قائلًا:

- هل تستطيعُ أن تتخيَّلَ حجمَ آلامِ طفلٍ سقطَت على صدرِه حفنةٌ من ماء النارِ دفعةً واحدةً، يا وجع الحنين إلى لقاءٍ في عينيك ولو كنَّا عابرين.

.. لا تعرفُ كيف استمال حمزةُ الناسَ، وكيف أضحك الحشودَ على الذين أرادوه أن يبكي، ربَّما الناسُ لا يريدون حريةً بقدر ما أرادوا رجلًا حرًّا.

.. ولا يزالون يحاولون إحراجه:

- ابعث لها برسالةٍ من هنا فربَّما تسمعُك.

- شعرتُ بمرارِ العالمِ في فمي فذكرتُ على لساني اسمَكِ، لكنني لم أقصد أن أتناولَ كلَّ هذه الكمياتِ من الحلوى المستوردة من الجنةِ، كم يقدَّرُ الوقتُ الذي من الممكن أن يحتملَه رجلٌ في غيابِك قبل أن ينتحرَ مسجِّلًا اسمَه في سجلَّاتِ الغارقين، يا وجعَ اللهفةِ العنيفةِ إلى لقاءٍ في عينيك، ولو كنَّا ذات صدفةٍ عابرين.

.. قال أحدُهم لصاحبِه:

- انظرْ لقد أوشك ذلك الكافرُ أن يكتبَ اسمَها على جدران المعابد!

.. ووسط تعجُّبِ الناسِ داهمَه حمزة صارخًا:

- لا يكن نهيُكَ للناسِ عن المنكرِ منكرًا، ثمَّةُ أكثر من طريقةٍ للفوزِ بالجنَّةِ إنما إن لم يكنْ مِن بينِهم أنثى سيُقْذَفْ بك في قعرِ جهنَّم، هنالك الكثيرُ مِن الأشياءِ تجعلُ اللهَ يفرح، كابتسامةِ أنثى إن كانت مِن العمقِ، أفضلُ الأوقاتِ للتعرفِ على اللهِ هو وقتُ حبُّك لامرأةٍ تحبُّك، وأقول لكل الذين يحاولون العودةَ إلى اللهِ عودوا ولكن من طريقِ الحبِّ والسلامِ والجمالِ، وإلا فإنَّ عودتَكم إليه أشدُّ معصيةً من بقائكم كافرين، وها نحن أمامَ اللهِ العظيمِ عائدين نادمين حاملين الحبَّ للعالمين، ولا أدري بصدقٍ ماذا كان سيفعل بنا غضبُ الإله لولا أنه كان يحبُّ المستغفرين.

الله يحبُّ الأقوياء ويحب الذين تقبّلوا منه هديةَ الحياةَ التي منحها فرصةً مرةً واحدةً للبشرِ، ولا أدري لماذا أصبح الذي على قيدِ الحياةِ غريبًا بعدَ أن أمسى من المألوفِ أن يبيت الناسُ أمواتًا، شغلَتْنا الحياةُ عن الحياةِ فهربْنا من الحبِّ هروبِ غزالٍ كَسِيحٍ مِن الضواري ذات جوعٍ لا نملكُ الفرارَ ولا نملكُ المواجهةَ، وسنموتُ كالذين ماتوا من قبلِ خائفين.

.. لم يستسلم الحاقدون لالتهابِ مشاعرِ العامةِ بالحبِّ للبطلِ الداهيةِ، وراحوا يحرضون في مختلفِ الحشودِ وأثاروا فوضى عارمةً كادت أن تُسْقِطَ الدولةَ وما عليها، كانفجارٍ كبيرٍ لولا أن شَقَّتْ الصفوفَ ريسال في هيبةٍ وجمالٍ بصوتٍ نشرَ مخدراتِ الروحِ في عروقِ الجبالِ؛ فصمتَ الجميعُ مرغمًا على الإنصاتِ وهي تشقُّ الناسَ وتنادي:

- ما كان اللمس بمَسْكِ الشيءِ، فكم من شيءٍ في أيدينا وما مِن لمسْ، وتعالَ لتشهدَ كيف النهرُ جِوارِي وجفَّ الحلقُ وأنت بعيدٌ جدًّا جدًّا لكن أُغْمَسُ بين شِفاهِ جنونِكَ غمسْ، ياليتَ صرَخْنا وقلنا آهَ ولعنةُ ربِّ الدنيا على الجبناءِ على قبلاتٍ كانت تخشى فضيحة همسْ، يا ليت جريَنا حبيبي حفاةً ثم خلعنا كلَّ ملابسِ خوفِ الروحِ، ومارسْنا الأحضانَ جهارًا بين

الناسِ بكلِّ طرقات هذا العالمِ تحت الشمس، وسنلعنُ أنَّا كنَّا نخافُ ويالللهولِ وتبًّا كيف ذهبْتَ ولم أستنشقُ كُلَّكَ حين تشابكْنا في رعبٍ ليلةَ أمْس.

تاللهِ وربِّ الدنيا إنَّا صرْنا مجوسَ وصِرْنا نخافُ نقولُ عشقْنا، مع أنَّا صرنا كبعضِ مخدر مِن فرطِ التنهيدِ وكنَّا نودُّ لو استُنْشِقْنا.

لا يمكننا أن نكفرَ بالتنهيدِ، الحبُّ نسيجٌ داخلَ كلِّ خلايا الروحِ، فكيف يعادي النبضُ نسيجَه، ورسولُ اللهِ أتاه الوحيُّ بغار حراءَ فخاف وأوَّلُ شخصٍ فكَّرَ فيه خديجة.

يا ربي إني أحبُّ حبيبي فيك فخبِّئني في حضنِه يومَ أموتَ بِساعةِ حبٍّ طائشة، وأمِتْني فيه كموت رسولِ اللهِ بِحُضْنِ ذراعَي عائشة.

.. انتهت الفوضَى في بضعِ دقَّاتِ روحٍ وعاد والتفَّ الناسُ حولَ حمزة بينما عادت هي بجوادِها الذي كانت عليه من حيث جاءت.

.. انتهى الخطابُ وانتهت معه آخر آمالِ أعداءِ الحياةِ في إحراجِ الحصانِ العنيدِ، وانقلبَ السحرُ على الساحرِ فعرف الناسُ وجوهَ المنافقين الذين صاروا ككلابٍ أصابها الجربُ يتقيَّأُ من منظرِها العابرون.

.. اجتمع الملكُ بحمزة على مدارِ ثمانٍ وأربعين ساعةً، وأعدوا خطَّة لا رحمةَ فيها وأمروا بقطعِ رقابِ كلِّ من تجرَّأ على هيبةِ الدولةِ، ووضعوا القوائم السوداء.

-13-

تفاجأ حمزة بغضب ريسال العارم واحمرار وجهِها كجمر الجحيمِ، فهرولَتْ رأسُه إلى الذي حدث في الدقائق الماضيةِ، فلم يذكرْ أنه أهانها بشيءٍ، فحاولَ عبثًا أن يتفهَّمَ أسبابَ ثورتِها إلا أنه دُهِشَ حين رآها تجمع ملابسَها في حقيبةٍ وتقولُ:

- وإذا التقَينا بذاتِ يومٍ في احتفالِ جنازتي، فسأخبرنَّك كيف عشْتُ أحبُّ فيك دون خَوفي، ولتخبرَنِّي كيف مِتَّ بكلِّ يومٍ عشْتَ فيه، وتعيدُ تمثيلَ الجريمةِ حين كنتَ بقلبِ جوفي.

- عن أيِّ خوفٍ تتحدَّثين يا ريسال؟!!!

- كل الذي بيننا كان، وما كان لا يمكنُ أن يكون مرة أخرى، وحذار أن تمسَّ طرف ملابسي.

.. أمسك حمزة بخصرها في خوفٍ رهيبٍ وقال مرتعِبًا:

- كيف يمكنني ألا أتمسك بكِ كي لا تمضي بعيدًا، أتريدين أن أموتَ كافرًا؟!

- وما علاقةُ الموت كفرًا بانفصالِنا أيها الأحمقُ؟!

- أليس نسيانك أن تعانقَني انتحارٌ؟!

- لماذا عندما عُدْنا ودخلْنا غرفتنا لم تعانقْني؟!

.. فالتقطَ حمزةُ أخيرًا أنفاسَه وشدَّها من الحريرِ الطويلِ الذي وصلَ لأسفلِ ظهرِها الساحر العريضِ فقال:

- كيف يمكنك الدخولُ رسميًّا لاختراقِ صدر امرأةٍ بطريقةٍ شرعيةٍ إلا إذا أتقَنْتَ بطريقةٍ غيرِ شرعيةٍ التسلُّلَ؟!

- ما لبث حبُّكِ في صدري بضع سنين، وإنما حبُّكِ هو صدري.

.. وحدَّق في عينيها عن قربٍ شديدٍ مخاطرًا بوقوفِه على حافةِ الضياعِ فيها:

- كلُّ الملوك أمامَ خصرِك ينحنون مع العبيدِ، وكلُّ أنثى بعد حُسْنِك أقعدوها مع الإماء؛ لا يشبه الأقمارَ وجهُك إذا يطلُّ على عيوني في الليالي من السماء، وإذا ذكرتُك حين أعطشُ تأتني الأنهارُ تجري في العروقِ، وعشتُ أحسبُ كالغبيِّ إذا عطشْتُ شربْتُ ماء.

.. وعاد إلى المهرةِ حصانُها بعناقٍ أقلَّ ما يوصفُ به أنه كان جدًّا عنيفًا، وهي تهمسُ تحت أُذنيه:

- لا يجبُ أن تكونَ في نفس المكانِ الذي أنا فيه لكي أُقبِّلَكَ، وإلا فكيف يقلقُهم صوتُ شفتينا وكلٌّ منا في مكانٍ غير قريبٍ.

.. فسجد باكيًا ودعا بصوت تسمعه:

- اللهم أسكنِّي فردوسَ عناقِها وأخرجْني من ضيق الدنيا إلى براحِ عينيها، اللهمَّ ارزقني موتًا على صدرِها كموتِ محمدٍ رسولِ اللهِ بين ذراعي عائشة.

.. ثم اعتدل وسألها وهو يقبِّلُها:

- قبلَ أن أحبَّك جدًّا حين كنتُ أحبُّك، لم أكن أعلم أن جدًّا هذه هي التوابلُ التي تعطي للاشتباكِ مذاقًا لذيذًا ... هل مسَّكِ مكروه في طريقِ عودتِك؟

.. أجابت:

- الخوفُ بعينِكِ أمنٌ لكنْ مؤتمراتُ سلامِ الدنيا بعيدًا عنك حبيبي مخيفة، وطعامُ الدنيا بعيدًا عنك كجيفةِ كلبٍ فوق لساني أحبُّ طعامًا يجمعُنا حتى لو جئتَ إليَّ بِجِيفة.

.. ثم عادت وابتسمَت لا سيما أنه قد سرقَ من شعرها ودعا ثم وهَمَسَتْ:

- لقد نجوتَ بأعجوبةٍ من محاولةِ اغتيالِك، فلماذا ما تزال تغامرُ بعمرِك حول مسرحِ جرائمِ عينيها؟!

.. فقال لها وهو يلمِّحُ لها بالذهاب إلى الصحراء حيث كوخها بعيدًا عن الناس خوفًا عليها:

- من قال سنكفرُ دعْه يقول، وتعالى نصلِّي وراءَ الحقول؛ الناسُ تقاتلُ في العشَّاقِ وتحرقُ كلَّ اللامعقول.

.. فقالت له وقد أدركَتْ ما يرمي إليه:

- أتهرب بي من الموتِ يا حمزة؟!

- لا بل أخاف عليك من فتنةِ المنصب و..

- ما وجدْتُ أشدَّ فتنةً من الذين يتركون المناصب خوفًا من الفتنة، ثم يتركونها للذين لا يخافون الفتنة.

.. فأخذها في حضنه بعنفٍ شديدٍ وما يزال مشهد الكابوس يطارد ذاكرتَه:

- لا أولياءَ بهذا العالمِ دعْنا ننجو من الخاطفين، العشقُ يقتِّلُه الكفَّارُ ويُنفَى من الأرضِ المُصطفون.

.. فقالت له:

- سنموت ونحن نقاتلُ في سبيلِ اللهِ بالعملِ في الطرقات بين الناسِ يا حمزة.

..فقال لها مبتسمًا رغم العبرات:

- ما يزالُ الموتُ هو معراجُ السَّالكين إلى الحياةِ في عينيك، تعالي لنستترَ في جملةٍ بِضميرٍ غائبٍ كي نرتكبَ القُبَلَ بين السُّطورِ في عالمٍ يعدُّ الحبَّ علانيةً من الخطايا.

.. قالت في إيمانٍ غريبٍ وهي تحلِّقُ في سموات عينيه الخائفتين:

- ذلك المشهدُ الذي زيَّن به الرحمنُ السمواتِ للناسِ يُصابُ آخرون بالهلعِ منه؛ ذلك أن الكونَ الساجدَ لربِّ العالمين يُدخلُ الناسَ جنَّةَ الإيمانِ ويدخلُهم إذا غضبَ أيضًا جحيمًا قبلَ الجحيمِ، فترى المرء يطيرُ سعيدًا بخبزٍ وشربةِ ماءٍ، وآخرين كُتِبَ على وجوهِهم مِن فرطِ شؤمِهم الوجومُ.

- الموتُ يحاصرُ.....

.. فقاطعتْه قائلةً:

- سيكون جميلًا الموتُ معك.

- أحبُّكِ يا..

.. فقالت بعنفٍ له وهي في أعماقِه:

- بشهيَّةِ طفلةٍ يتيمة ابتلعَتْ ريقَها إذ رأت فجأةً قطعةً من الحلوى حين كانت في الطرقات أشتهيكَ.

.. تناول منها قُبْلَةً رقيقةً فقالت بغضبٍ:

- أفْقِدْني الوعيَ أو ارحلْ عني فإني كرهْتُ النصفَ حياة، واذهبْ وتعلَّمْ كيف يكونُ الحبُّ عنيفًا كيف تُقَطَّعُ أيُّ شِفاه.

.. وبينما هو ما يزال يدمع ويحدِّقُ فيها ويبتسمُ كطفلٍ بريءٍ أحبتْ أن يشتدَّ الاشتباكُ فقالت بأنوثةٍ طاغيةٍ:

- ستمرُّ الدنيا بالأعوامِ وسوف نشيبُ وأنت كذلك يالَلْهَولْ، قُلْ كيف تحبُّ وأن أُحبُّكَ ليست قَولْ، لكنَ أحبُّك في إتمامِ نِصابِ شِفاهي مِنَ القُبُلاتِ قُبيلَ مرورِ شهورِ الحَولْ.

.. صمتت وهي ما تزال تحدقُّ في فضاءات عينيه ثم قالت:

- قد أهلكني ظمأُ الأشواقِ إلى رجلٍ يجتاحُ تَشَقُّقَ عمقي بعمق، وأحبُّ رجاحةَ عقلِ الفارسِ حين يُزِيدُ جمالَ الهيبةِ إلا وقتَ الحبِّ أحبُّه فوقَ الحُمْقِ حبيبي بحُمقْ.

.. فقال لها وهو يحدقُ في ملامحِها وعيناه على شفتيها:

- شفتاك إن شدَّتْ جنوني في العميقِ فأين بعد إذْ انتهيتُ توصِّلاه، فلقد ذكرتُكَ حين نمتُ وحين قمتُ وحين كنتُ مع السكارَى وحين أسجدُ في الصلاه.

.. قالت بعد أن قفزَت من الفراش بعودِها الفارعِ:

- لو أنِّي أخشى أن يحسدوا المهرةَ على حصانِها أثناءَ المعركةِ لطلبتُ نزالًا بيننا في الطرقات.

.. فأخذَتْه من يدِه بعدَ أن ارتدَتْ قناعها إلى حيث الخيول، وأشارت له بعد أن ركبَتْ ليركبَ خلفَها يحتضنُها وانطلقَت في طريق المدينةِ الرئيسيِّ فخلعَ قناعَها وهما منطلقان بسرعةِ الرياحِ وقال لها:

- هيَّا كي نخلعَ كلَّ ملابسِ هذا الخوفِ ونجري عرايا إنَّا سئمنا حفلَ نفاقِ الدنيا، وإنَّا سئمنا أن نتنكَّر، وسنمشي ونلهو ونَسْكَرُ كي نغتابَ الأمسَ ونشطبُ عنوانَ الأحزانِ لكى لا نُبْقِيَ ماضٍ فينا أو عقلًا يومًا يتذكَّر.

.. وهنالك حيث خرجوا من المدينةِ وقد أصبحَتْ البيوتُ على مدِّ البصرِ أوقفَت الجوادَ واستدارت عليه فقال لها:

- أنا بين ذراعيك إذن أنا موجود.

.. فوضعَت يدَها على شفتيه ليكفَّ عن الثرثرةِ وقالت:

-دعْنا مِن هذا الذي يقولونه الحبِّ وتعالَ لنفعلَه.

.. بدا عليه الخجلُ من عريِ كلماتِها وقال:

- توقفي!

- لماذا أتوقَّفُ عن حبِّك وأموتُ كافرةً!

- توقِّفي.. نؤجل ال..

فقاطعتْه متصنعة الغضب:

- كيف أؤجِّلُ حبَّكَ وقد يخطفُني الموتُ قبل الوصال، تبًّا للخجلِ تبًّا للناسِ هيا بنا نتوارَى.

.. توقف واستسلم فقالت:

- أُوصيكَ بي عسلًا إن اشتبكْنا سكارى، فإن الأمرَ لا يعودُ إلى القُبَلِ حين نقعُ في الحُبِّ، وإنما يعودُ إلى القُبَلِ حين يقعُ الحبُّ فينا؛ إن عسلَ الحبِّ غير العسلِ الذي يصنعون، أفإنْ جُنِنْتُ وشطَطْتُ إلى الجنونِ فما فوقَ أو غبْتُ عن الوعيِ ذاتَ عناقِنا في العميقِ حذارِ أن تفعلَ ما يفعلون.

.. فسألها متعجِّبًا:

- وماذا في وصيتِكِ؟!

.. فأجابت وهي ترتمي فيه وتبتلعُ شفتيه:

- في زمنٍ لا نكادُ نميِّزُ فيه الرجلَ مِن فرطِ نعومتِه عن الأنثى حين نشتبكُ اشتدْ يا رجلًا عليَّ وكُن حصانًا بكلِّ ما أُوتِيتَ مِن صهيلٍ، وإذا صرخْتُ عليك لا تُبالي.

.. فقال لها وهو يبعدُها عن عناقِه ليحدِّقَ في ناصيةِ عينيها في ذهولٍ عارمٍ:

- يا أيَّتها الخمرُ فما فوق كيف جعلْتِ مِن عميدِ الجبَّارين سكِّيرًا في متاهاتِ دوَّامةِ عينيك؟!

.. فوضعَتْ أناملها على شفتيه وهمَسَتْ:

- لا ترحمْ يومًا غَوْثَ صراخي، واهتِكْ عِرْضَ حيائي بعُنْفِ هجومِ ضوارٍ خَلْفَ غزالٍ ضَلَّ قطيعَه، كم يبغضُ قلبي صيغةِ فعلِ الأمرِ سوى في أمرِ لقائكَ مهما أمرْتَ فسوف تراني حبيبي مُطيعَه.

.. وبينما هي تقضمُ فيه سالَ على شفتيه العسلُ شعرَ ببعضِ الحرجِ فقالت وهي ترفعُ حاجبيها تعجُّبًا:

- ولَصوتُ شهيقِ سقوطِ رذاذِ شفاهكِ عندي أحلى من شلَّالاتِ الهيروين وأيَّ حشيشٍ للتخدير، قد كنت أظنُّ بأن النكهةَ من قبلاتك بحرٌ أغرقُ فيه ولكنْ تلك الرعشة من خفقاتك ليست بين مسامي هدير.

علمني كيف أحاول في أعماقٍ تبدأ من أعماقِ البحرِ الأعمقِ أن أتعمَّق، كم أكره في القبلات نعومة صدمة تنهيدات الشهق فما للشهدِ بأن يتنمَّقْ!

.. فقال لها وهو يحاولُ أن يلملمُ أشلاءَ أعصابِه المبعثرةِ في العِناقِ:

- صباحُ اللهِ الذي في وجهِك، ما أجمل عينيك المتَّهمتين بخطفِ البشرِ حين تضحكين، وقد كنتُ أحسبُ أنهما آيتان للجمال فقط وقت الحزن!

.. فقالت:

- ليس بيدي إلا بين يديك أن أكون.

.. وتخلَّتْ نهائيًّا عن قيودِ الخجلِ قائلةً وهي لا تنفكُّ تعانقه:

- أنا لا أعيشُ بعمقِ حضنِك أو شعورٍ بارتياح، لكنني من دون حضنِك تخنقُ الروحُ المشانق، إن كنتَ تعلم أن فكَّ عناقي موت، فاتركْ الدنيا وعانِقْ ثم عانِقْ ثم عانْقْ.

.. فسألها سؤالًا غريبًا:

- أتفتقدين أباكِ يا ريسال؟

- لا يشتد فقدُ الأنثى لأبيها إلا إذا خذلَها حبيبُها.

.. ثم تابعَتْ تقولُ في حُرْقَةٍ:

- اليُتْمُ بعينِيك مثلَ معانقةِ الأبوين لطفلِهما وجميعُ قصورِ الدنيا تشرِّدُني وبحضنِك أسكنُ حتى ولو جعلوني لقيط، وما ليَ لم تغرقْني بحارُ الأرضِ وأغرقُ حين تحدِّقُ نحو شفاهي بدوَّاماتِ دُوارِ الحبِّ وأشعرُ أني بقلبٍ محيط.

وحبسْتُ شهيَّةَ شوقي للتقبيلِ وقلتُ سأسكتُ حتى شعرتُ بِصمتي وراء شفاهي تَخَمَّرْ، قبِّلْني لتهدأَ حُمَّى سعار شهيقي وحين تراني أفيقُ تنمَّرْ.

- أحبُّكِ وليس بيديَّ إلا أن...

.. قاطعتْه ريسال متعجبة:

- ولماذا تحكي كيف تحب وكيف عجزْتُ بألا تحبَّ سيقطعُ وقتَ الحبِّ السيف، قَبِّلني بعمقٍ إني أخافُ يضيعُ العمرُ بِكيفَ وكيف وكيف وكيفْ.

- تشوَّقْتُ أن تحكي لي يا ريسال كيف اخترعَ سيدُ الآسرين الحبَّ وكيف كان صهيلُ لقاءاتِه بمُهْرَتِه عنيفًا؟

.. فقالت وهي تتنهَّدُ إذ سرحَتْ ذاكرتُها في الماضي البعيدِ:

- دعْنا لا نقيمُ الليلَ إلا هناك.

- أين يا ريسال؟

- هنالك في كوخي بعيدًا عن العالمِ لأحكي لك كيف ألبَسَ سيدُ الآسرين الهوى بالمشاعرِ العاريةِ، وكيف كانت الشِّفاهُ عاصيةً في زمنٍ حُرِّمَتْ فيه القُبَلُ، وكيف كانت درجاتُ حرارةِ الاشتباكات.

.. أحس من ملامحها أنها بالفعل قد قررت الذهاب وأن أمر أخذ مشورتِه المطروح ما هو إلا تشريف أنثى لكلمة رجل ... لكنه لم يعبأ بإصرارها إذ أن هذا القرار سيوفر له مزيدًا من الانفراد بها، حتى إنه لم يبال بأمر الحراسةِ..

- أأخبرُكِ بشيءٍ يا ريسالُ لم أُخْبِرْ به أحدًا مِن العالمين؟

- أخْبِرْني يا حصاني العنيدَ.

- عندي نسخةٌ مِن روايةِ أسرار التنهيدةِ الأولى.

- لا أصدقُك يا قاتلَ كلَّ الذين آمنوا بها أعطني على صدقِ حديثِكَ دليلًا!

.. فقال حمزة مِن الروايةِ جُملًا وهو يحدِّقُ في عينيها:

- لِفَخامةِ كُحْلِ سُمُوِّ أهدابكِ سِحْرٌ هَزَّ بَلاطَ ملوكِ الدنيا وطالَ أباطِرةً وعِظام، في الرَّمْشَةِ يُهْتَكُ عِرْضُ مفاصلِ كلِّ رجالِ الأرضِ ولا يبقى في الجسم عِظام.

- معنى هذا أنك توقَّعْتَ أنه أنا عندما صافحْتُكَ يومَ حُكِمَ عليَّ بالرَّجمِ وقلتُ لك جزءًا مِن الروايةِ المحرَّمةِ:

«الخِلْسَةُ عند تَسَلُّلِ زِرَّ قمِيصي تَفُضُّ الصَخْرَةَ والفولاذ، الأُنْثَى تُغْرِقُ فيها البَحْرَ وحين تُحِبُّ تَراها تَغْرَقُ في قَطَراتِ شَهِيقِ رَذاذْ».

.. أوماَ برأسِه بمعنى أنه كان يعلمُ؛ فعانقتْه وهي تبكي بكاءً جرَّحَ في صدرِه ثم ضحكَتْ ثم بكت ثم ضحكت، وهكذا كان طريق الضبابِ المتجه إلى كوخ الحب.

.. وصلت الثرثرة بينهما إلى حدِّ أن الطريق الطويل وكأنه كان بين طرفةِ عين وأخرى، لكن حمزة كان مستمتعًا جدًّا بفكرِها وحكايات أبيها التي كانت مبنيَّةً على توقُّع ما سيحدثُ في المستقبل بغير دَجَلٍ ولا شعوذة، وكأنها مثلًا خطَّةً طويلة الأجل، وكان من بين الجمل التي أعجبت حمزة بشكلٍ خاص قولها له:

- العَداوةُ فكرة والفكرة تشبه الأرنبة الولود إلا أنها تلد كلَّ يومٍ ضدَّك أعداء جُدُد، فما عليك أن تفعلَ غير القضاء على الأرنبةِ الأمِّ نهائيًّا، ذلك أنك إن لم تنجح في ذلك ستعيش فقط لتقتلَ أولادها ثم تُفاجأُ بولادةِ آخرين فتقتلهم، فتنشغل أنت ومن معك عن بناء دولةٍ قويِّة تستر لحم العرب وتقيم حدَّ الغضب على مَن يقوم بمضاجعتِهم، ذلك أننا أمَّةٌ لم تغضب مرَّةً واحدةً منذ مئات المضاجعات.

- أعترف أني متهوِّرٌ جدًّا يا ريسال و..

- نعم كنتَ متهوِّرًا جدًّا وركعْت معترفًا بحبك لي سريعًا يا حمزة.

- كنت وضحًا وهل أصبح الوضوح عيبًا أيتها الثرثارة؟

- يا حبيبي لك العذر لا يمكنك المقاومة، لكنْ فعلًا بعيدًا عن المزحِ وبعيدًا عن التبجُّحِ، لأنَّ المجتمع النسائي في بلادِنا الغريبةِ باتت علاقته بالرجال أشبه بشبكةٍ من العلاقات السريَّةِ، فقد أصبح الرجل الواضح التلقائي بفطرتِه إذا طلع عليه النهار وأراد أن يخبرَ إحداهن بحبِّه تصدمُه بالجملةِ الشهيرةِ «أنت في عيني كأخي»، ماذا سيحدث لو قالت له أنا مرتبطة عاطفيًّا أو أعلنت ذلك من قبل على الأقلِّ في محيط الأصدقاء والأقارب، حتى لا يُصدَم السُّذَّجُ الطيبون بمثل هذه الجُملِ الجارحةِ من جانبٍ أو تحمي نفسَها من مطاردته لها حين يتأنَّق ليعود إليها بمظهرٍ جديدٍ مرة أخرى، لماذا مصرُّون نحن على الحبِّ في عشش الفراخِ وفي ظلام الحقولِ؟!

- في بلادنا ليست للناس أهدافٌ إلا عرقلةُ ذلك الذي في طريقِه إلى الهدف!

- من الذي يثرثر الآن يا حبيبي كنا نتكلم في موضوع وقفزْتَ إلى آخر!

.. حاول حمزة العاشق أن يتكلم لكنها قاطعتْه وهي تستكمل مسلسل ثرثرتِها:

- ليست المشكلة في قدرتِك على السرعةِ الرهيبةِ تجاهَ الهدفِ بخطٍّ مستقيمٍ لتحطيمِ رقمٍ قياسيٍّ في الوصول إلى الحلم، وإنَّما ألا يكون هذا هو الطريق العكسي، وتكتشف أن المسافةَ بينك وبين ما كنتَ تريده أصبحت بعد كل هذه السنين أبعد من الخيال.

- يخجلني ما يقوله غير العرب عن العرب و..

فقاطعتْه مرة أخرى وهي تضحك وتردِّد جملة غير العرب الشهيرة عن العرب:

- لا تحاول أن تكون عدوًّا للأغبياء؛ فقط انسحِبْ واتركْهم قليلًا، إنهم سيتَّفقون على قتلِ أنفسِهم إن لم يجدوا شيئًا يتَّفقون على قتلِه.

.. ربط الحبيبان الجوادَ وكانت ريسال قد أحضرت معها القوسَ وجعبة السهام وأخذتْها ووضعتْها تحت الفراش، بدا الأمر لحمزة أنها تريد ألا تعم المكان فوضى الأشياء ليبقى

مرتَّبًا،

وبينما كان العاشقان يمارسان الحب في غفلةٍ من العالمين، كان ثلاثمائة رجلٍ من الملثَّمين يمتطون خيولًا ضخمةً يحاصرون كوخ الحبِّ حصارًا دائريًّا عنيفًا، حتى أشار كبيرهم للرماةِ لكي يمطروه ومن فيه من كل جانبٍ بالسِّهامِ؛ فاندفع غير واحدٍ يشيرون على الكبيرِ بإلقاءِ النار وإحراقِهم نهائيًا ذلك أنهم يخشون من تلك المرأةِ الملعونِ أبوها ولا يعرفون بأي مفاجأة قد ينتظر فقال كبيرهم:

- أتخافون رجلًا قد مات منذ عشرين عامًا وأكثر أيها الحمقَى؟!

- إنه في روايته المحرمة رتَّبَ لكلِّ شيءٍ شيئًا يا سيدي!

- وما أدراكم أنه لم يرتِّب حين نلقي على الكوخ النار؟!

- من المنطقي يا سيدي أننا نرمي السهام، فإن ألقينا النار نكون قد خالفْنا تفكيرَه وتوقُّعاتِه ويتفحمون أمامنا الآن وننتهي ونعود لنحاصر المدينة ونسيطر عليها مرَّةً أخرى.

.. بُث الرعبُ في قلوبِ الثلاثمائة ملثَّم وهم ينظرون إلى الكوخ من بعيدٍ، ولم يجد كبيرهم مفرًّا من الرضوخِ لرأيهم وأشار فأُلقِيتْ النار وبدأتْ الشعلات بالتساقط على الكوخ، وبدأت النيران تضيء ظلام ليل المكان الهادئ البعيد لتحرق العاشقين إلى الأبد.

.. إلى أيِّ مكانٍ يذهب العشَّاقُ إذا كان الحقدُ في كلِّ الأماكن بانتظارِ القُبَلِ والعناقات التي تقع.

.. تفاجأ حمزة بالصواعق فوق سقف الحبِّ لكن ريسال ما يزالُ الهدوءُ يمارس دورًا على ملامحِها، فتناولَت يدَ حمزةَ وكأنما اختطفتْه من مكانِه ونزلت به أسفلَ فراش الغرام، وبينما حمزة يرتجف خوفًا عليها ألقى نظرةَ الوداعِ على القمرِ فتفاجأ بأنها تقبُّله وهي تقولُ:

- يجبُ ألا يتوقَّف الحبُّ عن العملِ!

.. ثم بدأت بِكَنْس ما أسفلهما من ترابٍ فإذا بغطاءٍ من الصخرِ؛ فأشارت إلى حمزة بأن يرفعه معها فلمَّا رُفِع تفاجأ حمزة بأنه غطاءٌ لنفقٍ تحت الأرضِ؛ فعلم سرَّ هدوئها الكبير، ثم نزلَا وأعادَا إلى فتحةِ النفقِ الغطاءَ وتوجَّهَتْ به إلى سردابٍ بدا لحمزة أنه مرَّ من تحت أقدامِ الملثَّمين، فانطلقَت به حتى إذا وجدَتْ فتحة أخرى أشارت إلى حمزة برفعِها فلمَّا رفعها نظر منها فإذا به خلفَ ظهر الملثَّمين في مكان عالٍ يشبه التلال، فقالت له بينما كان الملثمون مشغولين بالنظر في حريق كوخ الحب وتفحُّم جثَّة العشق:

- الآن هم صيدٌ لك فانظر ماذا تفعل.

.. ابتسم حمزة وقال لها:

- انتهى دورك ودور أبيك إذن، والآن أتى دوري لأموتُ فداءً لعينيك.

- أيها الأحمق لماذا تموت وتترك عينيَّ إذا كان يمكنك البقاء لهما؟!

- إنهم كثيرون جدًّا ونحن اثنان فقط!

- قُل لهم بصوتٍ جهوريٍّ غير صوتك السابق ليفهموا أننا لسنا اثنان بل أكثر «لا ينظر أحدُكم خلفَه ولو نظر سيسقط قتيلًا».

.. فلمَّا قال حمزة التفتَ كبيرُهم خائفًا فاصطادتْه ريسال في منتصف صدره، فسقط بالقوسِ والسهام اللذين كانا مخبَّئين تحت سريرِهم فبدا المشهدُ وكأنها قيَّدت الباقين مكانَهم.

.. فقالت لحمزة قل لآخرِهم قيِّدْ الذي أمامك في يديه من الخلف بالقناعِ الذي تربط به رأسك، فلمَّا أمره حمزة فعلَ فاصطادته ريسال في منتصف صدره فقال حمزة للملثمين بصوتٍ قلَّد فيه صوت كبير الحراسِ:

- هذا مصير كل من يربط رباطًا لا يليق بالأسرى.

.. فابتسمَت ريسال وعلمَت أن حمزة قد فهم الخطةَ، وبدأ أحدُهم بأمر من غضبِ حمزةَ بعملية التقييدِ حتى انتهى، فذهب إليه حمزة وقيَّدَه فلمَّا استدار لهم عرف من بين الثلاثمائة خمسةً فقط فقال لريسال:

- تلك هي الأرنبة وهؤلاء هم أولادها.

- سنتحدَّث مع الأولاد ولا حديث لنا مع الأرنبة إلا بعد أن نصيبَها بالعقم.

.. وذهبت ريسال مسرعة وأغلقَت الفتحة التي على التلِّ من السرداب.

.. واقتادهم حمزة مقيَّدين إلى كوخ الحبِّ ومن فتحة السردابِ تم إسقاطهم واحدًا تلو الآخر.

وبعد أقلِّ من دقيقتين كان فيهما حمزة يفكر كيف سيستدعي إلى المكان الحراسَ لاقتياد هؤلاء، تفاجأ بكبير الحراسِ قادمًا بحشدٍ من الجند مدجَّجين، فعلم وكأن ريسال قد توقَّعت ما سيجري وأعدَّت للأمر عدَّته، فلما نظر إليها قالت وابتسامة ترتسم على شفتيها حين وقف مذهولًا مما رتَّبت:

- لا يظهر الثعلب الجبان من مخبأه إلا حين تتسكَّع الدجاجة وحدَها على الطريق.

تم اقتياد الثلاثمائة إلى مدينة روماف بعد أن أعاد الجنود بناء ما دمَّرَتْه النيران، وما عاد في المكان كله إلا حمزة وريسال، ثم ارتاح حمزة وتنفس الصعداء، ونزل الليل يوسوس في رأس حمزة بالانفراد أخيرًا بحبيبة الروح، لكنه تفاجأ بسماع أصوات ضجيج أقدام خارج الكوخ؛ فانطلق حاملًا السيف فإذا به يُصدم بمئات الألوف من البشر قاصدين المكان للسلام عليه وعلى ريسال طالبين سماع حديثٍ منها تحت ضوء القمر، فلمَّا خرجت للناس قالت لحمزة وهي تقبِّلُه:

- قبلة في أقصى الحلق عميقة ثم أما بعد: نحيط ملابس سيادتكم علمًا بأن تستعد طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم للتمزيق على حين فجأةٍ لممارسة الجنون في عرض الشارع أمام العامة.

.. ثم استدارت للناس بأعلى صوتها باكية وسط انتباه وإنصاتِ الجميع بشدَّةٍ:

-مَرَّ الغبيُّ كأن فستاني الخليعَ وأحمرَ الشفتين جدًّا والضفائرَ والزجاجاتِ التي قد أُفرِغْت فوق النهودِ وكلَّ هذا بل وأكثرَ لم يزدْه سوى استكبار، وكأن شيئًا من ضبابٍ يحجب الفستانَ عنه وربَّما بعضُ الغبار.

ورجعتُ أبكي في الطريقِ وأضربُ الأرض اللعينة بالحذاء وقد كفرتُ بأيِّ حُبْ، فإذا بصوتٍ من ورائي يقولُ لي لو خيَّروني في الاستماعِ بين كلِّ الشِّعْرِ أو هذا السُّبابِ لقلتُ جِدًّا أن تُسُبْ؟

فوقفْتُ خجلَى كأنني سقطَتْ ثيابي أمامَ سوق، فجمعتُ نفسي شهِقْتُ جدًّا والتَفَتُّ وجدْتُ روحي في العناقِ بدونِ إذنٍ للصلاةِ أو الفسوق.

فهمَمْتُ أرفضُ قلتُ كلَّا سوف أرجعُ خطوتين إلى الوراء لكي يُهان بِكلِّ وجهِهِ لو بَصَقْت، فوجدْتُ نفسي بدونِ نفسي وقد أذاني أننا لم نلتحمْ جدًّا وجدًّا لم يكْفِني أنِّي التَصَقْت.

ثم انتفضْتُ من البكاءِ فقال لي لا تحسبي أن العيونَ اليومَ كانوا في غرامك زاهدين، لو كان لي ملك السموات البعيدة والأراضين السحيقة لاشتريت بكل هذا دقيقةً ليزيد عمري وليت عمري يزيد لو بدقيقتين وأستدين.

فصرختُ جدًّا في الغبيِّ وقلت يكفي اليوم حمق، أتظل تحضنني كذلك فوق صدرك حول خصري بدون عمق؟!

قَبِّلْ كياني من الأظافر حدَّ شعري بكل عنفٍ بالغزارة، وأقِم جحيمًا من جهنَّم في اللقاءِ ولا تفكَّ حبالِ أكتاف القميصِ وإنما اترك كل شيءٍ كيما يسقط بالحرارة.

.. ولمَّا اختفى على مدِّ البصر وسط الظلامِ آخر مشاعلِ الذين حضروا للحفل قالت لحبيبها حمزة:

- ألقني في الحب ليلقني الحب في الساحل فإن الدنيا خارج ذراعيك مذبحة.

ولأول مرة يشعر الذي قتَّل مئات الآلاف من البشر بالخجل فقالت مبتسمةً بدهاءٍ:

- استلَّ سيفك إني كرهت الحديث عن السلام والاستقرار في هذه المنطقة.

..فازداد خجله بينما كانت تمزِّق رداءها بيديها وهي ما تزال تفتري عليه:

- المتفحِّمون عطشًا لا يرويهم الحديث عن الماء؛ برأيك ما ردُّ فعل الذئب المسعور إذا صادف من بين الأحراش غزالة في النهر عارية؟! وكأن الدنيا قد تحوَّلَتْ إلى غرفةِ نومٍ كبيرةٍ تحت نور القمر، فانقضَّ حمزة على فريسته انقضاض الطيور الجارحة، فقالت وهي تحاول الانفلات من التصاقه بها:

- الشيكولا ليست للابتلاع وإنما هي تحبُّ أن تبقى تذوبُ فيك حتى تتلاشى، وعندما يراودُ التفَّاحُ عينيك لا تقلْ للحبِّ السلامُ عليك؛ إن الحُبَّ يقاتلُ الذين يبدؤونه بالسَّلامِ.

.. ثم تنهَّدَتْ وهي تبكي:

- صلاةُ الجنازةِ أربعُ تكبيراتٍ الأولى الفاتحة وفي الثانيةِ نصفَ التشهُّدِ الأخيرِ وفي الثالثةِ أترحَّمُ على كلِّ نظرةٍ من عينيَّ فتحتُها ولم تكن أمامي فيها وفي الرابعةِ أن لعنةَ اللهِ على كلِّ مَن فرَّقَ بين رجلٍ وحبيبتِه.

- الموت غربة كبرى لمن لا يموت عاشقًا على صدر امرأة تعانقه ذات رحيل، لكن لماذا أنا يا ريسال؟!

- وأظنُّ أني رأيتُ فيكَ جموحَ خيلٍ فوقَ خيطٍ من حرير خلفَ جوعٍ للفُهود، يتسلَّلُ الكِتْفَ الشِّمالِ يفكُّ حبلًا لم يُفَكُّ بِأيِّ عهدٍ للنصارى وألفِ مكرٍ لليهود، ورأيتُ عندك كيف يُسْرَقُ كُحْلُ عيني كيف تُخْتَطَفُ الفراولةَ كيف تُخْترَقُ النهود.

.. فتنهَّد شاهقًا:

- وأحبُّك أكثر مما يهوى أنانيو الأزمان جميعًا أن تتفضَّلَ أنفسُهم، وأحبُّك أكثر ممَّا لو قد عاد إلى الأمواتِ بكلِّ قبورِ الأرضِ تنفسُهم، هل تعلم أنه حين يقصِّفُ حَرُّ نسيم الجو أواخرَ طرْفِ ضفائر شعرك عيني حبيبي تحرسُهم.

.. فقالت وهي ملتصقةٌ به:

- لو كنت سمًّا لشربتك كي أبعث وأنت في فمي يوم القيامة.

.. ومِن دعاء سيد الآسرين صاحب رواية «أسرار التنهيدةِ الأولى» ولَّى حمزةُ وجهَه قِبَلَ السماءِ وقال وهو يحتضنُ ريسال:

- يا الله، لا تتجاوزْ عن سيِّئات الذين ظلموا عاشقِين؛ والقبلاتُ التي لم تقعْ والعناقاتُ من يعيدُها سيرتَها الأولى؟!

1. الغلاف
2. ريسال
3. ريسال رواية تأليف : سميح فتحي تصميم الغل...
4. -1-
5. -2-
6. -3-
7. -4-
8. -5-
9. -6-
10. -7-
11. -8-
12. -9-
13. -10-
14. -11-
15. -12-
16. -13-